الحرب السابعة

العدوان على غزه

د. عادل فهمى

مكتبة الشروق الدولية

الحرب العربية الإسرائيلية السابعة
قراءة فى الصحافة العبرية
والتقارير الدولية

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - فبراير ٢٠١٠م



٧ أ شارع فريد سميكة ــ مصر الجديدة ـ أمام نادى الشمس
تليفون وفاكس : ٢٦٤٣٢٤٨٨ - ٢٢٤٠٤٨٦٨
٢٢٤١٥٨١٦ - ٠١٠١٦٣٣٧١٨
Email: shoroukintl@hotmail.com
shoroukintl@yahoo.com

الحرب العربية الإسرائيلية السابعة
قراءة فى الصحافة العبرية
والتقارير الدولية

د . عادل فهمى



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

فهمى، عادل.
الحرب العربية الإسرائيلية السابعة: قراءة فى الصحافة العبرية والتقارير الدولية/ عادل فهمى.
ط ١ . ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٠م.
٢٧٢ص؛ ١٧×٢٤سم.
تدمك 0 003 701 977 978
١ ـ النزاع العربى الإسرائيلى.
أ ـ العنوان. ٣٤١,٥

رقم الإيداع ٤٣٢٩ / ٢٠١٠م
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 701 - 003 -0

المحتويات

الباب الثامن
حرب غزة ومستقبل الصراع

الباب التاسع
وبقيت كلمة أخيرة

الإهداء

إلى أطفال غزة

الذين جسدوا بصمودهم

مأساة شعب... وأحلام أمة.... وآمال وطن

تقديم

من يؤمن بالحق العربي الفلسطيني يخرج من قراءة هذا الكتاب أكثر ثقة في إمكان استرداد هذا الحق؛ لأنه يتكشف ما في الجانب الآخر المعادي من خلل واهتزاز ثقة، ويكشف أن هذا البناء الشديد الذي شيدته الصهيونية على أرض فلسطين ـ بدولته وجيشه ومستوطنيه ـ إنما جذوره وأسسه ضامرة، إن قويت على حمله فهي لا تقوى على إبقائه إن عصفت به العواصف. وإن أهم ما هو مطلوب من الجانب العربي هو استمرار المقاومة من الداخل ومن حولها، ولو بجهد المقل ولو بالفعل الوئيد. الاستمرار وطول النفس في المقاومة هو ما بها يسترد الحق ويعود لأصحابه، إن شاء الله تعالى.

هذه الحرب على غزة في ٢٠٠٨ و٢٠٠٩ يسميها هذا الكتاب الحرب السابعة. وأنا أحسبها الحرب الثانية عشرة فى سلسلة الحروب الأمريكية الإسرائيلية على العرب والفلسطينيين، وذلك إن أضفنا إلى السبعة المذكورين، حرب الاستنزاف التي قامت بها مصر على الإسرائيليين بين سنتي ١٩٦٧ و١٩٧٠ وانتفاضتي الفلسطينيين في سنتي ١٩٨٧و٢٠٠٠ وحربي العراق في سنتي ١٩٩١ و٢٠٠٣. هذه الحرب الأخيرة ـ وليست الآخرة ـ إذا نظرنا إليها حسبما يرد في هذا الكتاب نقلاً عن ألسنة وأقلام لإسرائيليين وغربيين، إنما تكشف عن أن النمر الإسرائيلي سيئول نمرًا من ورق بشرط استمرار المقاومة. بأي درجة من درجات القوة كانت.

الدولة الإسرائيلية تملك ما قد يزيد عن المائتين من الرءوس النووية، وجيشًا لديه أحدث المعدات، ومفتوحة له خزائن الغرب من المال والعتاد والسلاح، وهي مؤيدة تأييدًا مطلقًا من الولايات المتحدة الأمريكية سيدة العالم اليوم ومن الدول الأوروبية، وتقف معها صراحة أو خفية حكومات عربية يفترض أنها الأكثر أثرًا ونفوذًا في المنطقة العربية الشرقية اليوم. هذه الدولة الإسرائيلية بكلٍ ما لديها وما يساندها من قوى تغزو غزة في ديسمبر ٢٠٠٨ وتستمر تضربها شهرًا كاملًا، ثم تخرج لم تحقق أي هدف سعت إليه. وغزة هذه المقاومة التي لا يزيد شعبها عن المليون ونصف المليون نسمة من الجوعى العطاش المحاصرين المقطوع عنهم المؤن والزاد والمحرومين من أي دعم من دول الجوار ومن العالم، هذه غزة لم تلن عريكتها ولا ضعفت إرادتها.

والنتيجة أنه عَجَزَ العملاق الإسرائيلي عن أن يحقق أي هدف له أمام قوة متناهية الصغر.

وهذا الموقف يستوجب منا أن نقف طويلًا ونعيد تقدير موازين القوى بين المعتدين والمقاومين، ذلك أن المعتدي يبغي مصلحة له بينما المقاوم يدافع عن وجوده، والمعتدي يقيس الأمور بميزان الربح والخسارة بينما المقاوم يقيسها بميزان البقاء والفناء، والمعتدي لديه فرص اختيار بين بدائل بينما المقاوم ليس لديه إلا أن «يكون أو لا يكون». وكذلك فإن الظروف السيئة تعطي الإنسان القدرة على الاعتياد عليها و«التعامل» معها، والجوع يعطي الإنسان القدرة على تحمل الجوع، وحتى الموت يعطيه القدرة على الاعتياد على مواجهته. والظلم يولد في الإنسان روح التحدي والإصرار.

علينا أن نفهم دروس الأعوام الماضية ودرس غزة بصفة خاصة. لقد سيطرت إسرائيل على غزة والضفة الغربية لنهر الأردن. أي على الأجزاء التي كانت لا تزال باقية من فلسطين في أيدي العرب، سيطرت عليها في سنة ١٩٦٧، أي منذ ٤٣ سنة. وهي طوال هذه المدة لم تستطع أن تبتلع غزة ولا الضفة الغربية ولا أن تتركهما، وهي ترى في تركهما خطرًا عليها وفي ابتلاعهما خطرًا عليها أيضًا. وإسرائيل تقف ضد أن تقوم دولة فلسطينية واحدة تضم كل قاطني فلسطين الآن من عرب وإسرائيليين، وترفض أن تقوم دولتان أيضًا تفصل بين هذين الشعبين. قرأت قديمًا لقائل يقول: «إياك أن تظن السارق شجاعًا»؛ لأن السارق دائمًا ما يكون جبانًا يتلفت ويتوقع الهجوم عليه من أية ناحية، وهو حتى إن قتل فهو يقتل جبنًا وهربًا لا شجاعة ولا إقدامًا.

وحتى بالنسبة للفلسطينيين داخل حدود ١٩٤٨ في إسرائيل، لم تستطع إسرائيل أن تبتلعهم داخل حدودها وبين كثرتها العددية وتفوقها «الحضاري» والتنظيمي، وهم لا يبلغون نسبة الربع من سكان إسرائيل. والأصل أن الأغلبية العددية تحاول دائمًا أن تستوعب الأقلية بين سكانها، ولكن وقائع إسرائيل تكشف عن أن الأغلبية فيها تخشى من الأقلية العربية، بدليل ما يؤكدونه الآن من وجوب أن تصير إسرائيل «دولة يهودية» خالصة. وإن نتنياهو رئيس الوزراء هناك ـ وهو في قمة جبروته وجبروت دولته ـ يكشف عن قمة ضعفه بالإصرار على أنه يستهدف «تهويد» الدولة التي يزيد اليهود فيها على ثلاثة أرباع سكانها، ويعكس ذلك أن كل ثلاثة أقوياء من اليهود يخافون من الرابع الآخر الضعيف المعزول.

ويؤكد هذا المعنى أيضًا هذا الحائط العجيب الذي بناه المستبد الأكبر أرييل شارون ليفصل بين الضفة الغربية وبين أرض إسرائيل، ثم يعلن المستبد الأكبر الآخر نتنياهو الآن من عزم إسرائيل على إقامة جدار مماثل على الحدود بين مصر وإسرائيل وعلى طول نحو ١٤٠ كيلومترًا. وذلك لتكون إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم والتي تحاط بالأسوار والحوائط على طول حدودها البرية، وليعيد الإسرائيليون بذلك نظام «الجيتو» الذي كانوا ينعزلون فيه بمعيشتهم عن أبناء من يسكنون بينهم من أوطان ويحيطون فيه أنفسهم أو يفرض عليهم بين أسوار وأبواب عازلة، وهو ما كان يسمى في بعض بلادنا «حارة اليهود».

كما يصدق ذلك أيضًا على ما نلحظه دائمًا مما يتردد على ألسنة الإسرائيليين حكامًا، وكتابًا من أن القدس هي عاصمتهم «الموحدة والمؤبدة»، بما يوحي حرصهم على أن يقرروا أمرًا منكور الحقيقة والواقع، فلم نجد شعبًا في العالم أو دولة في التاريخ المنظور سمى عاصمته أو حرص دائمًا على وصفها بأنه موحدة وأنها دائمة، لأن المعترف به لا يحتاج لتأكيد، إنما المنكور هو ما يحتاج.

هذا البلد الإسرائيلي الذي قام على العنف والسلاح، دولة وشعبًا غازيًا، يقول أحد مؤرخيه حسبما يرد في هذا الكتاب: «ليس هناك حل عسكري للصراع بين إسرائيل وحماس».

وهذا البلد الذي حرص في اتفاقية السلام مع حكومة مصر على أن تبقى سيناء معزولة السلاح، وهي تقارب في حجمها حجم بلده كلها، بمعنى أنه بلد لا يطمئن على سلامته وأمنه إلا إذا كانت أرضًا مثيلة له ومساوية مجردة من السلاح، هذا البلد صار يأتيه السلاح

المقاوم له في عقر داره وداخل أرضه. وهذا البلد الذي كانت تقاليده العسكرية دائمًا أن ينقل المعارك الحربية مع مقاوميه وخصومه خارج أرضه صار يأتيه الخطر المسلح من داخل أرضه، وصارت الصواريخ المضادة أقرب إليه من حبل الوريد، بما يؤدي إلى اضطراب الحياة فيه بالنسبة لثلث مواطنيه، ومما يدفع أحيانًا بنحو مليون منهم إلى الذهاب إلى الملاجئ كما حدث في حرب ٢٠٠٦ مع لبنان.

* * *

لم تستطع إسرائيل أن تبتلع كل فلسطين بأهلها ولا أن تلفظهم، فلجأت إلى السلطة الفلسطينية وإلى الموالين لها من حكومات العرب، وعقد اجتماع في شرم الشيخ بمصر فى أوائل سنة ٢٠٠٥ أسفر عن اتفاق السلطة الفلسطينية مع الإسرائيليين على الكف عن استخدام العنف. ثم بدأت إسرائيل بغزة، وصرح شارون رئيس وزرائها في فبراير ٢٠٠٥ بأنه ينوي الانسحاب من منطقة فيلادلفيا، وهي الشريط الواقع بين قطاع غزة وسيناء المصرية، بشرط أن تتوقف عمليات تهريب السلاح ووسائل القتال، وأن تُسلَّم غزة للسلطة الفلسطينية وليس لما أسماه المنظمات الإرهابية ـ ويقصد بها منظمات المقاومة الشعبية، مثل حماس أو الجهاد أو الجبهة الشعبية ـ وبشرط أن يكون لمصر دور في الاتفاق الأمني.

ومع الانسحاب الإسرائيلي من غزة أبرم اتفاق مصري إسرائيلي عرف باسم اتفاق فيلادلفيا في أول سبتمبر ٢٠٠٥، ووقعه لواء مصري وجنرال إسرائيلي حتى لا يكون في قوة معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، وليظهر اتفاقًا عسكريًّا بحتًا ويبقى محكومًا باتفاقية السلام. ونص على أن تتولى قوة من الحرس المصري للحدود منع ما أسمي بالعمليات الإرهابية ومنع تهريب السلاح والذخيرة ومنع تسلل الأفراد عبر الحدود مع القبض على المشبوهين ومع اكتشاف الأنفاق عبر حدود مصر وغزة، وحدد أفراد الحرس ٧٥٠ فردًا على امتداد ١٤ كيلومترًا هي حدود غزة مع مصر، وحدد أعداد ما يحملون من بنادق ونحوها. كما وقعت ما سمي باتفاقية المعابر بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية في نوفمبر ٢٠٠٥ لتنظم أوضاع العبور وما يلتزم الجانب الفلسطيني بإبلاغه إلى إسرائيل ومع منع عبور الأسلحة وغير ذلك، مما يكشف عن أن الجانب المصري بشأن غزة وجانب السلطة الفلسطينية بشأن المعابر كافة قد صارا يعملان في إطار نظام أمني مقصود به حماية الأمن الإسرائيلي من المقاومة الشعبية والفلسطينية، وصارا موظفين لهذا الأمر.

وبهذا السياق في سرد الأحداث، يظهر الدافع الأساسي لإقامة الجدار الفولاذي عند الحدود المصرية مع غزة؛ لإحكام غلق معبر رفح وخنق المقاومة الفلسطينية لصالح الأمن الإسرائيلي. ويظهر ذلك بصورة أجلى عندما نعرف أن اتفاقًا جرى بين السلطة الفلسطينية وبين حكومة إسرائيل في ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٧ سمي «مؤتمر أنابوليس» تحت رعاية الرئيس الأمريكي وقتها جورج بوش، وتضمن الغرم المتبادل على وضع حد لإراقة الدماء بينهما مع التصدي «للإرهاب والتحريض» ومع وعد للتوصل لاتفاق قبل نهاية سنة ٢٠٠٨، ولكن تطور الأحداث في فلسطين وإفلات غزة من سيطرة السلطة الفلسطينية المتفقة مع إسرائيل على أمنهما معًا في مواجهة المقاومة الشعبية الفلسطينية، هذا الإفلات الذي جاء نتيجة انتخابات حرة كسبت أغلبيتها حماس وفشل الانقلاب عليها في غزة، هذا الإفلات تولد عنه لا اتفاق سلام بين إسرائيل وفلسطين ولكن قيام ما أسماه الكتاب الذي بين أيدينا بالحرب السابعة، وما نسميه الحرب الثانية عشرة.

مع فشل إسرائيل في تحقيق أهداف حربها على غزة في ٢٠٠٨ و٢٠٠٩. أرادت الولايات المتحدة الأمريكية أن تستر هذه الهزيمة بفعل سياسي، فعقدت وزيرتا الخارجية الأمريكية والإسرائيلية في ١٦ يناير ٢٠٠٩ الاتفاقية الواردة في هذا الكتاب، وهي لا تلتزم فيها الولايات المتحدة فقط بحماية أمن إسرائيل وفرضَ الحصار على غزة من البحر الأبيض المتوسط شمالًا إلى خليج عدن والبحر الأحمر وشرق أفريقيا جنوبًا، ولكنها تتعهد بالقيام بذلك «مع الدول المجاورة»، و«مع غيرها من أعضاء المجتمع الدولي» وبالتعاون «مع شركائها في المنطقة» و«مع شركائها الإقليميين». ومن الواضح أن المقصود بهذا التعهد الأمريكى عن «الدول المجاورة» الدول العربية ذات العلاقات الإستراتيجية مع الولايات المتحدة، وهي في ظني الاتفاقية الأولى من السوابق التاريخية التي تتعهد فيها دولة عن دول أخرى ليست طرفًا صريحًا في الاتفاق، ويرد هذا التعهد بالحسم والوضوح الدال على هذه الدول والمنبيء بالثقة في تنفيذ المطلوب. وهو من ناحية أخرى يكشف أنه لم يعد لإسرائيل ضمان تطمئن إليه إلا مساعدة هذه «الدول المجاورة» لها في إحكام الحصار على غزة. ومن ذلك ندرك المناخ الذي تتقرر فيه سياسات فتح معبر رفح من الجانب المصري وغلقه وإقامة الجدار الحذيدي إمعانًا في فرض الحصار.

باتفاق فيلادلفيا سنة ٢٠٠٥ انتقلت صراحة مصر في علاقتها بإسرائيل من موقف الوسيط بينها وبين الفلسطينيين إلى موقف الشريك لها في مواجهتهم، دون أن يسمح الاتفاق

لمصر حتى بزيادة عدد أفراد أمنها عند الحدود مع إسرائيل، وكانت هي أساسًا المعنية فيما أشارت إليه اتفاقية إسرائيل وأمريكا بالدول المجاورة؛ لأن ليس لغزة دولة مجاورة لها إلا مصر (عدا إسرائيل).

إن معبر رفح هو المعبر الوحيد إلى غزة من خارج الأراضي الفلسطينية التي تسيطر عليها إسرائيل، وهو يعمل بالتنسيق الاتفاقي السابق ذكره مع المعابر الأخرى التي تسيطر عليها إسرائيل. وقد بُرِّر هذا الصنيع من جانب الحكومة المصرية بأن إحكام غلق معبر رفح وبناء الجدار الحديدي تحته إنما قصد به منع خطر وفود أهالي غزة إلى سيناء بأعداد هائلة تهدد مصرية سيناء. وهذا القول يتناقض مع الفعل الفلسطيني وإستراتيجية المقاومة الفلسطينية، وغزة متاخمة لحدود سيناء منذ الأبد وكانت تحت الإدارة المصرية زهاء عشرين سنة قبل ١٩٦٧، ولم يحدث قط قبل هذا التاريخ ولا بعده النزوح المدعى، كما أن سياسة المقاومة الفلسطينية تتركز في الحفاظ على أرض فلسطين بيد الفلسطينيين ومقاومة «الترانسفير» أي التهجير القصري لهم، سواء من أرض ١٩٤٨ أو من الضفة الغربية أو من غزة، كما أن الهدف الثابت للوطنية العربية الفلسطينية هو عودة اللاجئين من الفلسطينيين الموجودين خارج فلسطين إلى أرضهم وديارهم ومواطنهم بها. ومن ثم، فإن المنطقي والمعقول أن تتفق السياستان الوطنيتان المصرية والفلسطينية في هذا الشأن لا أن تتعارضا. ومن جهة أخرى، فإن الحصار على غزة من شأنه أن يجعلها طاردة لأهلها، وفتح المعبر لسد الحاجات الضرورية لأهل غزة هو ما يثبتهم على أرضهم ويعينهم على ما هم فيه من مشاق الاحتلال الإسرائيلي.

وحسب تصريحات لمسئولين مصريين، فإن مصر تصوغ موقفها الدولي باعتبار أن قطاع غزة لا يزال محتلًا من إسرائيل. وبموجب هذا التصور وبمقتضاه أن يكون استخدام أهالي هذا القطاع لكافة وسائل المقاومة للاحتلال يكون استخدامًا مشروعًا وهو من قبيل الحق في الدفاع الشرعي، وتكون السيادة باقية لأبناء الأرض المحتلة لأن الاحتلال الأجنبي لا ينقل السيادة، ومن ثم يكون اتفاق فيلادلفيا اتفاقًا متعارضًا مع حقوق الدفاع الشرعي وحق الأهالي في مقاومة الاحتلال، ويكون اتفاقًا باطلًا لأنه جرى مع إسرائيل عن غزة وإسرائيل ليست بذات صفة «ولا حَقَّ لدفاع شرعي ضد الدفاع الشرعي».

إن غزة محاصرة، وفعل الحصار تتشارك فيه مصر وإسرائيل، والحصار عمل من أعمال الحرب. ومن ثم، فإن حرب غزة التي جرت عملياتها العسكرية في شهري ديسمبر ٢٠٠٨ ويناير ٢٠٠٩ لا تزال مستمرة. ولأول مرة في التاريخ الذي نعرفه تتحالف الدولة المصرية

مع عدوها الحقيقي الإسرائيلي وتتشارك معه في خنق حليفها وصديقها العربي الفلسطيني ومن يتعين عليها أن تقويه وتقوى به.

إن المتابع للتاريخ المصري الحديث والمعيش، يلحظ أن فاروق ملك مصر السابق، ومصطفى النحاس خصمه وقائد الحركة الوطنية والديمقراطية في عهده، وعبد الناصر رئيس مصر وقائد ثورتها والذي قاد حركة مصر الوطنية من بعدهما، هؤلاء الثلاثة لم تتفق سياساتهم قط في أي أمر إلا في مسألة واحدة، هي إدراك من هو عدو مصر الإستراتيجى ومن هو من يهدد أمن مصر القومي. وهو دولة إسرائيل ومن يساندها. ودولة مصر لم تخطئ قط في تبين من أين يأتيها الخطر على أمن بلادها.

ويبقى السؤال عالقًا، أين إرث الدولة المصرية؟

والحمد لله

طارق البشري

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وكفى وسلامًا على عباده الذين اصطفى، وبعد

ها هو عام يمر على حرب غزة التي انتهت عسكريًّا في ١٨ يناير ٢٠٠٩ بإعلان إسرائيل إيقاف إطلاق النار، ولكن نيرانها على المستوى السياسي والإعلامي والحقوقي داخل إسرائيل وخارجها لم تقف بعد.

هذه الحرب ـ المعروفة بحرب «الرصاص المصهور» إسرائيليًّا، أو «حرب الفرقان» فلسطينيًّا، أو «الحرب السابعة في سجل الحروب مع العدو» عربيًّا ـ تمثل نقطة مهمة في تاريخ الصراع مع العدو الصهيوني، وتمثل أيضًا نقطة مهمة في نزع شرعية الوجود عن هذا الكيان العنصري المجرم.

لقد كان يوم ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨ هو اليوم الأكثر دموية في تاريخ الاحتلال[1]؛ إذ سلطت فيه إسرائيل على قطاع غزة أحدث ما تملكه من أسلحة في حرب منفلتة من كل عقال قانوني أو أخلاقي، أو على حد تعبير ميرون بنبنستي «رب البيت جُن»[2]، وفي مخالفة صريحة وصارخة لكافة المواثيق والقوانين الدولية.

ولقد تميزت هذه الحرب بأنها «العملية الأكثر تخطيطًا في تاريخ حروب إسرائيل»[3]. وهي أيضًا حسب وصف أحد مخططيها «الحملة الأضخم في تاريخ الجيش الإسرائيلي»[4].

---

(١) بيان المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان، في اليوم الأكثر دموية في تاريخ الاحتلال: مئات القتلى والجرحى في صفوف المدنيين الفلسطينيين في العملية الإسرائيلية في قطاع غزة [باللغة الإنجليزية]، موقع مكتب تنسيق الشئون الإنسانية في الأراضي الفلسطينية التابع للأمم المتحدة، ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٢) ميرون بنبنستي، ويل للمنتصرين، هاآرتس، ٢٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٣) ألوف بن، مصداقية جولدستون، هاآرتس، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٤) ناحوم برنياع، أولمرت حققنا ما أردنا، يديعوت، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.

ولكنهم يمكرون ويخططون، ويحشدون ويجمعون، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، كانت نتيجة هذه الحرب هو ما عنون به أنتوني كوردسمان المفكر العسكري وخبير الدراسات الإستراتيجية بمركز الدراسات الإستراتيجية والدولية في واشنطن مقاله عن حرب غزة «انتصارات تكتيكية وهزيمة إستراتيجية»(١).

حرب أدارتها إسرائيل بقيادة سياسية فاشلة، منقسمة على ذاتها، جُل همها تحقيق مصالحها الانتخابية. إدارة شبهها كوردسمان تشبيهًا بليغًا بقوله: «أسود تقودها حمير»(٢). وجيش مدرع من رأسه إلى أخمص قدميه، ولكنه كما يقول المعلق العسكري الإسرائيلي بن كاسبيت: «دخل الجيش الإسرائيلي غزة كمن يتخبطه الشيطان من المس. يمشي على البيض»(٣).

حرب فاشلة كما توقع معلقون وسياسيون إسرائيليون منذ بدايتها مثل الكاتب الإسرائيلي تسفي برئيل في مقاله «أوهام النصر»(٤)، وإبراهام بورج رئيس الكنيست الأسبق في مقاله «انتصارات ؟! لا يوجد شيء كهذا»(٥).

وفي هذه الدراسة نتناول حرب غزة وآثارها من خلال ما نشرته الصحافة الإسرائيلية من مقالات للخبراء والمحللين والقادة السياسيين والعسكريين، ومن خلال أيضًا وسائل الإعلام العالمية، وتقارير الهيئات والأفراد الدوليين، وانتهاءً بتقرير جولدستون وما أحدثه من ردود فعل قوية داخل إسرائيل وخارجها.

وهي مقسمة إلى تسعة أبواب رئيسة، توخيت قدر الطاقة أن تكون أسماء الأبواب والفصول وعناوينها الفرعية في الغالب الأعم مستمدة من أقوال العدو نفسه.

الباب الأول: حرب غزة: أسماء ودلالات: لم تحظَ حرب من الحروب العربية الإسرائيلية بهذا الكم الكبير من الأسماء والأوصاف التي أطلقها عليها الكتاب والمحللون والعسكريون الإسرائيليون أنفسهم؛ مما يدل على أهمية هذه الحرب. وهي أسماء تبين أهداف إسرائيل من حربها على غزة، والطبيعة الإجرامية لهذه الحرب، والأطراف الفاعلة فيها، وسيناريوهاتها، وصلتها بمستقبل طرفي الصراع.

---

(١) أنتوني كوردسمان، انتصارات تكتيكية وهزيمة إستراتيجية، موقع مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، ٩/ ١/ ٢٠٠٩، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، العدد ٣٦٠، ص ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٠

(٣) بن كاسبيت، وجهات نظر الساسة الإسرائيليين الكبار بالنظر إلى الحرب، معاريف، ٩/ ١/ ٢٠٠٩.

(٤) تسفي برئيل، أوهام النصر، هاآرتس، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٥) إبراهام بورج، انتصارات ؟! لا يوجد شيء كهذا، هاآرتس، ٥/ ١/ ٢٠٠٩.

الباب الثاني: المقاومة هي السبيل[1]: حسب اعتراف الإسرائيليين أنفسهم، وذلك لمواجهة ما يلاقيه هذا الشعب العظيم الصامد الصابر من عنت وظلم. فإسرائيل حولت غزة إلى سجن كبير محروم من أدنى حقوقه الإنسانية، وسط صمت دولي ودعم أمريكي وغربي لهذا الحصار. كما أن خيار السلام الذي جعله العرب وفريق أوسلو خيارهم الإستراتيجي هو خيار زائف، لم يجنِ منه الشعب الفلسطيني إلا المر والعلقم، وسلطة كل همها مصالحها الشخصية وحفَظ مصالح الاحتلال وأمنه حتى إنها شاركت ـ باعتراف الإسرائيليين أنفسهم ـ في حرب غزة التي كان من بين أهدافها: إعادة سلطة أوسلو إلى غزة. ويرد هذا الباب بتقارير دولية وشهادات إسرائيلية على من يزعم أن المقاومة هي سبب معاناة الشعب الفلسطيني. كما يعرض الباب لعظمة هذا الشعب الذي يتحدى الاحتلال، مفعماً بالأمل والحياة، هازئًا من سياط جلاديه والمتآمرين عليه.

الباب الثالث: شهود على الجريمة: يتناول هذا الباب المدونة الأخلاقية للجيش الإسرائيلي التي تفسر لنا كمّ الجرائم التي ارتكبتها وترتكبها إسرائيل في صراعها مع العرب. ويعرض الباب جرائم إسرائيل في حرب غزة من خلال كتابات الصحافة الإسرائيلية وتقارير الهيئات الدولية وشهادتي الطبيبين النرويجيين مادس جليبرت وإريك فوس. ويتناول الباب أيضًا الدور الأمريكي المشارك في جريمة حرب غزة.

وسنفرد في هذا الباب فصلًا خاصًّا عن تقرير بعثة جولدستون لأهميته البالغة؛ حيث إنه «أحد لوائح الاتهام الأشد خطورة ضد القيادة السياسية والعسكرية في إسرائيل»[2]، ولأنه «التقرير الهام والأكثر أهمية وخطورة من التقارير الأخرى»[3]. فهو لائحة اتهام شاملة ضد جرائم إسرائيل في غزة، وفي كافة الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، وضد عرب ٤٨.

الباب الرابع: الحملة الأكبر في تاريخ الجيش الإسرائيلي: هذه الحرب كانت أكبر حملة في تاريخ الجيش الإسرائيلي، وأكثرها تخطيطًا؛ إذ شارك فيها كافة أذرع الجيش الإسرائيلي

---

(١) عنوان مقال للسياسي الإسرائيلي يوسي ساريد، لو كنت فلسطينيًّا أو المقاومة هي السبيل، هاآرتس ٢/ ١/ ٢٠٠٩، يتحدث فيه عن كَوْن المقاومة هي الرد الطبيعي لأي شعب، أو على حد تعبير إيهود باراك نفسه عندما كان مرشحًا لرئاسة الوزراء، ماذا كنت ستفعل لو وُلدت فلسطينيًّا، فأجابه باراك بصدق: «كنت سأنضم إلى منظمة إرهابية».

(٢) أسرة التحرير، جولدستون واتهام إسرائيل بجرائم ضد الإنسانية، هاآرتس، ١٧/ ٩/ ٢٠٠٩.

(٣) جدعون ليفي، عار لاهاي، هاآرتس، ١٧/ ٩/ ٢٠٠٩.

وقواتُ النخبة فيه، وشُكلت فيها ولأول مرة في تاريخ حروب إسرائيل غرفة عمليات مشتركة بين الجيش والموساد والشاباك. كما شاركت فيها ولأول مرة أيضًا قيادة الجبهة الداخلية. ونالت إجماعًا سياسيًا وشعبيًا في الداخل الإسرائيلي. واختارت لها إسرائيل توقيتًا مناسبًا، تكون طليقة اليد فيه من أي تدخل دولي. كما وضعت خطة لخداع حماس شارك فيها كبار قادتها، وشارك فيها أيضًا قوات الجيش الإسرائيلي.

الباب الخامس: الإدارة الإسرائيلية للحرب: أدارت إسرائيل حرب غزة بقيادة سياسية منقسمة على ذاتها، تحركها أهواؤها ومطامعها الانتخابية، قيادة جعلت من الدم الفلسطيني ثمنًا لهذه المطامع والأهواء.

ولقد وقعت إسرائيل في مجموعة من الأخطاء التي أدت إلى هزيمتها. فهي قد دخلت الحرب بغير هدف إستراتيجي، وبغير خطة للنصر، وبتقدير زائد لقوة حماس، وخوف مبالغ فيه من وقوع قتلى أو أسرى صهاينة، واستخدام مفرط للقوة، وتوق يائس لصورة النصر، وبعدم فهم لطبيعة الشعب الفلسطيني، وعدم الاستفادة من دروس التاريخ ودروس الحروب السابقة.

الباب السادس: الإدارة الفلسطينية للحرب: تتناول فصول هذا الباب كيف استطاع الشعب الفلسطيني وقيادته المقاومة مواجهة الاختلال في موازين القوى مع العدو. وكيف أمكنهم تحويل الضعف الفلسطيني إلى قوة، وقوة الإسرائيليين إلى ضعف. وكيف استطاع كذلك التكيف مع المتغيرات دون تفريط في الثوابت أو تنازل عن الحقوق أو رضوخ لإرادة العدو وإملاءات القوى الدولية. وكيف استطاع أيضًا تعظيم الاستفادة من جوانب القوة لديه ـ مثل الاكتظاظ البشري، والعامل الجغرافي، والطبيعة العمرانية للقطاع، والسلاح القليل ـ في تحقيق معادلة الرعب مع العدو وإفشال مخططات الإذلال والتركيع. ويرد الباب على بعض الادعاءات عن اختفاء المقاومة أمام العدو، واستخدامها للمدنيين كدروع بشرية، أو أنها السبب في كثرة الخسائر البشرية لدى أبناء القطاع الصامد.

الباب السابع: من المنتصر؟ يجيب هذا الباب عن سؤال مهم: من المنتصر في هذه الحرب ؟ وذلك عبر استعراض معايير النصر أو الهزيمة إسرائيليًا وفلسطينيًا. وكذلك، عبر الحديث عن نتائج هذه الحرب التي أدت إلى تهاوي الردع الإسرائيلي، وتراجع مكانة إسرائيل الدولية، والتي أدت أيضًا إلى تعزيز مكانة حماس فلسطينيًا وإقليميًا ودوليًا.

الباب الثامن: حرب غزة ومستقبل الصراع: يتناول هذا الباب تأثير هذه الحرب على مستقبل أطراف الصراع وعلى الوجود الإسرائيلي ذاته، «فالنزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني غير قابل للحسم بالقوة. وإسرائيل لن تنجح في قمع تطلع الشعب الفلسطيني إلى الاستقلال»(١).

والصواريخ الفلسطينية ـ التي يحلو للبعض أن يسميها بالصواريخ العبثية ـ تشكل تهديدًا خطيرًا لأمن إسرائيل وبقائها. وهي ـ مع صواريخ المقاومة في لبنان ـ تمثل لإسرائيل «الكابوس الأمني الأشد منذ ١٩٤٨»(٢). وقدرة هذه الصواريخ «على تشويش الحياة في وسط البلاد من المناطق المجاورة ـ مثلما يجري الآن في الجنوب ـ تكفي لتهديد اقتصاد الدولة ومجرد بقائها على قيد الحياة لزمن طويل»(٣).

ولقد تحولت إسرائيل هذه بحربها على غزة إلى «دولة مارقة وحيوان دنس»(٤)، «أياديها قد كُبلت»(٥)، و«العالم قد ملَّها»(٦)، و«صبره عليها آخذ في التضاؤل»(٧)، وهي «بعيون مفتوحة تسير نحو التحطم والسقوط»(٨).

الباب التاسع: وبقيت كلمة أخيرة: يبين هذا الباب أن الحرب ما زالت مستمرة على غزة إنسانيًّا عبر الحصار الجائر المشدد المستمر المفروض على القطاع، والذي يمنع إعادة الإعمار، ويخنق الحياة الطبيعية في القطاع الصامد. ويذكر الباب وسائل الإنصاف ومساءلة الكيان الصهيوني على جرائمه. كما يتناول هذا الباب أهم الظواهر والدروس التي ينبغي على المقاومة والأمة تعظيمها والاستفادة منها.

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة إلا أن أوجه شكرًا خاصًّا إلى القائمين على المواقع التي استقيت منها مادة هذا الكتاب، وهي: الأسرى للأبحاث والدراسات الإسرائيلية، وكالة سما الإخبارية، صحيفة الحياة الجديدة الفلسطينية، موقع صحيفة فلسطين، جريدة

---

(١) عوزي بنزيمان، الفيل والمشكلة الإسرائيلية، معاريف، ٨/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) آفي شنيئور، التهديد الأكبر: صواريخ في سماء إسرائيل، يديعوت، ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٩.

(٣) يوفال شتاينتس، التجريد المفقود، هاآرتس، ١٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٤) إسرائيل هرئيل، لا تشكلوا لجنة تحقيق في عملية الرصاص المصهور، هاآرتس، ١/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٥) ألوف بن، مصداقية جولدستون، هاآرتس، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٦) إيتان هابر، نهاية اللعبة، يديعوت، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٧) دوف فايسغلاس، تقرير جولدستون: هذه مجرد الأعراض، يديعوت، ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٨) شلومو جازيت، إسرائيل بعيون مفتوحة تسير نحو التحطم والسقوط، معاريف، ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٩.

القدس العربي، جريدة العرب اليوم، الوطن الكويتية، الوطن القطرية، موقع الصحفي الفلسطيني صالح النعامي، مركز الزيتونة للدراسات، إسلام ديلي، البشير، مركز الشرق العربي للدراسات الإستراتيجية، مركز دراسات الوحدة العربية، المشهد الإسرائيلي، البديل العراقي، جامعة الدول العربية، سويس إنفو، هيومان رايتس ووتش، العفو الدولية، الصليب الأحمر، وكالة الأونروا، مكتب تنسيق الشئون الإنسانية للأراضي الفلسطينية المحتلة (أوشا)، مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة.

كما لا يسعني إلا أن أوجه أيضًا شكرًا خاصًا لثلاثة أقلام إسرائيلية حرة رفضت الممارسات القمعية للاحتلال، وتضامنت مع الشعب الفلسطيني، وهم: الكاتبة عميره هاس، والصحفي المختص بحقوق الإنسان جدعون ليفي، والمفكر الإسرائيلي آفي شليم.

والله أسأل أن يتقبل هذا العمل مني، وأن يجعله لوجهه خالصًا، وأن ينفع به. وهذا هو جهد المُقل. وهو شهادة إسرائيلية بعظمة المقاومة وعظمة الشعب الذي أخرج هذه المقاومة. وهو رد أيضًا على دعاة الاستسلام والرضوخ للاحتلال.

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

الباب الأول

حرب غزة
أسماء ودلالات

الفصل الأول

بين يدي الباب

لم تحظَ حرب من الحروب العربية الإسرائيلية بهذا القدر الكبير من الأسماء والأوصاف ـ التي أطلقها عليها الساسة والعسكريون الإسرائيليون وبعض الغربيين ـ مثلما حظيت حرب غزة.

كثرة أسماء هذه الحرب تدل دلالة واضحة على عمق تأثيرها على الكيان الصهيوني. فلقد طالت العمق الإسرائيلي، ومراكزه الحيوية، ومدنه التي كانت بمأمن من قبل من صواريخ المقاومة، أو كانت بمأمن منها أثناء الحروب العربية الإسرائيلية السابقة.

وتدل كثرة الأسماء أيضًا على مدى المأزق الوجودي الذي تحياه إسرائيل اليوم. مأزق عبر عنه عوفر شيلح بعبارة بليغة عندما وصف إسرائيل بأنها: «دولة تعيش على مخاوفها»[1]، حتى لو كان السلاح الفلسطيني الرئيسي المستخدم ضدها صواريخ بدائية، قدرتها التدميرية محدودة للغاية، ولكن تأثيرها النفسي والمعنوي كبير جدًّا.

كما تدل كثرة الأسماء على عظم المقاومة في غزة. فعلى الرغم من محدودية مساحتها، ومحدودية قدراتها المادية، وتواضع إمكانياتها العسكرية، إلا أنها ـ بما تحمله من مخزون معنوي للمقاومة والصمود، وبما تمثله من معين لا ينضب من التضحية والشهادة، وبما

---

(1) عوفر شيلح، حرب كما تتطلب، معاريف، ١٦/ ١/ ٢٠٠٩.

تبتكره من أشكال للمقاومة ومقارعة الاحتلال ـ تمثل خطرًا داهمًا على مستقبل ووجود دولة إسرائيل. وفي هذا درس بليغ لهذه الأمة، ودرس بليغ أيضًا للمتآمرين والمتواطئين الذين قالوا لإسرائيل قبل الحرب: «جزوا لهم رءوسهم، قاصدين بذلك قيادة حماس في غزة»[1].

وفي كثرة الأسماء أيضًا درس بليغ للاهثين وراء سراب السلام، وللذين ترهبهم قدرات العدو، وترتعد فرائصهم خوفًا من أمريكا وإسرائيل. فلا حل لقضية الصراع في فلسطين أو في غيرها من الأرض إلا بالمقاومة والتوظيف الجيد لكل عناصر القوة لدى الأمة، مهما كانت قوة الخصم، ومهما كانت قوة الأطراف الدولية التي تدعمه.

وتدل كثرة الأسماء أيضًا على ضعف الكيان الصهيوني، وعلى هشاشة بنائه، وضعف معنوياته حتى إن المقاومة بسلاحها القليل استطاعت أن تهز أركان هذا العدو، وأن تحقق معادلة الردع.

ويمكن من خلال قراءة هذه الأسماء أن نبني تصورًا كاملًا لهذه الحرب من ألفها إلى يائها. فهي:

- الرصاص المصهور، أو المصبوب، أو المتدفق، أو المسكوب.
- حرب أمن الجنوب.
- حرب إسرائيل ـ حماس.
- حرب ضد منظمات إرهابية.
- حروب اليسار: حمامة مفترسة.
- رصاص مصهور.
- رصاص متآكل.
- رصاص مشروخ.
- حملة عابثة.

---

(١) بن كاسبيت، الدول العربية: جزوا لحماس رءوسهم، معاريف، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٨.

- فرصة ضائعة.
- حرب غزة الأولى.
- حرب الاستقلال لحماس.
- حرب الصواريخ الثالثة.
- حرب اللاإنبعاث.

أما فلسطينيًا، فقد سُميت هذه الحرب بـ «حرب الفرقان» تيمنًا بغزوة بدر الكبرى. كما سُميت بـ «الحرب العربية الإسرائيلية السابعة»؛ لأنه قد سبقها ست حروب هي: حرب ١٩٤٨، وحرب ١٩٥٦، وحرب ١٩٦٧، وحرب العاشر من رمضان ١٩٧٣، والغزو الإسرائيلي للبنان ١٩٨٢، وحرب يوليو (تموز) على لبنان ٢٠٠٦.

ولقد أطلقت حماس على تكتيكها العسكري في حرب غزة اسم «بقعة الزيت» تهديدًا لإسرائيل باستهداف المزيد من البلدات والمدن الإسرائيلية ومراكزها الحيوية وأماكنها الحساسة بالصواريخ الفلسطينية، وتهديدًا للعدو أيضًا بمفاجآت فلسطينية تنتظره مع استمرار القتال وتطوره.

* * *

الفصل الثاني

أهداف الحرب وطبيعتها العدوانية

كانت إسرائيل تهدف من خلال حرب غزة إلى كيّ الوعي الفلسطيني، وردعه عن الاستمرار في المقاومة، ومنعه من استهداف مدن جنوب إسرائيل بالصواريخ، ومن هنا جاءت تسمية الرصاص المصهور، وحرب أمن الجنوب:

حرب الرصاص المصهور

الرصاص المصهور أو المصبوب أو المسكوب أو المتدفق هو الاسم الرسمي لهذه الحرب. اسم يكشف عن طبيعتها العدوانية، وانفلاتها من كل عقال قانوني أو أخلاقي، يقول شلومو أفنيري: «عندما تتحدث وسائل الإعلام العالمية عن حملة رصاص مصهور، فإن هذا يرتبط بطبيعة الحال بنزعة القوة، وبالوحشية، وبالعدوان، وبالقتل. وقبل أن تُطلق الرصاصة الأولى، وقبل أن ينطلق الخطاب الإعلامي الإسرائيلي الأول، تقررت صورة الحملة بمفاهيم القوة»[1].

هذا الاسم هو للتغطية أيضًا على حالة العجز والضعف الإسرائيلي، يقول عوفر شيلح: «اليوم، أسماء العمليات يختارها ضباط لبيان أننا ما نزال شجعانًا وأقوياء، برغم ما نعتقده في أنفسنا. منذ أكثر من ثلاثة عقود تحارب إسرائيل ذكرياتها ومخاوفها أكثر مما تحارب أعداءها الذين أخذوا يضعفون»[2].

---

(١) شلومو أفنيري، ماذا فكر حاسوب الجيش الإسرائيلي؟، هاآرتس، ١٨/ ٣/ ٢٠٠٩.

(٢) عوفر شيلح، حرب كما تتطلب، معاريف، ١٦/ ١/ ٢٠٠٩.

و«عندما عرض أولمرت على المجلس الوزاري الأمني عملية الرصاص المصهور للنقاش والتصديق، خطب خطبة لا نظير لها، خطبة فينوجرادية[1]. يبدو أنه إلى اليوم لم يُشفع رئيس حكومة في تاريخ إسرائيل خروجه إلى عملية عسكرية بأقوال كئيبة ومتشائمة إلى هذا الحد. قال:

- سيكون سقوط الصواريخ في الجبهة الداخلية أكثر مما كان في حرب لبنان الثانية.
- سيكون الكثير جدًّا من الجنود من بين القتلى والجرحى.
- لا يمكننا أن نقول إن العملية ستنتهي في أيام.
- لا يمكن أن نضمن ألا يضربنا النظام الدولي.
- قد تجُرنا العملية إلى بقاء طويل في غزة.
- وسيُضطر مواطنون كُثر إلى أن يمكثوا وقتًا طويلًا في الملاجئ.
- سيكون إضرار لا يستهان به بالسكان في إسرائيل.
- ستقترب الصواريخ من مناطق تجمع السكان.
- ويتضرر الجهاز الاقتصادي.
- وستزيد نفقة الأمن»[2].

حرب أمن الجنوب

اعترض بعض الإسرائيليين على اسم الرصاص المصهور، يقول عاموس جلبوع: «اسم الرصاص المصهور عديم الجوهر والصورة، هو ليس مفهومًا. في حديث أجريته مع د. رءوفين إيرليخ المسئول عن مركز المعلومات والإرهاب في مركز التراث الاستخباري، طرح ثلاثة اقتراحات لأسماء أكثر مناسبة للحملة»[3].

---

(١) نسبة إلى لجنة فينوجراد التي تشكلت عقب حرب لبنان الثانية للبحث في أسباب هزيمة إسرائيل وإخفاقها في حرب ٢٠٠٦.

(٢) ناحوم برنياع وشمعون شيفر، عدنا إليك ثانية، يديعوت، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٣) عاموس جلبوع، مطلوب اسم للحرب، معاريف، ٦/ ١/ ٢٠٠٩.

كان من بين هذه الأسماء «حرب أمن الجنوب». وعلل رءوفين إيرليخ ذلك بقوله: «هذا الاسم يمنح التعبير الأفضل للهدف العلني الذي وضعته دولة إسرائيل للحرب: تحسين الوضع الأمني من أساسه. إذا نجحنا في الحرب الحالية في أن نجلب فترة هدوء طويلة مثلما في الشمال، وأن نوجه ضربة قاسية للقدرة العسكرية لحماس، وأن نجعل إمكانية إعادة بناء قدراتها العسكرية في المستقبل صعبة بشكل أقصى، وتعظيم الردع الإسرائيلي في المنطقة ـ فهذا يكفينا»[1].

* * *

(١) المصدر السابق.

الفصل الثالث

الأطراف الفاعلة في الحرب

قاد الحرب ممثلو يسار الوسط الإسرائيلي، مجرمو الحرب، أدعياء السلام الكذبة: أولمرت، وباراك، وليفني. وتصدى لهم الشعب الفلسطيني بقيادة حركة المقاومة الإسلامية حماس. ومن هنا سُميت الحرب بما يلي:

حرب إسرائيل ـ حماس

صاحب هذه التسمية هو المفكر الأمريكي أنتوني كوردسمان؛ إذ يقول: «مضى حتى الآن أسبوعان على حرب إسرائيل ـ حماس، التي ـ بالكاد ـ لا يمكن تسميتها بغير ذلك»[1]. فهذه هي المرة الأولى في تاريخ الحروب العربية الإسرائيلية التي يكون طرفها العربي هو حركة مقاومة تقف وحيدة محصورة في قطعة صغيرة من الأرض، يقول روبرت فيسك: «كان يتحتم على العرب تحمل مشاهدة زعمائهم وهم يتزينون أمام عدسات الكاميرات في قمة الكويت، حيث كان الزعماء والرؤساء يضحكون ويصافحون بعضهم البعض، ويحاولون التظاهر بأنهم أكثر توحدًا خلف الشعب الفلسطيني الذي ـ وبدون شك ـ تعرض لخذلان وخيانة قوية. حتى محمود عباس كان هناك، وهو الرئيس الفلسطيني الضعيف والعاجز.

---

(١) أنتوني كوردسمان، الحرب على غزة: انتصارات تكتيكية وهزيمة إستراتيجية، نشر بموقع مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، ٩/ ١/ ٢٠٠٩، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، فبراير (شباط)، ٢٠٠٩، العدد ٣٦٠، ص ٢١٨.

من الممكن التماس العذر لهذه الكائنات السامية. ما الذي بإمكانهم فعله يا تُرى ؟ لقد أعلن الملك السعودي عن التبرع بمبلغ ٧٥٠ ألف جنيه إسترليني لإعادة بناء غزة، و لكن كم عدد المرات التي قام بها العرب والأوروبيون برمي النقود على غزة من أجل رؤيتها ممزقة إلى أشلاء بواسطة القذائف ؟!»[1].

«حرب إسرائيل ـ حماس» تسمية تبين أيضًا مدى اختلال موازين القوى بين طرفي الصراع، ومع ذلك تفشل إسرائيل في حسم المعركة وتحقيق أهدافها منها، أو كما يقول أنتوني كوردسمان: «انتصارات تكتيكية وهزيمة إستراتيجية»[2]. انتصرت إسرائيل تكتيكيًا بتدميرها بعض الأنفاق والمنشآت ومنازل القادة ومنصات إطلاق الصواريخ، ولكنها هُزمت إستراتيجيًا لفشلها في تحقيق أهداف الحرب.

حرب ضد منظمات إرهابية

هكذا توصف حرب غزة في الخطاب العام الإسرائيلي، يقول يورام شفايتسر خبير شئون الإرهاب والباحث في معهد دراسات الأمن القومي في جامعة تل أبيب: «خاضت إسرائيل خلال العامين ونصف العام الأخيرين معركتين عسكريتين ضد حزب الله في لبنان وحماس في غزة. وجرى توصيف هاتين المعركتين (الحربين) في الخطاب العام في إسرائيل وخارجها كحرب ضد منظمات إرهابية.

إن استخدام هذا الاصطلاح لا يُعتبر فقط غير دقيق ومضللًا، بل ويضفي أيضًا غموضًا على طابع الخصم والمواجهة، ويُقزِّم أبعادهما المركبة، ويخلق توقعات غير واقعية لدى الجمهور الإسرائيلي بشأن إمكانية حسم المواجهة بانتصار واضح لا يقبل التأويل.

قاتلت وحدات حماس العسكرية ضد القوات الإسرائيلية بكل ما أُوتيت من قوة. وحاولت العمل بالطريقة التقليدية لحرب العصابات، حيث شنت هجمات على نمط «اضرب واهرب»، واستخدمت نيران القنص ضد الجنود الإسرائيليين، وقصفت تجمعاتهم بواسطة قذائف الهاون، وقامت بمحاولة لاختطاف جنود في أثناء القتال إدراكًا منها للضرر

(١) روبرت فيسك، جلوس وضحك بينما الضحايا يتعفنون، الإندبندنت، ٢٠/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) أنتوني كوردسمان، مصدر سابق.

المعنوي والعملي الذي سيلحق بإسرائيل نتيجة لهذه المحاولات. كذلك كان المنطق الذي وجه إطلاق الصواريخ على المدن الإسرائيلية هو محاولة إيقاع أقصى ما يمكن من خسائر بشرية ومادية في المدن الإسرائيلية، وتشويش روتين الحياة اليومية للإسرائيليين، والمس بمعنوياتهم»[1].

حروب اليسار: حمامة مفترسة

يكشف هذا الوصف عن الطبيعة العدوانية لهذه الحرب، ليس على الفلسطينيين وحدهم، بل أيضًا على الجنود الإسرائيليين الذين يُحتمل وقوعهم في الأسر. كما يكشف عن زيف تصنيف القوى السياسية الإسرائيلية إلى صقور وحمائم، فكلهم في واقع الأمر مجرمو حرب، يقول إلياكيم هعتسني: «هل سألت وزيرة الخارجية كيف حلت بمعسكر السلام حربان بفارق سنتين، مع تنديد دولي، وفيهما كل ما درج اليسار على أن يعزوه لليمين: القوة المتطرفة، ونزعة القوة، والسحق العسكري ؟ وما الذي دفع رئيس الوزراء الذي تعب من ضرب أعدائنا أن يوجه إلى غزة «ردًا غير متوازن»، على حد وصفه، وأن يَعِدْ بالمزيد ؟

في هذه الصحيفة ٣٠/ ١/ ٢٠٠٩ اعترف طيار بأنه وصل إلى شفا رفض تنفيذ ما كُلف به بسبب المشاهد القاسية التي كنا مسئولين عنها، وبسبب استخدام مبالغ فيه للقوة.

الضعف الليبرالي هو الذي يجبرنا اليوم على أن نكون متوحشين، وأن نفضل موت الجندي المخطوف التالي.

الوعد الاعتيادي لليسار بأن من يهاجمنا بعد الانسحاب سيُضرب دون رحمة، نُفذ بكامله في غزة؛ ولكن نتائجه بشعة: هزيمة أخلاقية ودبلوماسية، وصفر إنجازات.

إن من ينقصه هامش أمني وظهره إلى الحائط محكوم أن يعيش إلى الأبد على حرابه. وعليه، فليس صدفة أن الحربين الأخيرتين، اللتين أُتهمت إسرائيل فيهما بالوحشية، قامت بإدارتها وشنِّها حكومة يسارية. أيها الإنسانيون، ابحثوا لكم عن بيت أيديولوجي آخر»[2].

---

(١) يورام شفايتسر، إسرائيل ومحدودية القدرة على مواجهة نمط جديد من حرب العصابات، المشهد الإسرائيلي، ٢٤/ ٥/ ٢٠٠٩.

(٢) إلياكيم هعتسني، حروب اليسار حمامة مفترسة، يديعوت، ٩/ ٢/ ٢٠٠٩.

الفصل الرابع

نتائج الحرب وسيناريوهات المستقبل

لم تحقق إسرائيل أيًا من الأهداف التي كانت تخطط لها في حرب غزة. فصواريخ المقاومة ظلت تتساقط على المدن والبلدات الإسرائيلية بعد انتهاء الحرب، والردع الإسرائيلي ما زال بعيدًا، وإسرائيل عرضة للملاحقة الدولية لارتكابها جرائم حرب، واحتمال تجدد الحرب أمر وارد في ضوء الفشل الذي مُنيت به إسرائيل. ولذلك جاءت التسميات والأوصاف الإسرائيلية لهذه الحرب كاشفة عن هذه النتائج والاحتمالات المستقبلية كرصاص مصهور، ورصاص متآكل، ورصاص مشروخ، وحملة عابثة، وفرصة ضائعة، وحرب غزة الأولى:

رصاص متآكل

«يُعرب ضباط كبار عن خيبة أملهم من سلوك الحكومة منذ انتهاء حملة رصاص مصهور. وبزعمهم، فإن الإنجازات العسكرية آخذة في التآكل بسبب إهمال القيادة السياسية.

في الجيش الإسرائيلي، ينظرون إلى «حروب اليهود» بين أولمرت وباراك، فيما أن المفاوضات مع الفلسطينيينْ عالقة، وسكان الجنوب يعودون إلى الواقع الذي كان عشية حملة رصاص مصهور. إذا لم تتمكن القيادة السياسية من ترجمة الإنجازات العسكرية إلى

إنجازات سياسية ـ كما يقول الضباط الكبار ـ فإن هذه ستختفي تمامًا، وسنعود إلى نقطة البداية»[1].

حملة عابثة

«حملة عابثة» وصف يستمد أهميته من أهمية كاتبه شلومو جازيت الرئيس الأسبق للاستخبارات العسكرية الإسرائيلية الذي يقول تحت هذا العنوان: «من اليوم الذي تحقق فيه وقف النار بدأ التدهور. كل يوم إضافي يمر منذئذ هو يوم آخر من الهدر للفرصة؛ هو يوم آخر يعيدنا إلى الأيام الصعبة قبل ٢٧ ديسمبر (كانون الأول)، وربما أبعد من ذلك؛ إذ في حينه كنا لا نزال نعلق الآمال بالمبادرة إلى خطوة عسكرية هجومية. أما اليوم، فنحن نقف في ظل هدر الفرص وفشل هذه الخطوة.

أين أخطأنا ؟ يحتمل أن يكون ممكنًا تعليق الذنب على الحملة الانتخابية. محظور على إسرائيل أن تنطلق في خطوة عسكرية كبيرة حين تكون العناصر التي تشكل الائتلاف الحكومي تتنافس فيما بينها، قُبيل يوم صندوق الاقتراع المقترب. محظور الانطلاق إلى معركة حين يكون لرئيس الوزراء، ولوزير الدفاع ولوزير ـ أو وزيرة ـ الخارجية أجندة مختلفة، في ظل المنافسة والمناكفة المتبادلة.

لم يكن ممكنًا الاكتفاء بالإثبات بأن قوات الجيش الإسرائيلي قادرة على العودة إلى الدخول إلى القطاع والسيطرة على أجزاء هامة من المنطقة. كان مطلوبًا جواب واضح على الأسئلة التالية:

- كيف نسعى إلى منع استئناف التهريب لوسائل القتال من سيناء بأنفاق فيلادلفيا؟
- كيف سنفرض على مصر تغيير سياسة «غض النظر» عما يجري ؟
- ما هو هدف نشاطاتنا في شمال القطاع: استعراض القوة، أم السيطرة على معاقل حماس؟
- كيف سنستغل الحملة لتحرير جلعاد شاليط ؟
- وأخيرًا، ما هو إطار ساعة الرمل السياسية التي تحت تصرفنا ؟»[2].

---

(١) يوسي يهوشع، مسئولون كبار في الجيش الإسرائيلي: إنجازات الحملة تختفي: رصاص متآكل، يديعوت، ١/ ٣/ ٢٠٠٩.

(٢) شلومو جازيت، حملة عابثة، معاريف، ٤/ ٣/ ٢٠٠٩.

صاحب هذه التسمية هو د. رءوفين إيرليخ الذي يرى أن: «القصة مع حماس لن تنتهي أغلب الظن، في الجولة الحالية»[1]. وهذا ما استشعره الجمهور الإسرائيلي، يقول إبراهام تيروش: «انتهاء الحملة ترك الجمهور في إحساس واضح، يجد تعبيره في الاستطلاعات بأن هذه مجرد هدنة مؤقتة، والحرب التالية أكبر وأشد من سابقتها، توجد على الطريق، قريبة منا»[2].

* * *

(١) عاموس جلبوع، مطلوب اسم للحرب، معاريف، ٦/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) إبراهام تيروش، ليس كل شيء تعصبًا رجاليًا، معاريف، ٢٨/ ١/ ٢٠٠٩.

الفصل الخامس

حرب الاستقلال لحماس

اعتبر الكاتب الإسرائيلي «ألوف بن» حرب غزة حلقة على طريق الاستقلال الوطني الفلسطيني، فأطلق عليها حرب الاستقلال لحماس، فيقول: «إذا ما نفضنا التفاصيل عن الاقتراحات المختلفة لوقف النار، نكتشف قاسماً مشتركًا بينها جميعًا: تخليد حكم حماس في غزة.

حملة رصاص مصهور ستكون حرب الاستقلال لحماس، التي سيكون بوسعها أن تعلن في نهايتها «تعيش غزة الحرة»، وبفرنسية ساركوزي سيُسمع هذا على نحو أفضل بكثير: فيفا لا غزة»[1](*).

نعم قد يقول البعض هو استقلال جزئي على رقعة صغيرة جدًّا من فلسطين. فغزة لا تمثل إلا ٣٤, ١٪ فقط من مساحة فلسطين التاريخية. وقد يقول البعض أيضًا إنه استقلال يدعم الانقسام الفلسطيني ويصب النار عليه، أو استقلال يصب في صالح فصيل فلسطيني لا كل الشعب الفلسطيني. ولكننا نراه استقلالاً يدعم الخط الفلسطيني المقاوم باعتباره السبيل الوحيد لنيل الحقوق، ويدعم أيضًا هذا الخيار في باقي أجزاء الوطن المحتل.

---

(١) ألوف بن، القاسم المشترك بين كل المواقف الإسرائيلية الداخلية والخارجية بوقف النار التسليم بحكم حماس، هاآرتس، ٩/ ١/ ٢٠٠٩.

(*) «فيفا لا غزة» تعني «تحيا غزة» بالفرنسية.

لقد اختار الشعب الفلسطيني في انتخابات ٢٠٠٦ طريق المقاومة، يقول إسرائيل هارئيل: «مع تتويج حماس على رأس الحكم يكون الجمهور الفلسطيني قد اختار عن وعي طريق الدم والعرق والدموع، إلا أنها بالنسبة له أيضًا طريق للأمل والأحلام. فبعد الفـرار مـن غزة، أصبح الفلسطينيون على قناعة بأن إسرائيل - حتى وإن راوحت في مكانها - ستنسحب في نهاية المطاف إلى خطوط يونيو (حزيران) ١٩٦٧. ولكن بما أنهم لا يكتفون بخطوط يونيو (حزيران) ومستعدون لمواصلة الحرب الدائمة التي لا هوادة فيها حتى تحقق لهم أحلامهم كاملة بإزالة الكيان الصهيوني وإقامة دولة فلسطينية إسلامية كما يدعو ميثاق حماس فوق كل أرض إسرائيل، فضلوا حماس»[1].

* * *

(١) إسرائيل هارئيل، لماذا انتصروا ؟، هاآرتس، ٢/ ٢/ ٢٠٠٦.

الفصل السادس

حرب غزة ومستقبل الكيان الصهيوني

حرب غزة هي حلقة على طريق النهاية للكيان الصهيوني. وفي هذا الإطار، يطرح لها كُتاب العدو اسمين يرتبطان بمستقبل إسرائيل: حرب الصواريخ الثالثة، وحرب اللاانبعاث:

حرب الصواريخ الثالثة

هذا الاسم هو أحد الأسماء الثلاثة التي اقترحها الخبير الصهيوني د. رءوفين إيرليخ، فيقول: «اسم محتمل آخر للحرب هو: حرب الصواريخ الثالثة:

- الأولى كانت في حرب الخليج عام ١٩٩١، حين أطلق عراق صدام حسين على إسرائيل نحو ٥٠ صاروخ سكود. كل واحد منها مع رأس متفجر بوزن نصف طن. «جوش دان»[1] شُل، وبعض سكانها غادر إلى الشمال والجنوب.
- حرب الصواريخ الثانية جرت في ٢٠٠٦، حين أطلق حزب الله آلاف الصواريخ، أغلبيتها الساحقة نحو شمالي الدولة. بعض السكان نزحوا نحو جنوبي الدولة.

---

(١) «جوش دان أو غوش دان هي منطقة تجمع سكاني في وسط إسرائيل. تطل المنطقة على ساحل البحر المتوسط، وتضم كامل منطقة تل أبيب وما جاورها من مدن ومناطق. وتعد أكبر منطقة تجمع سكاني في إسرائيل، بعدد سكان يزيد على ثلاثة ملايين نسمة». المصدر موسوعة ويكيبيديا الحرة.

• الآن النزوح هو نحو الوسط والشمال. حجم النار وأضرارها في حرب الصواريخ الثالثة الجارية الآن أدنى بكثير من ذاك الذي كان في الحرب الثانية.

يوجد ميزتان للنوع الجديد لحروب إسرائيل: الجبهة الداخلية هي الجبهة، والضرر الأساسي من العدو هو الضرر الناجم عن الصواريخ والقاذفات الصاروخية.

من الصعب أن نتنبأ متى ستكون حرب الصواريخ الرابعة. ولكن، لا بد أن نأخذ في الحسبان بأنه فقط الاتجاه غربًا سيبقى مسار النزوح»[1]، أي خارج إسرائيل.

هذا النزوح الإسرائيلي أمام صواريخ المقاومة المحدودة الكفاءة والقدرة التدميرية يستحق أن نقف أمامه متأملين لندرك مدى هشاشة وضعف الكيان الصهيوني المسلح والمدرع من رأسه إلى أخمص قدميه، ولندرك أيضًا قيمة هذا الصمود الأسطوري للشعب الفلسطيني ولكل شعب عربي يتخذ المقاومة والشهادة مشروعًا له. ففي «ثلاثة وثلاثين يومًا من حرب لبنان الثانية لم ينفجر في الدولة أكثر من ثلاثين طنًّا من المتفجرات»[2]. هذه الأطنان القليلة شلت ثلث دولة إسرائيل، والكثير منهم هجروا بيوتهم إلى أماكن آمنة.

أما في حرب غزة، فما أُسقط على إسرائيل من صواريخ وقذائف للمقاومة كان أقل بكثير مما أسقطه حزب الله على إسرائيل، ولكن النتيجة أن وقع «قرابة مليون إسرائيلي في مرمى الصواريخ المنطلقة من قطاع غزة والقادرة على إصابة أهداف على مدى ٤٠ كيلومترًا داخل الأراضي الإسرائيلية. وسقطت خلال العملية أكثر من ٨٢٠ قذيفة صاروخية وقذيفة هاون في الأراضي الإسرائيلية»[3].

استعداد إسرائيلي دائم للهروب

مسار النزوح غربًا يستعد له الكثير من الإسرائيليين منذ فترة طويلة، ففي حديث ليديعوت مع أفيجيدور ليبرمان، جاء فيه: «نحن في الدقيقة التسعين، وهناك مؤشرات كثيرة على ذلك. أنا ألتقي مع سفراء شرق أوروبا وأسمعهم يتحدثون عن أن كمية

---

(١) عاموس جلبوع، مطلوب اسم للحرب، معاريف، ٦/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) ناحوم برنياع وشمعون شيفر، عدنا إليك ثانية، يديعوت، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.
(٣) وزارة الخارجية الإسرائيلية، عملية الرصاص المصبوب التي تقوم بها إسرائيل في غزة، موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.

الإسرائيليين التي تطلب الجنسية الأوروبية مخيفة. ذات مرة، كان اليهود في الخارج يطلبون الجنسية الإسرائيلية، ووفروا أموالهم هنا لأيامهم السوداء. واليوم، انقلب ظهر المجن، وأصبح الإسرائيلي يرغب في الجنسية الأجنبية، ويودع أمواله في الخارج»[1].

ويقول رئيس الكنيست الحالي رءوبين ريفيلين في مقال سابق له: «ظاهرة حملة الحقائب الجدد الإسرائيليون الذين يحصلون على جواز سفر أوروبي لانحدارهم من أصول أوروبية تطرح أسئلة ومادة للتفكير حولها. يبدو أن ما يحرك الظاهرة ليس خوفًا دفينًا، وإنما شيء أكثر عمقًا وجدية من ذلك، شيء قادر على دفع عدد غير قليل من الإسرائيليين للاعتقاد بأن يومًا سيأتي ويحتاجون فيه لهذا الجواز»[2].

حرب اللاانبعاث

يعتبر الكاتب الإسرائيلي كوبي نيف حرب غزة وصفة للفناء الذاتي الإسرائيلي، وتقويض لإمكانية حدوث أي تعايش أو سلام بين إسرائيل والشعب الفلسطيني. هذا التقويض سينتهي ببقاء أحد الطرفين ورحيل الآخر؛ ولكن ليس هناك ضمان أن يكون الشعب الذي سيبقى هم الإسرائيليون أنفسهم، فيقول: «إمكانية الحل الذي سيكون فيها عيش ما مشترك للشعبين المتنازعين في ذات قطعة الأرض، لفظت في هذه الحرب أنفاسها الهزيلة على أي حال، وقضت نحبها دون أن يكون لها أي فرصة للإصلاح أو الانبعاث.

من الآن فصاعدًا، لن يعود الحال نحن وهم. من الآن فصاعدًا، إما نحن أو هم. والقوي ينتصر. وبالفعل، كثيرون في أوساطنا يفرحون هذه الأيام في أن عقيدتهم القائلة أنه من أجل وجود وخلاص شعب إسرائيل يجب طرد الفلسطينيين، نالت الآن مجدًا كهذا، وأصبحت الإمكانية الوحيدة المتبقية لنا، والتي ستصبح أيضًا ـ بسرعة في عصرنا ـ السياسة الرسمية وليس فقط العملية لإسرائيل.

غير أن تنفيذ هذه السياسة يفترض أولًا: وجود دولة من نوع معين، وثانيًا: ليس مؤكدًا فيها أن نكون فيها نحن بالذات في المدى البعيد، ذاك القوي الذي ينتصر ويطرد الشعب الآخر. هذه وصفة لفنائنا الذاتي، وإذا ما عشنا فسنرى»[3].

---

(١) سيا كدمون، بقوة القوة: مقابلة مع أفيجيدور ليبرمان زعيم حزب إسرائيل بيتنا، يديعوت، ٢٠/١٠/٢٠٠٦.

(٢) رءوبين ريفيلين، جوازات السفر الأوروبية تهديد خطير للوجود اليهودي، هاآرتس، ١٤/ ٤/ ٢٠٠٨.

(٣) كوبي نيف، حرب اللاإنبعاث، معاريف، ١٢/ ٢٠٠٩.

الباب الثاني

المقاومة هي السبيل

الفصل الأول

لو كنت فلسطينيًّا

المقاومة - والمقاومة وحدها مهما كانت وسيلتها أو ثمنها أو نتائجها - هي السبيل الوحيد أمام الشعب الفلسطيني لنيل حقوقه، وتحقيق آماله المشروعة في الحرية والاستقلال، ولمواجهة العربدة الصهيونية. كما أنها هي الرد على تخاذل سلطة رام الله، وعلى انسداد الأفق السياسي. وهي - باعتراف اليهود أنفسهم - حق مشروع للشعب الفلسطيني لكي يبقى على قيد الحياة في ظل الإجراءات الإسرائيلية التعسفية مثل: الحصار، والجدار، وسرقة المياه الفلسطينية، ومنع لـمِّ شمل الأسر، وسلب الأراضي، وتدمير المزروعات، والاحتجاز القسري، وتهويد الأرض والمقدسات، وتزوير التاريخ، إلى غير ذلك من جرائم الاحتلال.

لو كنت فلسطينيًّا

يقول يوسي ساريد تحت هذا العنوان: «تحدثت هذا الأسبوع مع طلابي عن حرب غزة في إطار درس عن الأمن القومي. أحد الطلاب، الذي أعرب عن مواقف تميل قليلًا إلى اليمين، نجح في مفاجأتي. دون أي استفزاز من جانبي، فتح قلبه واعترف: لو كنت شابًّا فلسطينيًّا لقاتلت اليهود حتى الإبادة، حتى بوسائل إرهابية. كل من يقول شيئًا آخر يكذب عليك.

أقواله رنَّت في أذني كأقوال معروفة، سبق لي أن سمعتها ذات مرة. فجأة تذكرت:

قالها قبل نحو عشر سنوات وزير دفاعنا إيهود باراك. جدعون ليفي سأله في حينه بصفته مرشحًا لرئاسة الوزراء، ماذا كنت ستفعل لو وُلدت فلسطينيًّا؟، فأجابه باراك بصدق: كنت سأنضم إلى منظمة إرهابية»[1].

لفني: المس بجنود الجيش الإسرائيلي ليس إرهابًا

في اعتراف مهم بمشروعية مقاتلة المنظمات الفلسطينية لإسرائيل، نشرت صحيفة يديعوت تصريحات مهمة لوزيرة الخارجية: «قالت ليفني في مقابلة مع شبكة آي. بي. سي الأمريكية: إن المخربين الانتحاريين الذين يعملون ضد جنود الجيش الإسرائيلي ليسوا إرهابيين. وحسب أقوالها يجب التمييز بين من يحاول المس بالجنود وبين من يحاول قتل المدنيين.

فواصل الصحافي الضغط: هل تسميهم مقاتلي حرية ؟. قالت ليفني: لا، ولكن هذا كفاح أكثر شرعية من قتل مواطنين ـ أطفال، ونساء، ورجال ـ في الشوارع وفي المجمعات التجارية. من يقاتل الجنود الإسرائيليين هو عدو، ونحن سنقاتل ضده. ولكني أؤمن أن هذا ليس ضمن تعريف الإرهاب إذا كان الهدف جنودًا»[2].

ما دام الاحتلال مستمرًا

يقول جدعون ليفي: «دم على اليدين: من الأفضل لإسرائيل ألا تستخدم هذا المصطلح، فالدم موجود على أيادي الجميع، إسرائيليين وفلسطينيين، ومن الأفضل عدم السؤال عن هوية اليدين الأكثر احمرارًا. كما أن مصطلح إرهابيين هو مصطلح خلافي. إن كان قتل المدنيين الأبرياء إرهابًا، فما الذي سندعيه حينئذ ؟. الفلسطينيون سيواصلون محاولات الاختطاف وقتل الجنود قدر استطاعتهم على الأقل ما دام بقي الاحتلال مستمرًا»[3].

لنار القسام هدف إستراتيجي

يقول أفيف ليفي: «لنار القسام هدف إستراتيجي: ممارسة الضغط بهدف فتح المعابر بين

---

(١) يوسي ساريد، لو كنت فلسطينيًّا، هاآرتس ٢/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) ليفني: المس بجنود الجيش الإسرائيلي ليس إرهابًا، يديعوت، ١٢/ ٤/ ٢٠٠٦.
(٣) جدعون ليفي، أمناء الكرامة الإسرائيلية المهدورة، هاآرتس، ٢٢/ ٢/ ٢٠٠٩.

إسرائيل والقطاع، تلك التي من خلالها نطبق نحن مفهوم الاحتلال من الخارج. فإسرائيل لن تخرج من غزة أبدًا. صحيح بالطبع، فككنا المستوطنات، وسحبنا الجيش إلى حدود غزة؛ ولكنّ الاحتلال لم نوقفه للحظة. بالإجمال، استبدلنا الاحتلال من الداخل باحتلال من الخارج. إسرائيل تقرر أنه لن يكون لغزة ميناء أو مطار، وهي تتدخل وتسيطر على الاقتصاد، والكهرباء، والماء، والغذاء لغزة. وهكذا، فإن إسرائيل تُملي كل شاردة وواردة في حياة مليون ونصف المليون سجين في أكبر سجن في العالم»[1].

ويقول جدعون ليفي: «من يتمعن بمصداقية ونية خالصة بتسلسل الأحداث في الأشهر الأخيرة سيكتشف أن لصواريخ القسام سياقها: هذه الصواريخ تُطلق دائمًا تقريبًا بعد عمليات الاغتيال التي يقوم بها الجيش الإسرائيلي، وهي كثيرة. مسألة من الذي كان البادئ ليست مسألة صبيانية في هذا السياق. الجيش الإسرائيلي عاد إلى عمليات الاغتيال بكل قوة وعنفوان، ومن بعد ذلك جاء تصاعد إطلاق صواريخ القسام. هذه هي الحقيقة التي يخفونها»[2].

التاريخ لم يبدأ مع صواريخ القسام

تقول عميره هاس: «التاريخ لم يبدأ مع صواريخ القسام. ولكن بالنسبة لنا، التاريخ دومًا يبدأ عندما يؤلمنا الفلسطينيون. فمنذ قيام السلطة الفلسطينية، اشتدت آلة الهذر الإسرائيلية عن حجم الخطر العسكري المحدق بنا من الفلسطينيين. وعندما ينتقلون من الحجر إلى البندقية، ومن الزجاجة الحارقة إلى العملية الانتحارية، ومن العبوة الجانبية إلى القسام، ومن القسام إلى الجراد، ومن منظمة تحرير فلسطين إلى حماس، يقولون عندنا بهتافات النصر: قلنا لكم. هم ليسوا ساميين. ولما كانوا هكذا، فمسموح لنا أن نعربد»[3].

حتى في الحرب الحالية، فإن إسرائيل هي التي نقضت التهدئة لا فصائل المقاومة، تعترف بذلك هاآرتس في افتتاحيتها، فتقول: «إن نقض إسرائيل للتهدئة في نوفمبر (تشرين الثاني) عجل التدهور الذي أفضى إلى الحرب»[4].

---

(١) أفيف ليفي، منقطعون عن الواقع، معاريف، ١١/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) جدعون ليفي، أطفال الحرب، هاآرتس، ٢/ ٩/ ٢٠٠٧.
(٣) عميره هاس، التاريخ لم يبدأ مع القسام، هاآرتس، ١٤/ ١/ ٢٠٠٩.
(٤) أسرة التحرير، ما هي أهداف ضرب غزة تحديدًا، هاآرتس، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨.

المقاومة هي السبيل لتحرير الأسرى

«قامت إسرائيل منذ بداية الاحتلال، باحتجاز قرابة سبعمائة ألف فلسطيني من الرجال والنساء والأطفال. ووفقًا للتقديرات، كان يوجد في ١ يونيو (حزيران) ٢٠٠٩، قرابة ٨١٠٠ سجين سياسي فلسطيني محتجزين في إسرائيل، من بينهم ٦٠ امرأة و ٣٩٠ طفلًا. ومعظم هؤلاء المحتجزين هم أفراد يقوم باتهامهم أو بإدانتهم نظام من المحاكم العسكرية الإسرائيلية، تُقيَّد في ظله تقييدًا شديدًا حقوق الفلسطينيين فيما يتعلق بإجراء محاكمات عادلة . ويُحتجز كثيرون منهم احتجازًا إداريًّا كما يُحتجز البعض بموجب قانون المقاتلين غير الشرعيين الإسرائيلي»[1].

«وقد أسفرت التدابير القانونية المُتخذة منذ إعادة انتشار إسرائيل من غزة في عام ٢٠٠٥ عن معاملة المحتجزين الغزيين معاملة مختلفة. فقد صدر في عام ٢٠٠٦ قانون يغيِّر ضمانات المحاكمة العادلة ولا ينطبق إلا على المشتبه فيهم الفلسطينيين وأغلبيتهم الساحقة من غزة، وفقًا لمصادر الحكومة الإسرائيلية. وقد عُلِّق في عام ٢٠٠٧ تطبيق برنامج الزيارات الأسرية التابع للجنة الدولية للصليب الأحمر في قطاع غزة، مما يمنع جميع وسائل الاتصال بين السجناء المنتمين إلى غزة والعالم الخارجي»[2].

«من بين هؤلاء الأسرى: عرب من إسرائيل و٤٨٥ أسيرًا من منطقة القدس و٧١٠ حُكم عليهم بالسجن المؤبد[3]، ٢٨٧ أمضوا ما يزيد على ١٥ عامًا، و٣٢٠٥ متزوجين»[4].

هؤلاء الأسرى لا سبيل إلى تحريرهم إلا بالمقاومة وأسر جنود إسرائيليين، ليس بغرض تحرير الأسرى فحسب، بل أيضًا للضغط على المجتمع الإسرائيلي ودفعه للانهيار، وللوصول إلى تحقيق نتائج سياسية، يقول بن كاسبيت: «إن روح إعادة الجنود إلى البيت بأي ثمن في الحقيقة بدعة داحضة خطرة، وهذيان مجنون يدير رءوس الجمهور الإسرائيلي.

---

(١) تقرير بعثة جولدستون، الموجز التنفيذي، الأمم المتحدة، ٢٣/ ٩/ ٢٠٠٩، ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧.

(٣) المؤبد في القانون الإسرائيلي ٩٩ سنة. وهناك الكثير من الأسرى محكوم عليهم بمؤبدات كثيرة، مثل: الأسير عبد الله البرغوثي: ٦٣ مؤبدًا أي ٦٢٣٧ عامًا، الأسير حسن سلامة: ٤٢ مؤبدًا أي ٤١٥٨ عامًا، والأسيرة أحلام التميمي: ١٦ مؤبدًا أي ١٥٨٤ عامًا.

(٤) يهوناتان داحوح ـ هاليفي، من يحبط النمو الفلسطيني، يديعوت، ١١/ ٣/ ٢٠٠٩.

إطلاق جندي مختطف بأي ثمن هو تحريف فظيع تضخم بإزاء أعيننا في غضون جيل من السلوك الفاسد. هو انتحار ذاتي لا يوجد شبيه له في أي دولة أخرى في العالم.

لا يجلس في الجانب الآخر أناس صُم أو عُمي. فهم يرون المشاهد، ويسمعون الأصوات. وهم ينظرون بعجب مخلوط بلهو إلى انهيار المجتمع الإسرائيلي. ويعلمون أن كل ما يجب أن يفعلوه هو الاستمرار في اختطاف الجنود»[1].

* * *

(١) بن كاسبيت، ماذا يساوي حصارنا كله لغزة؟ معاريف، ١٧/ ١٢/ ٢٠٠٨.

الفصل الثاني

السجن الكبير

عاشت غزة وما زالت تعيش حصارًا كاملًا، تفرضه إسرائيل، في ظل صمت دولي مخزٍ، وعجز عربي مُشين يصل في بعض الأحوال إلى حد التآمر. هذا الحصار لا تعيشه غزة وحدها، بل هي حالة مفروضة ـ ولكن بأشكال مختلفة من قبل الاحتلال ـ على مجمل الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧، بما فيها الضفة الغربية والقدس الشريف.

شعب بلا حقوق

في ندائها الطارئ عن الأوضاع الإنسانية للأراضي العربية المحتلة، تتحدث وكالة تشغيل وغوث اللاجئين «الأونروا» عن الأوضاع المأساوية للشعب الفلسطيني، فتقول: «إن الحقوق والحريات التي يحق للفلسطينيين التمتع بها بموجب القانون الدولي لا يزال يجري تجاهلها بشكل روتيني، أو تُنتهك دون عقاب. وتشمل هذه الحقوق: الحق في الحياة، والأمن، وحرية التنقل، والعمل، والخدمات الأساسية، والتعليم، والمأوى، والمستوى اللائق للمعيشة، والحماية من التهجير القسري، والحق الشامل لتقرير المصير.

إنكار هذه الحماية للمدنيين الفلسطينيين في كل الأراضي الفلسطينية المحتلة بما فيها مخيمات اللاجئين فاقم من أوضاعهم على نطاق واسع، وجعلهم يعتمدون بصفة أساسية على برامج الإغاثة التي يمكنها التخفيف من الآثار السيئة للأزمة، ولكنها غير كافية لمحو آثارها.

في الواقع، والأزمة تدخل عامها التاسع، فهناك دلائل على أن فعالية المساعدة الإنسانية في الحد من الفقر في الأراضي الفلسطينية المحتلة آخذة في الانخفاض، كما أن الفجوة بين الموارد المتاحة والاحتياجات آخذة في الاتساع»[1].

أربعة عقود من السيطرة

يتحدث المفكر اليهودي آفي شليم عن مأساة قطاع غزة، فيقول: «أربعة عقود من السيطرة الإسرائيلية تسببت في أضرار لا تُحصى في اقتصاد قطاع غزة. فهناك عدد كبير من السكان من لاجئي ١٩٤٨، والذين تم حشرهم في ذلك الشريط الصغير جدًّا من الأرض حيث لا بُنى تحتية ولا مصادر طبيعية. غزة حالة استثنائية قاسية من اللاتنمية المتعمَّدة. لقد حولت إسرائيل سكان غزة إلى مصدر للأيدي العاملة الرخيصة، وحولت غزة إلى سوق أسيرة ومُقيَّدة للسلع الإسرائيلية. كما قامت إسرائيل بشكل ناشط بعرقلة تطوير الصناعة المحليَّـة. كل ذلك لكي تجعل الأمر مستحيلًا على الفلسطينيين لإنهاء تبعيتهم لإسرائيل، أو حتى لتأسيس الدعامات الاقتصادية الضرورية للاستقلال السياسي الحقيقي»[2].

حالة كلاسيكية من الاستغلال الاستعماري

«إن غزة هي حالة كلاسيكية من الاستغلال الاستعماري في حقبة ما بعد الاستعمار. إن تلك المستوطنات اليهودية في المناطق المحتلة لا هي شرعية ولا هي أخلاقية، بل إنها تشكل عقبة كأداء أمام السلام. بل أكثر من ذلك، أنها أداة ووسيلة من وسائل الاستغلال، ورمز للاحتلال البغيض.

في غزة عام ٢٠٠٥، كان عدد المستوطنين اليهود فقط ثمانية آلاف مقارنة مع ١,٤ مليون من السكان المحليِّين. رغم ذلك سيطر المستوطنون على ٢٥٪ من الأرض، و٤٠٪ من الأراضي الصالحة للزراعة، وحصَّة الأسد من مصادر المياه الشحيحة.

---

(١) الأونروا، نداء الطوارئ ٢٠٠٩، مكتب الإعلام، ص ٤، والنداء أصلًا بالإنجليزية ويمكن تحميله من على موقع الأونروا.

(٢) آفي شليم، كيف تسببت إسرائيل في وضع غزة على شفا كارثة إنسانية؟ الجارديان، ٧/ ١/ ٢٠٠٩، نقلًا عن موقع إسلام ديلي.

يعيش ـ وبشكل ملاصق لهؤلاء الدخلاء الأجانب ـ أغلبية كبيرة من سكان غزة في فقر مدقع، وبؤس لا يمكن تصوره. ثمانون بالمائة من هؤلاء الغزيين يقتاتون على أقل من دولارين في اليوم.

إن الأوضاع والظروف المعيشية في ذلك الشريط الصغير ستظل دومًا إهانة للقيم المتحضِّرة، كما ستظل مادة قويَّة مهيئة للمقاومة، وتربة خصبة للتطرُّف السياسي»[1].

سجن في الهواء الطلق

«صحيح أن إسرائيل سحبت المستوطنين من القطاع، ولكن فعليًا، استمر الجنود في السيطرة على جميع المعابر الموصلة إلى قطاع غزة سواء عن طريق البر أو البحر أو الجو.

قطاع غزة تحول إلى سجن كبير، ولكن في الهواء الطلق. وأصبح سلاح الجو الإسرائيلي يتمتع بحرية مطلقة في إسقاط القنابل أو تفجير القنابل الصوتية. طائراته تحلق على ارتفاع منخفض خارقة جدار الصوت، ولا بأس بترويع السكان التعساء في هذا السجن الكبير»[2].

رفض الخيار الديمقراطي للشعب الفلسطيني

«إسرائيل لديها تاريخ طويل من العمل السري بالتعاون مع الأنظمة العربية الرجعية لقمع القومية الفلسطينية. وعلى الرغم من كل تلك العوائق، إلا أن الشعب الفلسطيني نجح في بناء الديمقراطية الحقيقية الوحيدة في العالم العربي، إن استثنينا لبنان تجاوزًا. ففي يناير (كانون الثاني) عام ٢٠٠٦، وبعد إجراء انتخابات حرة ونزيهة للمجلس التشريعي وصلت إلى السلطة حكومة بقيادة حركة حماس. إلا أن إسرائيل رفضت الاعتراف بحكومة حماس المنتخبة ديمقراطيًا بدعوى أن حماس بكل بساطة هي منظمة إرهابية محضة.

أمريكا والاتحاد الأوروبي ـ بلا مواربة ولا خجل ـ انضما إلى إسرائيل في نبذ وتشويه سمعة حماس المنتخبة شعبيًا. وذهبوا جميعًا أكثر من ذلك عندما حاولوا الإطاحة بها عن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

طريق حجب عائدات الضرائب والمساعدات الخارجية عنها. وقاموا برسم حالة سريالية حول تلك الحكومة المنتخبة - ومعهم جزء كبير من المجتمع الدولي - بفرضهم عقوبات اقتصادية ليس على المحتلِ الغاصب، بل على صاحب الحق الشرعي، ليس ضد الظالم، ولكن ضد المظلوم»[1].

العقاب الجماعي

«استمرت إسرائيل بعد اتفاق التهدئة بفرض الحصار على غزة. وهو من وجهة نظر حركة حماس يشكل خرقًا لاتفاقية التهدئة. وقامت إسرائيل كذلك خلال التهدئة بمنع أيَّة صادرات بمغادرة غزة، في انتهاك واضح وصريح لاتفاقية عام ٢٠٠٨؛ مما تسبب في انخفاض حاد في فرص العمالة. النسبة الرسمية المعلنة للعاطلين عن العمل في القطاع هي ٤٩,١٪.

كل ذلك لم يكفِ إسرائيل، بل واصلت ضغطها على القطاع، فقيدت بشكل كبير عدد الشاحنات التي تنقل المواد الغذائية والوقود، وأسطوانات غاز الطهي، وقطع الغيار لمحطات الصرف الصحي والمياه، والإمدادات الطبية التي يحتاجها القطاع. إنه من الصعوبة بمكان فهم كيف يمكن لتجويع السكان في القطاع وتجميد حياتهم أن يسهم في حماية الشعب على الجانب الإسرائيلي للحدود مع القطاع ؟! حتى لو افترضنا جدلًا أن هذه الإجراءات ستحقق الهدف، ولكن هل هي مقبولة أخلاقيًا، أم هي شكل من أشكال العقاب الجماعي المحرمة بقوة في القانون الدولي الإنساني»[2].

غزة في شعب أبي طالب

تنقل لنا ماري كولفن مراسلة جريدة التايمز اللندنية صورة مأساوية عن آثار هذا الحصار الظالم المفروض على غزة، فتقول: «القوافل القليلة التي تسمح لها إسرائيل بالمرور عبر بواباتها - التي غالبًا ما تحمل شعار الأمم المتحدة - تنتظر أيامًا طويلة من أجل الحصول على الإذن من السلطات الإسرائيلية للدخول.

التقيت خلال وجودي في القطاع بالسيدة جندية أبو عمرة وابنتها اللتين كانتا تجمعان

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

العشب من أجل طبخه. تقول السيدة جندية: إن هذه الأعشاب هي زادنا اليومي. ففي كل يوم أستيقظ، وأبدأ بالبحث عن أي أخشاب أو أوعية بلاستيكية من أجل حرقها واستخدامها كوقود، وأبدأ بالدعاء إلى الله من كل قلبي لأجد ما يكفي لطهي تلك الأعشاب. وتقول الابنة: لا أتذكر آخر مرة رأيت فيها الفاكهة.

ما شاهدته بأم عيني أن تلك الفتاة كانت ترتدي بنطلونًا به الكثير من الرقع وممزق حول الركبتين، وكانت أيضًا حافية القدمين.

تحصل الأسر الفلسطينية على الطاقة الكهربائية لست ساعات، وليوم واحد في الأسبوع. ويتم توفير بعض احتياطات غاز الطهي من خلال التهريب عبر الأنفاق المحفورة بين مصر والقطاع.

أسعار السلع مرتفعة للغاية، وهي ليست في متناول الأفراد العاديين، فعلى سبيل المثال ارتفع سعر عبوة الأرز في الأسبوع الماضي من ٨٠ شيكلًا[١] إلى ٣٨٠ شيكلًا حاليًّا.

وتتحمل وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين مسئولية إطعام مليون لاجئ في القطاع. يقول جون كينج مدير الوكالة في القطاع: لقد انهار الاقتصاد، ولا يوجد هناك صادرات أو واردات. قبل أسبوعين نفد ما كان لدينا من أغذية لأول مرة منذ ستين عامًا. كنا نُدخل يوميًّا من سبعين إلى ثمانين شاحنة، أما الآن فكل ما نستطيع إدخاله هو ١٥ شاحنة فقط، هذا إذا كانت البوابات مفتوحة. وذكر أن ما لدى الوكالة من أغذية يكفي فقط لمدة أربعة أيام. في هذه الأثناء سيستمر أهل غزة في المعاناة، وسيتوجب على جندية أبو عمرة وأسرتها أن يستمروا في أكل الأعشاب في المستقبل المنظور ولمدة لا يعلمها إلا الله»[٢].

مرحى للمعكرونة

تتحدث عميرة هاس عن بشاعة هذا الحصار فتقول: «عندما تبين لسيناتور أمريكي أن إسرائيل تحظر إدخال المعكرونة إلى قطاع غزة، عصفت البلاد. منذ ذلك الحين، يضم مسئولو الجهاز الأمني الإسرائيلي الكبار الشعرية إلى قائمة المستهلكات الزائدة ؟ لكن:

---

(١) الدولار يساوي ٣,٧٥ شيكلات. أي أن عبوة الأرز قد ارتفع سعرها من ٢١,٣ دولارًا إلى ١٠١,٣ دولار أي خمسة أضعاف سعرها تقريبًا.

(٢) ماري كولفن، ما وراء الحصار على قطاع غزة، الوطن الكويتية، ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٨

• ماذا عن أب من غزة لا يسمح جنرالات إسرائيليون لابنه الإسرائيلي بزيارته، بعد سبع سنين لم يلتقيا فيها ؟

• ماذا عن ابن لا يمكنه منفذوا الأوامر العسكرية من الخروج لوداع أمه المحتضرة في الأردن ؟

• أو عن مخطوبة لا يحل لها أن تسافر للزواج في الضفة ؟ من المحقق أن العُرس مؤامرة فلسطينية للإخلال بالتوازن السكاني !!

هذه هي معايير التصنيف الساخرة التي حددتها حكومات إسرائيل قبل الانفصال، وقبل أسر جلعاد شاليط، وقبل سيطرة حماس على القطاع، والتي تُملي واقع الحصار الذي يعيشه مليون ونصف المليون من البشر، نصفهم من الأولاد»[1].

من النزر اليسير إلى القطرات المتقطعة

تحت عنوان «غزة تناضل من أجل البقاء على قيد الحياة» بتاريخ ٥/ ١٢/ ٢٠٠٨، يكشف تقرير لمنظمة العفو الدولية عن مدى تردي الأوضاع الإنسانية في القطاع الصامد قُبيل حرب غزة، ويكشف أيضًا عن الدور الإسرائيلي في صنع هذه المأساة في انتهاك واضح وفج لأحكام القانون الدولي، وفي تنصل بيِّن من مسئولياتها التي يُلزمها بها القانون الدولي كدولة احتلال، يقول التقرير: «أخذ الحصار الإسرائيلي على قطاع غزة يجرُّ على سكانه عواقب أشد خطورة من أي وقت مضى. ففي الشهر الماضي، انخفضت إمدادات المساعدات الإنسانية والضرورات الأساسية من النـزر اليسير إلى القطرات المتقطعة.

فمع منع مرور المؤن أكثر فأكثر، أغلقت معظم المطاحن أبوابها؛ لأنها ليس لديها كمية تُذكـر من الحبوب. وبات الناس ـ الذين حُرموا منذ فترة طويلة من العديد من المواد الغذائية ـ لا يجدون حتى الخبز في بعض الأحيان. ونفد احتياطي المواد الغذائية منذ زمن طويل. ولم تعد الكميات الزهيدة التي يُسمح بإدخالها إلى غزة تكفي لتلبية الاحتياجات المباشرة للناس. ولا تستطيع العائلات أن تعرف ما إذا كان أطفالها سيحصلون على قوت يومهم في اليوم التالي. وحتى عندما تتوفر لدى الناس مواد غذائية، فإنهم يفتقرون إلى الغاز

---

(١) عميرة هاس، مرحى للمعكرونة، هاآرتس، ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٩.

والكهرباء لطهيها. ففي الأسبوع الماضي، سُمح بإدخال أقل من ١٠٪ من الاحتياجات الأسبوعية لغاز الطبخ.

كما أن نقص الوقود والكهرباء وقطع الغيار يتسبب في مزيد من تدهور البنية التحتية للمياه والصرف الصحي وغيرها من الخدمات الضرورية يومًا بعد يوم. وتعمل ٨٠٪ من الآبار الآن بطاقة منخفضة، ولا تتوفر إمدادات المياه إلا لبضع ساعات كل بضعة أيام. وفي الأوقات التي تتوفر فيها المياه، لا توجد كهرباء أو وقود لضخها إلى الشقق في المباني. كما أن نقص الكلور يُزيد من مخاطر تفشي الأمراض التي تنتقل عن طريق الماء.

إن عمليات الإطفاء التي تحدث بشكل معتاد تسبب خللًا في جميع جوانب الحياة لجميع الناس. فالمستشفيات تكابد لتوفير الطاقة للأجهزة التي تنقذ أرواح البشر، وأصبحت المحافظة على خدمات الغسيل وغيرها من الخدمات الأساسية في تلك المشافي أكثر صعوبة.

وحتى المرضى الذين يحتاجون إلى معالجة طبية غير متوفرة في غزة يُمنعون غالبًا من العبور إلى خارج القطاع. وقد قضى عشرات الأشخاص نحبهم في العام الماضي، بينما كان بالإمكان إنقاذ حياتهم لو سُمح لهم بالسفر»[١].

أين ضمير العالم ؟

إن الأرقام الواردة في التقارير الدولية تصدمنا بواقع مأساوي، السكوت عليه جريمة، وعدم السعي لتغييره إثم وكبيرة:

- «يعتمد ٨٠٪ من السكان الآن على المعونات الدولية، بالمقارنة مع ١٠٪ قبل عقد من الزمن.

- أدت القيود المفروضة من قبل إسرائيل إلى ارتفاع تكلفة المساعدات الغذائية التي تقدمها وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين الأونروا إلى عشرين دولارًا أمريكيًا للشخص الواحد في اليوم الواحد مقارنة بثمانية دولارات أمريكية في ٢٠٠٤»[٢].

- «الأكثر عرضة للضرر هم الأطفال، الذين يشكلون زهاء ٥٦٪ من سكان غزة.

---

(١) منظمة العفو الدولية، غزة تناضل من أجل البقاء على قيد الحياة، موقع منظمة العفو الدولية، ٥/١٢/٢٠٠٨.

(٢) منظمة العفو الدولية، محاصرون ـ العقاب الجماعي، موقع منظمة العفو الدولية، ١٢/٨/٢٠٠٨.

- نسبة كبيرة من السكان يعانون من سوء التغذية، وأكثر من نصفهم يعانون من انعدام الأمن الغذائي.
- كان للقيود الإسرائيلية على الطعام والوقود وغيرها من السلع الأساسية، وكذلك الصادرات الزراعية والصناعية من غزة أثر مدمر على الاقتصاد في غزة. ففي التقرير ربع السنوي للبنك الدولي الصادر في أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٨، ذكر أنه بسبب الحصار في غزة ما زالت ٢٪ فقط من المؤسسات الصناعية تعمل، وتراجع التوظيف بالمجال الصناعي من خمسة وثلاثين ألف شخص في عام ٢٠٠٥ إلى ثمانمائة وأربعين شخصًا، وضاعت أربعون ألف وظيفة في المجال الزراعي.
- بحلول عام ٢٠٠٨، كان ٨٠٪ من سكان غزة يعتمدون على المساعدات الغذائية، وزهاء ٧٠٪ منهم يعيشون في فقر مدقع»[1].

* * *

(١) هيومان رايتس ووتش، حياة الحرمان والخطر : الأزمة الإنسانية في قطاع غزة، موقع منظمة هيومان رايتس ووتش، ٢٢/ ١/ ٢٠٠٩.

الفصل الثالث

أوسلو وما أدراك ما أوسلو

في الوقت الذي جنت فيه إسرائيل من اتفاق أوسلو مكاسب سياسية واقتصادية وإستراتيجية كثيرة مثلت نقلة نوعية في المشروع الصهيوني، لم يجنِ الشعب الفلسطيني من وراء هذا الاتفاق إلا المر والعلقم.

إسرائيليًا

يبين إيتان هابر رئيس ديوان إسحق رابين مكاسب إسرائيل من أوسلو، فيقول: «الاتفاق أدى إلى:

- اعتراف عشرات الدول بدولة إسرائيل.
- مجيء أكثر من مائتي شركة دولية إلى إسرائيل لم توافق من قبل على المجيء إلى هنا.
- فتح سبعة مكاتب تمثيل إسرائيلية في دول عربية وبالعكس في تل أبيب.
- نمو اقتصادي بمعدل ٦,٧ ٪ لم نشهد له مثيلًا حتى ذلك الحين ومنذ الأزل.
- انخفاض دراماتيكي في معدل البطالة من ١١ ٪ إلى ٦,٥ ٪.
- زيارات لرئيس وزراء إسرائيل ـ لأول مرة منذ قيام الدولة ـ إلى بلدان مثل إندونيسيا لم تسمح بمثل هذه الزيارة على مدى عشرات السنين.

- مضاعفة ميزانية التعليم لأول وآخر مرة في تاريخ دولة إسرائيل.
- بناء مطار بن جوريون ٢٠٠٠.
- السلام مع الأردن»[1].

فلسطينيًا

ما الذي جناه الفلسطينيون من أوسلو ؟! وما الدور الذي تقوم به السلطة الفلسطينية التي تمخضت عن هذا الاتفاق المشئوم ؟! تحت عنوان بالغ الدلالة «قائد دمية»، يتحدث جدعون ليفي عن رأس السلطة الفلسطينية حديثًا مرًّا، فيقول: «محمود عباس ملزم بالبقاء في البيت. من المحظور أن يسافر إلى واشنطن في الظروف الحالية. لقاءاته مع إيهود أولمرت تتحول هي الأخرى إلى مسألة مُهينة ومُذلة لشعبه، ولن تتمخض عن أي شيء جيد.

العقل لا يطيق المزيد من مسرحيات الزيارات الودية الدافئة التي يقوم بها قائد فلسطيني إلى القدس مع لثم خدود زوجة رئيس الوزراء بالقُبلات. هذا الرئيس الذي يهدد في ذات الوقت بوضع مليون ونصف من أبناء شعبه تحت الحصار والتجويع والظلام.

لو كان أبو مازن زعيمًا قوميًّا حقيقيًّا ـ وليس شخصية وهمية صغيرة ـ لكان عليه أن يصرح: لا مؤتمر، ولا لقاءات إلى أن يُرفع الحصار عن غزة. ولو كان يتميز بالمقام التاريخي الرفيع لقال: المؤتمر مع إسماعيل هنية فقط. فهو أيضًا يمثل الفلسطينيين.

وإذا كانت إسرائيل تريد السلام حقًّا وليس مجرد «إعلان مبادئ» لكان عليها أن تحترم ذلك. وعليها أيضًا أن تكون معنية بأن يُعتبر أبو مازن قائدًا في نظر شعبه، وليس فقط دمية مربوطة بخيط تحركه إسرائيل والولايات المتحدة أو اعتبارات قصيرة المدى والنظرة.

غزة بالنسبة له هي «منطقة معادية» الآن بدرجة لا تقل عنها بالنسبة لإسرائيل. بينه وبين إسرائيل الآن وحدة مخزية في المصالح، ولن تكون مفيدة للجانبين.

هو لا يكتفي بعدم معارضة ما ترتكبه إسرائيل في غزة، بل إنه يشاركها في الفرضية الحمقاء التي تعتقد أن الضغط القاسي سيؤدي إلى خضوع حماس وعودة المواطنين إلى

---

(١) إيتان هابر، سيأتي يوم نتوق فيه إلى أوسلو، يديعوت، ١٣/ ٩/ ٢٠٠٩.

أحضان فتح. بذلك يبرهن أبو مازن على أنه بالفعل ليس صوصًا لم ينبت ريشه بعد ـ كما نعته شارون ـ وإنما دجاجة سخيفة لا تكترث لمصلحة شعبها.

الحد الأدنى المطلوب ممن يحمل اللقب الرفيع «رئيس السلطة الفلسطينية» هو أن يحاول الحرص على مصلحة أبناء شعبه خصوصًا عندما يكونون في ضائقة فظيعة إلى هذا الحد»[1].

المعركة الحاسمة

المعركة الحاسمة للسلطة الفلسطينية ليست مع الاحتلال، وإنما هي وللأسف الشديد مع المشروع المقاوم وعلى رأسه حماس، يقول أفرايم هاليفي رئيس الموساد سابقًا: « قبل نحو أسبوعين أُتيح للجمهور في إسرائيل أن يُطل مباشرة على الاستعدادات والحوارات بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية قبيل المواجهة القريبة القادمة مع حماس. قادة الجيش الإسرائيلي في يهودا والسامرة حلوا إلى جانب قادة السلطة على مائدة إفطار في إحدى أمسيات صوم رمضان، واستغلوا الحدث ليرسموا المسار المخطط له للقضاء على حماس، سواء في الضفة الغربية أو في قطاع غزة. ولهذه المناسبة الاستثنائية دُعي صحافيون إسرائيليون كبار، ولهذا فواضح أنه اتُخذ قرار ليس فقط بالدفع إلى الأمام بالخطة المشتركة، بل وأيضًا بإعطائها فرصة العلانية.

القائد الفلسطيني الجنرال علي، المفعم بثقة عالية بالنفس بأن قواته ستنجح أيضًا في أن تعالج بنجاعة انتفاضة محتملة لحماس في الضفة، والعودة إلى تنصيب حركة فتح كحاكم وحيد وناجع، بل وإعادة النظام إلى نصابه في قطاع غزة.

إسرائيل ملزمة بذلك بسبب منظومة الاتفاقيات التي رسمتها مع الشريك الفلسطيني، وبسبب الحضور الكبير للولايات المتحدة في المعركة. تجربة أمريكية مشابهة فشلت في غزة في صيف ٢٠٠٧، وإلى جانب فقدان المعدات الكثيرة والتمويل الذي أُستثمر في محمد دحلان ورجاله، تضررت مكانة القوة العظمى صديقة إسرائيل ومعقل دعمها.

منذئذٍ ارتفع مستوى حماس إلى مستوى عدو كبير للإدارة في واشنطن، وهي توظف الآن جهودًا مضاعفة ومتزايدة كي تكون نتائج المواجهة التي تلوح في الأفق ـ المواجهة

---

(١) جدعون ليفي، قائد دمية، هاآرتس، ٢٣/ ٩/ ٢٠٠٧.

الثانية ـ معاكسة لتلك التي كانت قبل سنة. قوات فلسطينية تتدرب بأعداد كبيرة متزايدة على الأراضي الأردنية، شخصيات كبيرة في العاصمة الأمريكية تتابع عن كثب التطورات.

هزيمة قوات الجنرال علي ليست سيناريو مقبولًا أو محتملًا من ناحية إسرائيل أو من ناحية الولايات المتحدة. إننا نأمل في أن تقضي القوات الفلسطينية على حركة حماس، وتعود لتسيطر على غزة، ويكون بوسع إسرائيل والولايات المتحدة الترحيب بالأمر الناجز»[1].

نجحوا فيما لم تنجح فيه إسرائيل

«في قلقيلية، قضت أجهزة الأمن الفلسطينية على ستة مطلوبين من حماس بطرق أكثر نجاعة وقسوة بكثير مما كان الجيش الإسرائيلي يفعله. لأن أحدًا لن يشكل لهم لجنة تحقيق تابعة للأمم المتحدة أو جولدستون. فقد سمحت أجهزة الأمن الفلسطينية لنفسها بإشعال النار في منزل اختبأ المطلوبون فيه، وبعد ذلك أغرقوه بالمياه. هؤلاء كانوا ستة مطلوبين حاولت إسرائيل أيضًا اصطيادهم خلال فترة طويلة. إلا أن الفلسطينيين قد نجحوا»[2].

هؤلاء الأشاوس هم في واقع الأمر نعام أمام اليهود، يقول نداف هعتسني: «منذ عصر أوسلو، الجيش الإسرائيلي يدخل ويسيطر في كل ثقب وزقاق، وهو يتوغل في كل ساعة لكل مخيم لاجئين، ويحذر على القوات الفلسطينية التجوّل في الساحات في الليالي»[3].

إعادة عباس إلى غزة هدف رئيسي

من أهداف حرب غزة

«انتهت التهدئة. الجيش الإسرائيلي خرج في عملية الرصاص المصهور. ما هو الهدف الذي يتم من خلاله استخدام الجيش الإسرائيلي في هذه المرحلة ؟ الأمور التي تصرح بها رئيسة كاديما تسيبي ليفني، والقائم بأعمال رئيس الوزراء حاييم رامون، تشير إلى أن الهدف السياسي هو إسقاط حكم حماس حتى يعود تنظيم فتح برئاسة «أبو مازن» لحكم قطاع غزة.

---

(١) أفرايم هاليفي، المعركة الحاسمة، يديعوت، ٢/ ١٠/ ٢٠٠٨.

(٢) بن كاسبيت، السلطة الفلسطينية تبني نفسها بصورة جيدة وتثبت أنها شريك قوي، معاريف، ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٩.

(٣) نداف هعتسني، هدوء كاذب، معاريف، ١/ ١٠/ ٢٠٠٩.

منذ الخمسينيات، تخيل بن جوريون رعاية إسرائيل لضابط مسيحي ومساعدته على السيطرة على لبنان والتوقيع معه على اتفاق سلام بعد ذلك. في فترة حرب يونيو ١٩٦٧ دعا إيجال يادين إلى احتلال جبل الدروز وإقامة دولة درزية حليفة هناك. في حرب لبنان الأولى ١٩٨٢، جربنا هذا الطريق فاحترقنا. هذا الحلم الخيالي ورطنا في لبنان.

يحاولون اليوم أيضًا إقامة نظم جديدة في الشرق الأوسط بدم جنود الجيش الإسرائيلي. استخدام الجيش الإسرائيلي من أجل التدخل في السياسة الداخلية الفلسطينية ليس أخلاقيًا. الجيش الإسرائيلي موجود من أجل الدفاع عن إسرائيل وليس لخدمة حزب معين عند العدو. هذا التدخل ليس ذكيًا. حماس تسيطر على قطاع غزة لأن هذه رغبة الفلسطينيين هناك. مجرد التفكير بإرسال الجنود الإسرائيليين للمخاطرة بحياتهم لمساعدة عدو لدود للتغلب على عدو لدود آخر في السياسية الداخلية الفلسطينية، هو عمى في البصيرة»[1].

وثيقة خطيرة

تقول صحيفة معاريف: «محافل سياسية رفيعة المستوى في القدس تعرب عن غضبها من سياسة السلطة الفلسطينية في الآونة الأخيرة، في كل ما يتعلق بمحاولات تقديم ضباط من الجيش الإسرائيلي وسياسيين إلى المحاكمة أمام المحكمة الدولية في لاهاي على مخالفات لقوانين الحرب.

في وثيقة أُعدت لعناية وزير الخارجية أفيجدور ليبرمان ورد أن محافل فلسطينية رفيعة المستوى ضغطت على إسرائيل للعمل بشكل حازم لإسقاط حكم حماس.

يدور الحديث عن خطوة كلها ازدواجية مكشوفة. من جهة، ضغطوا علينا كي نضرب حماس في غزة، وشجعوا الخطوة العسكرية. والآن، هم يطالبون بتقديم ضباط إلى المحاكمة. فقد طلبوا أن ننقذ رجالهم في غزة، أن ندخلهم إلى المستشفيات، وأن نقدم لهم المساعدة، طلبوا تحرير سجناء في أعقاب الحملة. كل طلباتهم أُستجيب لها»[2].

المشاركة في العدوان

«كشفت القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي أن رئيس هيئة الأركان أرسل رسالة

---

(١) أوري هاينتر، جربنا في لبنان فاحترقنا، إسرائيل اليوم، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٢) معاريف، في السلطة ضغطوا على إسرائيل لانهيار حماس، ١٢/ ٥/ ٢٠٠٩.

إلى المستشار القضائي للحكومة، كشف من خلالها عن التعاون غير المسبوق بين الجيش والسلطة الفلسطينية ممثلة برئيسها خلال الحرب على غزة. وأوضح أن مشاركة السلطة كانت أمنية بالدرجة الأولى، ثم محاربة ميدانية مشتركة بالدرجة الثانية، مؤكدًا على أن الجيش والسلطة عملا جنبًا إلى جنب ضد حركة حماس خلال الحرب»[1].

العمل الأسود

يقول عكيفا الدار: «تركيا غاضبة، والسعودية تغلي، وقطر تقاطع. والضفة الغربية ـ وهي أقرب جماعة إلى مئات القتلى وآلاف الجرحى في قطاع غزة ـ تحتفظ بضبط النفس. بل إن شوارع القدس الشرقية واللد أكثر هياجًا من أزقة جنين ورام الله.

قوات الأمن الإسرائيلية ـ التي استعدت لإمكان أن تنتشر المواجهة في جميع أنحاء الأراضي المحتلة ـ كادت تبقى بلا عمل. فرجال شرطة السلطة يؤدون العمل بدلًا منها. والضباط الذين سُخِّرُوا من أجهزة أمن السلطة يمتدحون عملهم وتمسكهم بالمهمات.

كم من الوقت سيظل أبو مازن يقوم بالعمل الأسود من أجلنا؟ إلى متى سيوافق رجال شرطته على التعاون مع سلطات الاحتلال ؟ لن تعود فتح إلى غزة راكبة دبابات إسرائيلية دمرت أحياءها. يجب أن تعود فتح إلى هناك فوق رافعات البناء التي ستعيد بناء أنقاضها»[2].

سلطة تحميها حراب الاحتلال

تعليقًا على موقف السلطة الفلسطينية حيال تقرير جولدستون، كتب رئيس الموساد الأسبق أفرايم هاليفي مقالًا يفضح فيه سلطة رام الله، فقال: «سفير السلطة الفلسطينية إلى مؤسسات الأمم المتحدة في جنيف قال عن تقرير جولدستون: إن الشعب الفلسطيني لن يغفر لمجلس الأمم المتحدة لحقوق الإنسان إذا سمح بهذه الجرائم أن تفر من العقاب.

من هم الأشخاص الذين يصفهم ممثل رئيس السلطة أبو مازن بالمجرمين؟ أولًا وقبل

---

(١) صالح النعامي، وثيقة إسرائيلية: السلطة قاتلت إلى جانبنا خلال حرب غزة، موقع الصحفي صالح النعامي، ١٣/٥/٢٠٠٩.

(٢) عكيفا الدار، كيف نهزم حماس ؟، هاآرتس، ١٤/١/٢٠٠٩.

كل شيء وزير الدفاع إيهود باراك الذي قاد الحكومة السابقة لاتخاذ القرار بشن حملة رصاص مصهور، رئيس الأركان أشكنازي الذي قاد الحملة، ورئيس الشاباك يوفال ديسكين الذي لعب دورًا أساسيًّا في ضمان نتائج الحملة. إذن، من هم الأشخاص الذين بفضلهم ينجح أبو مازن في البقاء في مقر حكمه في المقاطعة ؟:

● أولًا وقبل كل شيء، وزير الدفاع إيهود باراك الذي يحث بثبات خطوات التعاون مع السلطة الفلسطينية، ويدفع الحكومة إلى الشروع في مفاوضات على التسويات الدائمة مع هذا الشريك الإستراتيجي.

● رئيس الأركان الذي يقود الوحدات المختارة من الجيش الإسرائيلي التي تواصل الليل بالنهار للقضاء على أعداء «أبو مازن» في الضفة الغربية.

● ويوفال ديسكين الذي يعمق التعاون مع محافل الأمن الفلسطينية الذي ينفذ تعليمات القيادة السياسية بتوفير حراسة زرقاء بيضاء لـ «أبو مازن»، والتي تعني تعريض حياة إسرائيليين للخطر لغرض حماية رئيس السلطة الفلسطينية[1].

* * *

(١) أفرايم هاليفي، اللعبة المزدوجة لأبي مازن، يديعوت، ١/ ١٠/ ٢٠٠٩.

الفصل الرابع

خيار السلام الزائف

إسرائيل لم تعرف في يوم من الأيام إلا لغة واحدة هي لغة القوة. كما أن مروجي السلام في السلطة الفلسطينية هم في واقع الأمر إما متواطئون مع الاحتلال، أو لاهثون وراء مصالحهم الشخصية على حساب دماء وجراحات وعذابات الشعب الفلسطيني:

دولة واحدة وسجنان

إن ادعاء إسرائيل أنها تريد السلام وسعي البعض وراء هذا السراب، والدخول في مفاوضات عبثية تحت مسميات مختلفة، هو وهم كبير، وتضييع للقضية، ولعب بمصير الشعب الفلسطيني والقدس الشريف. فخيار الدولتين لم يعد قائمًا بل المطروح هو دولة إسرائيلية يهودية بجوارها سجنان عربيان في الضفة الغربية وقطاع غزة، يعترف بهذه الحقيقة الكاتب الإسرائيلي كوبي نيف، فيقول: «خيار الدولتين واحدة يهودية والثانية عربية فلسطينية تعيشان جنبًا إلى جنب في سلام لم يعد قائمًا، ولا حتى في الحلم. الدولة الفلسطينية المستقلة التي نريدها أو يمكننا أن نعرضها على الفلسطينيين ليست دولة، بل هزلية دولة.

بين دولة إسرائيل الكبيرة والقوية ومزحة فلسطين مبتورة وضعيفة برعاية إسرائيل لن يقوم ولن يكون سلام أبدًا، بل فقط حرب إلى أبد الآبدين، أو حتى شطب أحد الطرفين.

خيار الدولتين معناه العملي هو دولة واحدة لليهود ـ وبشكل مؤقت أيضًا للعرب

الإسرائيليين وسجنان كبيران للفلسطينيين: سجن مغلق جدًّا في قطاع غزة، وسجن مفتوح في يهودا والسامرة. هكذا تتجسد عمليًا رؤيا الدولتين، ولا يوجد أي سبيل آخر يمكنها أن تتجسد فيه في الواقع القائم، إلا عبر واقع دولة واحدة وسجنين»[1].

السلام غير مجزٍ: لوبي إسرائيلي ضد السلام

تقول عميرة هاس: «يبدو أن حكومات إسرائيل جميعها قد عرفت منذ ١٩٩٣ لماذا لا ينبغي المسارعة إلى تحقيق السلام مع الفلسطينيين. فهمت الحكومات أن السلام ينطوي على مس شديد بالمصالح الوطنية:

مس بالاقتصاد

الصناعة الأمنية فرع هام للتصدير الإسرائيلي. السلاح والذخيرة والتطويرات التي تُستخدم كل يوم في ميدان التجارب البيتي: غزة والضفة. مسيرة أوسلو ـ والمفاوضات التي لا ترمي إلى الانتهاء ـ سمحت لإسرائيل بالتنكر من مكانتها كقوة احتلال ـ ملتزمة برفاه السكان المحتلين ـ والتعاطي مع المناطق الفلسطينية ككيان مستقل. بمعنى، استخدام أنواع السلاح والذخيرة والقوة التي لم يكن بوسع إسرائيل أن تستخدمها ضدهم بعد عام ١٩٦٧. الحفاظ على المستوطنات يفترض التطوير الدائم لوسائل الأمن، والتي هي خبز الاستهلاك الأمني المتعاظم في العالم الأول: البنوك والشركات والأحياء الراقية إلى جانب ضواحي الفقر والجيوب العرقية التي ينبغي قمع تمردها.

الإبداعية الجماعية الإسرائيلية في المجال الأمني تأتي من الاحتكاك الدائم لمعظم الإسرائيليين مع السكان المعرَّفين كمعادين. حالة القتال على نار هادئة التي ترتفع أحيانًا تُحدث لقاءً بين عناصر إسرائيلية مختلفة: رامبو محلي مع عبقري حواسيب، وذو يد من ذهب ومخترعون. في حالة السلام ستقل فرص لقائهم.

المس بالحياة المهنية الخاصة

صيانة الاحتلال وعدم السلام تُشغّل مئات آلاف الإسرائيليين: نحو ٧٠ ألف نسمة يعملون في الصناعة الأمنية. كل سنة عشرات الآلاف ينهون الخدمة العسكرية، وهم

---

(١) كوبي نيف، دولة واحدة وسجنان،معاريف، ٩/ ٢/ ٢٠٠٩.

حاصلون على الخبرات الخاصة أو المهنة المطلوبة المضافة. بالنسبة للآلاف تصبح هذه هي المهنة الأساس: العسكرية الدائمة، سلك المخابرات، المستشارون في الخارج، المحاربون المرتزقة، تجار السلاح. وبالتالي، فإن السلام يعرض للخطر هذه الحياة المهنية والمستقبل المهني لشريحة إسرائيلية هامة ومعتبرة لها تأثير كبير على الحكومات.

المس بجودة الحياة

اتفاق السلام يفترض توزيعًا متساويًا لمصادر المياه في البلاد بأسرها ـ من النهر حتى البحر ـ بين اليهود والفلسطينيين، وذلك دون صلة بتحلية مياه البحر وتقنيات التوفير. ومنذ الآن، من الصعب على الإسرائيليين أن يعتادوا على الانضباط في استخدام المياه. من غير الصعب التخمين لمدى الصدمة التي سيحدثها للإسرائيليين التقليص في استهلاك المياه كثمرة للتوزيع المتساوي.

المس بالرفاه

المستوطنات المزدهرة ـ بالتوازي مع تقليص دولة الرفاه ـ تعرض على الناس من الحاضرة اليهودية ما لا يسمح به راتبهم الحصول عليه في نطاق دولة إسرائيل السيادية في حدود ٤ يونيو (حزيران): أرض زهيدة الثمن، ومنطقة واسعة من الشقق، وامتيازات ودعم حكومي، ومجال واسع، وبنية تحتية من الطرقات الفائقة، وجهاز تعليمي مدعوم.

كما أن السلام سيُخفض ـ إن لم يُخفِ ـ مفعول الذريعة الأمنية للتمييز ضد مواطني إسرائيل من عرب ٤٨ والقدس الشرقية. من اعتاد على العيش كصاحب حقوق زائدة في نظام يقوم على أساس التمييز العرقي، يرى في إلغائه تهديدًا لرفاهيته»[١].

المفاوضات الوهمية

تقول الكاتبة الإسرائيلية عميرة هاس: «ممثلو منظمة تحرير فلسطين والسلطة الأبديون: محمود عباس وأحمد قريع وصائب عريقات، يواصلون رغم المعارضة الداخلية المشاركة في هذه المفاوضات الوهمية. اللجنة المركزية لحركة فتح نشرت في ختام جلسة مع محمود

---

(١) عميرة هاس، السلام غير مجزٍ، هاآرتس، ٢٠٠٩/٥/١١.

عباس، تحذيرًا من تدمير المحادثات بسبب البناء في المستوطنات. ربما كان هذا تحذيرًا من أجل الاستهلاك الداخلي فقط. في إسرائيل، تعاملوا مع التحذير بعدم اهتمام لاعتقادهم أن مشاركة القادة الفلسطينيين في المفاوضات الوهمية هي الأمر الحاسم. أما بالنسبة للجمهور الفلسطيني، فقد أُعتبرت هذه التحذيرات فارغة خاوية.

ليست هناك طريقة للتنبؤ بكيفية تفسير الجمهور الفلسطيني لهذه التحذيرات في هذه الجولة، وهل سيعتبرها تلميحًا وإشارة لحقه بالعودة للانفجار غضبًا بسبب استمرار عملية استلابه وتجريده من أرضه ومستقبله»[1].

تفاوض من أجل التفاوض

إن ما تسعى إليه سلطة أوسلو هو مزيد من المفاوضات وتبادل الصور، حتى صار الجلوس مع الإسرائيليين هو شغلها الشاغل. أما متى يتحقق هذا السلام؟ وما هو الثمن المدفوع فيه؟ وما مدى إمكانية تحقيقه؟ وما هي الحقائق التي تفرضها إسرائيل على الأرض اليوم في ظل هذه المفاوضات؟ فهي أسئلة بلا جواب. فالسلام باعتراف بارك نفسه «لن يتحقق قبل عام ٢٠٢٥ حسب تصور وزير الخارجية ليبرمان، أو عام ٢٠٢٨ حسب رأيه هو»[2].

نحن الآن في ٢٠٠٩، أي أن بيننا وبين حلم السلام الموعود طبقًا لرؤية ليبرمان ستة عشر عامًا، وحسب رؤية باراك تسعة عشر عامًا. فكم سيتبقى من الأراضي الفلسطينية في ذلك التاريخ خاصة إذا علمنا أن الاستيطان في الضفة والقدس ينمو بمعدل ٥,٥٪ سنويًا طبقًا لما أورده مكتب تنسيق الشئون الإنسانية[3]، أي بمتوالية عددية بسيطة سيتضاعف الاستيطان في الضفة الغربية في أقل من عقدين من الزمان.

التقارير الدولية تفضح تيار أوسلو

هذه المفاوضات الوهمية تقدم ستارًا فلسطينيًا لما تقوم به إسرائيل من تكريس للاحتلال،

---

(١) عميرة هاس، حق الانفجار غضبًا، هاآرتس، ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٧.

(٢) ناحوم برنياع وشمعون شيفر، مقابلة مع وزير الدفاع إيهود باراك، يديعوت، ١٨/ ٩/ ٢٠٠٩.

(٣) مكتب تنسيق الشئون الإنسانية، تفتيت الضفة الغربية، عرض تقديمي، الشريحة الخامسة، أغسطس (آب)، ٢٠٠٧.

وعزل للقدس، وتهويد للمدينة المقدسة، وقضم للمزيد من الأراضي الفلسطينية، وتكريس لسياسة الأمر الواقع. إن ما يحدث في القدس والضفة اليوم هو نكبة جديدة بكل المقاييس:

نداء وكالة غوث وتشغيل اللاجئين «الأونروا»

أصدرت «الأونروا» نداءً طارئًا عام ٢٠٠٩ يتحدث عن أوضاع الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع. هذا النداء هو شهادة دولية لا يمكن التشكيك فيها، شهادة تفضح الاحتلال والسائرين في ركابه تحت مسمى المفاوضات، وتبين فشل خيار السلام الذي ساءت فيه الأوضاع على الأرض بشدة، يقول نداء الأونروا: «الفلسطينيون في الضفة الغربية لا يزالون يواجهون قيودًا شديدة على الحركة، عدد الحواجز في تزايد مستمر، تسارع توسيع المستوطنات والبنية التحتية المرتبطة بها، واستمرار بناء الجدار الذي ينتهك القانون الدولي:

- ما مجموعه ٤٠٪ من الضفة الغربية استولت عليها البنية التحتية الإسرائيلية، وحُرم منها الفلسطينيون تمامًا.
- التجمعات والمناطق الفلسطينية تم تجزئتها وعزلها. الانتقال من وإلى وبين المراكز السكانية الرئيسية بما فيها القدس الشرقية بات أكثر صعوبة.
- نقاط التفتيش زادت من ٥٦٩ في بداية ٢٠٠٨ إلى ٦٣٠ في سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٨، هذا عدا نقاط التفتيش العشوائية أو الطيارة التي يقدر عددها بثمانين نقطة تفتيش في الأسبوع.
- وعلى الرغم من تجديد الالتزامات في مؤتمر أنابوليس بتجميد الاستيطان، وتفكيك المستوطنات التي بُنيت منذ ٢٠٠١، فلقد تسارع بناء الوحدات السكنية في الاثني عشر شهرًا الماضية. وطبقًا لمكتب الإحصاء المركزي الإسرائيلي، فإنه يتوقع لمعدلات النمو السكاني في المستوطنات أن تكون ثلاثة أضعاف أعلى من إسرائيل»[١].

هذا غيض من فيض من التقرير المكون من ثمان وثلاثين صفحة، كل صفحة منه هي إدانة للاحتلال، وإدانة لخيار السلام، وصفعة على وجوهنا جميعًا إن لم تتحرك الأمة تحركًا فعالًا لدعم خيار المقاومة باعتباره السبيل الوحيد لردع الاحتلال ووقف مخططاته.

---

(١) الأونروا، النداء الطارئ لعام ٢٠٠٩، ص ٨.

اللجنة الدولية للصليب الأحمر

أصدرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر تقريرًا يحمل عنوانًا مؤلـمًـا «نكران الكرامة في الأراضي الفلسطينية المحتلة»، ختمه بهذه العبارات المؤلمة: «تداس كرامة الفلسطينيين بالأقدام يومًا بعد يوم في الضفة الغربية وغزة. وتنطوي الإجراءات الأمنية الصارمة التي تفرضها إسرائيل على تكاليف إنسانية باهظة، فهي تترك للذين يعيشون تحت الاحتلال ما يكفي للبقاء على قيد الحياة، ولكن ليس ما فيه الكفاية للحياة حياة عادية كريمة»[1].

مكتب تنسيق الشئون الإنسانية التابع للأمم المتحدة

يكشف تقرير مكتب تنسيق الشئون الإنسانية بالأراضي الفلسطينية المحتلة عن حجم النكبة التي تجري على الأرض في القدس والضفة الغربية. ففي تقرير للمكتب عن بيت لحم: «تتألف محافظة بيت لحم مما يقارب ٦٦٠ كيلومترًا مربعًا. وبعد أربعة عقود من الاحتلال الإسرائيلي، فقط نسبة تقارب ١٣٪ من أراضي محافظة بيت لحم هي في متناول يد الفلسطينيين وجزء كبير منها مقطع الأوصال. بالإضافة إلى ذلك، حدث تقليص شديد في إمكانية الوصول إلى القدس الشرقية.

وفقًا لاتفاقات أوسلو، تم ترسيم الضفة الغربية لثلاث مناطق إدارية: أ، ب، ج. ما يقارب ٦٦ ٪ من محافظة بيت لحم مخصصة كمنطقة ج، حيث تحتفظ إسرائيل بالسيطرة الأمنية والسلطة على التخطيط والبناء. وإلى اليوم، نادرًا ما تمنح تصاريح للبناء الفلسطيني. تشمل المنطقة ج قطعًا واسعة من الأراضي شرقي محافظة بيت لحم، والتي تم تخصيصها كمناطق عسكرية، ومناطق لإطلاق النار، ومحميات طبيعية يُحظر ويُقيَد دخول الفلسطينيين إليها أو استخدامها. تحد هذه القيود الإدارية على نحو كبير من التوسع السكاني والصناعي نحو الشرق والجنوب الشرقي. بالإضافة إلى ذلك، فإن معظم العقبات التي يضعها الجيش الإسرائيلي أمام الحركة الفلسطينية، مثل الحواجز والسواتر الترابية وغيرها، تقع أيضًا في المنطقة ج»[2].

---

(١) اللجنة الدولية للصليب الأحمر، نكران الكرامة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٧، ص ٨.

(٢) مكتب تنسيق الشئون الإنسانية OCHA، الحيز الآخذ بالانكماش في محافظة بيت لحم، مايو (آيار) ٢٠٠٩، موقع مكتب تنسيق الشئون الإنسانية، ص ٤.

أما القدس الشريف، ففي تقرير آخر للمكتب عن القدس الشرقية، نجد أن نفس نسبة الـ ١٣٪ المخصصة للفلسطينيين في بيت لحم، هي نفسها المخصصة لفلسطينيي القدس الشرقية. فمن بين ٧٠,٥ كم مربع هي مساحة القدس الشرقية لا يوجد منها إلا ٩,٢ كم مربع فقط مخصصة للإعمار الفلسطيني مع العلم أن جزءًا كبيرًا من هذه المساحة مكتظ أصلًا، وحتى في هذه المناطق يواجه الفلسطينيون صعوبات من شأنها أن تحول دون إمكانية الحصول على رخص البناء اللازمة[1].

* * *

(١) مكتب تنسيق الشئون الإنسانية OCHA، أزمة التخطيط في القدس الشرقية، أبريل (نيسان) ٢٠٠٩، موقع مكتب تنسيق الشئون الإنسانية، ص ٨.

الفصل الخامس

كيف فاقمت أمريكا معاناة الفلسطينيين؟

تحت هذا العنوان، أعد كل من نورمان أولسن[1] وابنه ماثيو أولسن[2] مقالًا مهمًّا، يكشفان فيه حقيقة ما جرى في غزة، والحصار الجائر، وحقيقة الفلتان الأمني الذي أدى إلى الحسم العسكري في غزة، والدور الأمريكي القذر ودور سلطة أوسلو في صنع مأساة غزة واستمرارها. قال الكاتبان: «يتعلم مليون ونصف المليون فلسطيني اليوم وبطريقة صعبة جدًّا أن الديمقراطية ليست بالأمر الطيب إذا ما اخترت التصويت للمرشح الخطأ. فقد قاموا في عام ٢٠٠٦ بانتخاب حماس في حين كانت الولايات المتحدة وإسرائيل تريدان منهم إعلان التأييد لفتح التي تعتبرانها معتدلة. وكان من نتيجة ذلك أن يتحمل الغزيون ثلاث سنوات من الحصار، والنقص الحاد في الغذاء والحاجات الأساسية، والانهيار الاقتصادي التام.

أفكار الوزيرة رايس[3]

حماس لم تطالب قط بالانتخابات التي جاءت بها إلى السلطة. فتلك الانتخابات كانت

---

(١) عمل ٢٦ عامًا في خدمة الخارجية الأمريكية بما في ذلك ٤ سنوات في قطاع غزة، و٤ سنوات كمستشار للشئون السياسية في السفارة الأمريكية لدى تل أبيب.

(٢) مدير منظمة إكسبلورر كوربس غير الحكومية، وهي منظمة وليدة توظف التعليم في المحيط الخارجي وبرامج الشباب لتسهيل تحقيق السلام بين الشباب، إضافة إلى قيامها بعدد من المشاريع في قطاع غزة.

(٣) العناوين الفرعية في هذا الفصل ليست في المقال الأصلي، وإنما قمت بوضعها لإبراز الأفكار الواردة في هذا المقال المهم.

من بنات أفكار الوزيرة رايس وموظفيها الذين قرروا على ما يبدو أن بوسعهم سوق الفلسطينيين إلى تأييد محمود عباس الأكثر اعتدالاً وحركة فتح التي يرأسها من خلال حملة تسويقية أرادوها أن تقف بوجه شعبية حماس المتصاعدة، في وقت كانت رايس وطاقمها يتجاهلان فيه بناء المستوطنات الإسرائيلية وعمليات مصادرة الأراضي، وتحويل الضفة الغربية إلى كانتونات منعزلة.

أمريكا تمول فتح

ساهم موظفو وزارة الخارجية الأمريكية في تمويل حملة فتح الانتخابية وتنظيمها. وكان لهم صوتهم حتى في اختيار لون الستارة وراء المنصة التي كان من المقرر لعباس أن يعلن منها الفوز في الانتخابات. وقد شرح مستشار يعمل لحساب وكالة التنمية الدولية الأمريكية لجمهور من الموظفين غير المصدقين لما يسمعونه في السفارة الأمريكية في تل أبيب بأنه سوف يمول ويدير جوانب من الحملة من دون أن يترك أية بصمة إصبع أمريكية.

خطة القضاء على حماس

في تلك الأثناء كانت الفرق التابعة للوكالة المذكورة تجتهد في تنفيذ مشاريع يمكن أن يدعي عباس الفضل في تنفيذها. وما أن يتم ترسيخ فتح من خلال هذا البرنامج السياسي السري، حتى تقوم المليشيا التي تبنيها واشنطن لأمير الحرب محمد دحلان بالقضاء على حماس عسكريًا.

دعم الحصار الإسرائيلي

لم يكن لثقة الأمريكيين حدود. لكن الفلسطينيين لم يبتلعوا الطعم. ويقال إن الوزيرة رايس فقدت صوابها عندما سمعت بخبر فوز حماس. لكن ذلك لم يمنعها من الشروع في الرد السريع. فقد أصرت على الفور على أن تقوم الرباعية ـ التي تضم الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة وروسيا ـ بحظر كل أنواع العلاقات مع حماس ودعم الحصار الاقتصادي الذي تفرضه إسرائيل على غزة.

مليشيات دحلان الأمريكية

في الوقت نفسه، وسع الفريق العسكري الأمريكي جهوده لبناء الميليشيا التي يقودها دحلان. واعتبر الرئيس بوش أن دحلان هو رجلنا. لكن أزلام دحلان تحركوا قبل الأوان، فراحوا يطوفون في غزة مطالبين بالإتاوات من أصحاب المصالح والأفراد، وأقاموا حواجز التفتيش لتحصيل الرشا، وأرهبوا معارضي دحلان داخل تنظيمات فتح، وهاجموا أفراد حماس. أخيرًا، وفي منتصف عام ٢٠٠٧، وبمواجهة الفوضى المتزايدة والوجود المحسوس للمُليشيا المدعومة أمريكيًّا، قامت حماس بتسديد الضربة الأولى واستأصلت العصابات الفتحاوية، وأمنتّ السيطرة على كامل قطاع غزة، وأقامت نظامًا مدنيًّا.

دعم سياسة العقاب الجماعي

بعد خيبة مساعيها، عمدت الولايات المتحدة على ما يزيد على العام إلى تقديم الدعم الصارم للحصار الإسرائيلي المفروض على غزة، وسياسة العقاب الجماعي التي يخضع لها سكانها البالغ تعدادهم مليونًا ونصف المليون نسمة.

شهدت فترة التهدئة الأخيرة التي استمرت ستة أشهر توقفًا شبه تام لإطلاق الصواريخ على إسرائيل وهدوءًا على طول الحدود، لكن الحصار الاقتصادي ازداد ضراوة.

انهار اقتصاد غزة خصوصًا وأن السكان الذين شُردوا منذ عقود من منازلهم ومزارعهم يعتمدون بشكل متزايد على المساعدات الغذائية التي يحصلون عليها من حماس والأمم المتحدة. وتعبر الولايات المتحدة عن صدمتها نتيجة لجوء الغزيّين إلى استخدام أنفاق التهريب للبقاء على قيد الحياة بدلًا من تقبلهم السلبي للمعاناة التي يفرضها عليهم الحصار، فماذا ترانا نتوقع من الأمريكيين لو أنهم وُضعوا في ظروف مشابهة؟!

فشل المخططات الأمريكية الذكية

لم يتمكن فلسطينيونا الطيبون المدعومون أمريكيًّا من التغلب على الفلسطينيين السيئين تمامًا كما لم يتمكن عملاء واشنطن اللبنانيون من التغلب على حزب الله رغم الموت والمعاناة التي جلبتها الحرب مع إسرائيل عام ٢٠٠٦.

وها هو عباس يجلس عديم النفع في رام الله، ويواصل الإسرائيليون بناء المستوطنات وإلقاء اللوم على إيران، ونحن نزداد بُعدًا عن السلام.

لن يكون للمخططات الأمريكية الذكية - كما أثبتت التجربة على مدى عقود - أن تكيف الفلسطينيين لرغبات أمريكا وإسرائيل. ولحين البدء في الحديث عن القضايا الحقيقية، سيظل الفلسطينيون والإسرائيليون في الأقبية»[1].

* * *

---

(١) نورمان أولسن، كيف فاقمت أمريكا معاناة الفلسطينيين، كريستيان ساينس مونيتور، ترجمة أمل الشرقي، جريدة العرب اليوم، ٢٣/ ١/ ٢٠٠٩. ونشرته أيضًا جريدة الوطن القطرية بتاريخ ١٥/ ١/ ٢٠٠٩ تحت عنوان: معاقبة الشعب الفلسطيني بسبب خياره الديمقراطي.

الفصل السادس

هل المقاومة هي سبب معاناة الشعب الفلسطيني؟

للأسف الشديد، دأبت بعض الأبواق الإعلامية العربية وبعض الساسة والزعماء العرب على اتهام المقاومة بأنها السبب في استفزاز هذا العدو المجرم، وإيقاد نار حرب اكتوى بها المدنيون في قطاع غزة، بدون أن تكون لديها القدرة على التصدي لهذا العدو.

هذه الفرية ما كان ينبغي لها أن تثار في وقت تنهمر فيه على الفلسطينيين أمطار النار، وتصليهم إسرائيل بكل ما هو جديد وفتاك في ترسانة الولايات المتحدة الأمريكية. ومع ذلك، فإليهم الرد من المفوضين الدوليين، ومن الصحافة الإسرائيلية ذاتها:

شهادة ريتشارد فالك

هذه الشهادة شهادة دولية غير منحازة على الأقل للشعب الفلسطيني، فصاحبها يهودي الديانة أمريكي الجنسية. يقول الرجل:

- «فيما يتعلق بحماية المجتمع الإسرائيلي من الصواريخ الفلسطينية، فإن الهدنة التي بدأت في ١٩ يونيو ٢٠٠٨ كانت أداة فعالة لتحقيق هذا الهدف. لقد كان معدل إطلاق الصواريخ وقذائف الهاون تقريبًا صفرًا، واستمر طيلة أربعة أشهر كاملة تقريبًا»[١].

---

(١) ريتشارد فالك، وضع حقوق الإنسان في فلسطين والمناطق العربية المحتلة الأخرى، الأمم المتحدة، الجمعية العامة، مجلس حقوق الإنسان، الدورة العاشرة، ١١/ ٢/ ٢٠٠٩، ص ٩.

• «بدراسة الفترة بين ٢٠٠٠ و٢٠٠٨، نجد أن ٧٩٪ من حوادث العنف التفاعلي كانت إسرائيل هي التي تخرق فترات الهدوء. وكان إلغاء التهدئة ردًّا على العنف الإسرائيلي»[١].

• «انهيار الهدنة يتبع سلسلة من الحوادث. في ٤ نوفمبر (تشرين الثاني) قتلت، إسرائيل فلسطينيًّا في غزة. مدافع هاون أُطلقت من غزة للانتقام. وبعد ذلك، شُنت غارة جوية إسرائيلية قُتل فيها ستة فلسطينيين آخرين في غزة. بعبارة أخرى، فإن انهيار وقف إطلاق النار يبدو أنه قد تم أساسًا نتيجة للانتهاكات الإسرائيلية»[٢].

ويخلص فالك في تقريره إلى النتائج الهامة التالية التي تعد في ذاتها ردًّا وافيًا مفحمًا على من يلقون التهم جزافًا:

• «الهدنة المؤقتة كانت ناجحة في وقف العنف المتبادل والخسائر في الجانبين.

• الفلسطينيون التزموا بها مع استثناءات قليلة كانت تقريبا رد فعل للعنف الآخر؛ بينما فشلت إسرائيل في الوفاء بالتزاماتها بفك الحصار.

• قادة حماس يبدون جاهزين للعودة إلى الهدنة المصحوبة بفك الحصار»[٣].

شهادة كارين «أبو زيد»

تقول كارين أبو زيد المفوض العام للأونروا: «لقد شهدت معاناة وحرمان الفلسطينيين من حقوقهم بالجملة على مدى الثماني سنوات الماضية. ولقد شهدت انهيار وظائف الحكم الفلسطيني التي استثمر فيها المجتمع الدولي بقوة منذ عملية أوسلو. في غزة اليوم، فإن مليونًا ونصف المليون فلسطيني من بينهم ٧٥٠ ألف طفل يعيشون في فقر مدقع قسري وعزلة كاملة عن العالم الخارجي في ظروف تسخر من مقومات رئيسية للقانون الدولي»[٤].

غزة في حالة حصار دائم منذ عام ١٩٩١

تقول عميرة هاس: «ما يسمح بالعربدة العسكرية الإسرائيلية ـ والتي الكلمات المناسبة

(١) المصدر السابق، ص:٩.
(٢) المصدر السابق، ص:٩.
(٣) المصدر السابق، ص:١٠.
(٤) كارين أبو زيد، مقدمة نداء الطوارئ لعام ٢٠٠٩، الأونروا، ص ٣.

لوصفها لا توجد في القاموس الذي في يدي ـ هو المسيرة التدريجية لعزل غزة. القطيعة جعلت الغزيين مواضيع مبسطة، عديمي الاسم والعنوان باستثناء عنوان مسلحيهم، عديمي التاريخ باستثناء التواريخ التي يقررها لهم رجال المخابرات الإسرائيليين. فالحصار لم يبدأ عندما سيطرت حماس على أجهزة الأمن في القطاع، ولا عندما أسر جلعاد شاليط، ولا عندما أُنتخبت حماس في انتخابات ديمقراطية. الحصار بدأ في ١٩٩١، قبل العمليات الانتحارية، ومنذئذ تطور فقط حتى ذروته في عام ٢٠٠٥»[١].

إذا كانت المقاومة هي السبب فلماذا تعاني الضفة؟

إذا افترضنا جدلًا أن المقاومة هي سبب معاناة غزة، فلماذا إذن تعيش الضفة الغربية في حال بائسة وظروف إنسانية سيئة؟!، وماذا الذي استطاعت أن تصنعه لهم سلطة عباس اللاهثة وراء سراب السلام، والقامعة للمقاومة، والمانعة لأي فعل مقاوم؟! تقول كارين أبو زيد: «في الضفة الغربية، لا تزال تجزئة الأراضي والمجتمعات الفلسطينية مستمرة؛ مما يخنق الإنتاج الاقتصادي وفرصه في الانتعاش»[٢].

«لقد مر عام على مؤتمر أنابوليس نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٧، والذي أعلنت فيه الحكومة الإسرائيلية ومنظمة تحرير فلسطين عن إبرام اتفاق سلام شامل بحلول نهاية عام ٢٠٠٨، ولكن الأوضاع المعيشية للفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية المحتلة ما زالت في ضائقة شديدة. قطاع غزة يخضع لحصار محكم، والفقر والبطالة عند مستويات لم يسبق لها مثيل، واعتماد آخذ في التعمق على المساعدات. وفي الضفة الغربية، فلقد تم تكثيف نظام الإغلاق الإسرائيلي المعقد»[٣].

ومع غياب المقاومة المسلحة في الضفة نتيجة للحصار الشديد المفروض عليها من قبل سلطة عباس، فلقد ازداد عنف الاحتلال وجرائم مستوطنيه، يقول النداء الطارئ للأونروا:

- «ما بين يناير وأكتوبر ٢٠٠٨، قُتل ٤٣٣ فلسطينيًّا في مواجهات عنيفة مباشرة بين

(١) عميرة هاس، التاريخ لم يبدأ مع القسام، هاآرتس، ١٤/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) كارين أبو زيد، مصدر سابق، ص ٣.
(٣) النداء الطارئ للأونروا ٢٠٠٩، مصدر سابق، ص ٤.

الفلسطينيين والإسرائيليين، بينهم ثمانون طفلًا، مقارنة بـ ٣٠٤ من القتلى الفلسطينيين في الفترة المماثلة من عام ٢٠٠٧. وأصيب ٢٠٠٩ فلسطينيين بينهم ٤٧٨ طفلًا بزيادة ٢٧٪ عن الفترة المماثلة في ٢٠٠٧. ٥٨٪ من المصابين كانوا في الضفة.

• زاد المتوسط الشهري لحوادث عنف المستوطنين من ٢٠ حادثة شهريًّا في ٢٠٠٦ إلى ٢٤ حادثة شهريًّا في ٢٠٠٧ إلى ٣٨ حادثة شهريًّا في ٢٠٠٨. وبنهاية أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٨، سجلت الأونروا حوادث عنف المستوطنين أكثر من أي عام آخر منذ ٢٠٠١.

• هناك نمط متزايد من النزوح الداخلي بسبب بناء الجدار العازل، وتوسيع المستوطنات، وهدم المنازل، وأوامر الإخلاء، وقيود تصاريح البناء. وأكثر المتضررين والمعرضين للخطر في ذلك هم سكان المنطقة ج والقدس الشرقية.

• هناك أوامر هدم لثلاثة آلاف مبنى فلسطيني، وهناك عشرة تجمعات سكانية عرضة للتشريد الكامل. ولقد استمر الهدم في القدس الشرقية على مدار عام ٢٠٠٨»[١].

* * *

(١) المصدر السابق، ص ١١، ١٢.

الفصل السابع

إذا الشعب يومًا أراد الحياة

على الرغم من هذا الوضع المأساوي الذي يعيشه قطاع غزة، إلا أنه يقدم للأمة درسًا في البسالة والصمود، والتمسك بالأرض والثوابت، وتحدي الحصار، والاستهزاء بسياط الجلادين، وصياغة حياة نفتقد نحن إلى الكثير من معانيها وطموحاتها.

هذه هي غزة أرض العزة

تقدم عميرة هاس صورة عن الحياة في غزة تحت الحصار، فتقول: «في غزة إذا لم تنقطع الكهرباء عن أحياء بأكملها، لا يتمكن الماء من الوصول إلى الطوابق العلوية. وتنفد إمدادات الغاز من السوق. إذا كان هناك مولد كهرباء فسرعان ما يتعطل شيء صغير فيه ولا يمكن إصلاحه؛ لأن إسرائيل تحظر إدخال قطع الغيار. إذا استطاعوا جمع المال من أجل شراء مولد مهرب عبر الأنفاق - ثلاثة أضعاف السعر الأصلي - فإن ذلك يكون على حساب دروس الإنجليزية، وزيارة الطبيب.

غزة التي فرغت المخازن فيها، غزة هذه تمتلك القدرة على إطلاق الدُّعابات في كل وضع، والإهانة والذل الذي يصل إلى البكاء. الماء مفقود منذ ثلاثة أو أربعة أيام، ومع ذلك يخرج الأولاد للمدارس نظيفين مرتبين.

غزة هي شارع ناصر الطويل المغلق أمام الحركة منذ أكثر من سنة، والأسفلت العكر

والمطبات المليئة بالرمل؛ لأن إسرائيل حظرت إدخال المواد الخام اللازمة للبناء. السلطات هناك توقفت عن ترميم هذا الشارع المركزي نتيجة لذلك، وهو محور الوصول المركزي لثلاثة مستشفيات تفتقد للتجهيزات الطبية.

غزة هذه هي أيضًا غزة التي يشعر فيها الأهل بالثقة والأمان لترك أولادهم وحدهم في البيت، وللعب بعيدًا عن البيت، أو السفر وحدهم للجدة البعيدة في مخيم جباليا للاجئين عبر الشوارع الموازية لشارع ناصر.

غزة هي أيضًا حرص شرطة «حماس» على إعادة ممتلكات مسروقة لأصحابها حتى من قبل التبليغ عن السرقة.

غزة هي الحالمون بالرحيل منها، وأولئك الذين توجهوا قبل سنوات للدراسة والعمل ويحنون إليها.

غزة هي من لا يستطيعون العودة لعائلاتهم الموجودة فيها حتى إذا نجحوا مرة في إيجاد ثغرة في المعابر التي تغلقها إسرائيل. هم سيبقون مسجونين هنا، وسيكون عليهم أن يتنازلوا عن حرية الحركة وحرية الاختيار تمامًا»[1].

حب عبر الأنفاق

وينقل لنا أولريك بوتز مراسل دير شبيجل الألمانية صورة مأساوية وتراجيديا إنسانية، ولكنها مفعمة بالأمل والحياة، ورسالة في تحدي الاحتلال وأعوان الاحتلال، فيقول: «هو يعيش في قطاع غزة، وهي تعيش في الضفة الغربية. ظهر في بادئ الأمر أن الحصار الإسرائيلي سوف يمنع زواجهما. بعدها قامت ميّ بالمخاطرة بحياتها والزحف خلال نفق تهريب إلى داخل غزة وانضمت إلى محمد، وهما الآن يواجهان معًا مستقبلًا غامضًا.

تلقف محمد عروسَه التي كانت تبدو وكأنها خرجت من قبر مليء بالتراب. لقد قضى ساعة كاملة وهو جالس متوترًا بالقرب من حفرة كبيرة في الأرض في قطاع غزة، بينما كانت ميّ تزحف باتجاه الخلف خلال النفق، مغلقةً عينيها بإحكام بسبب الرمال التي تتناثر من السقف. وقد أدركت ميّ منذ البداية أن هذه العملية الخطيرة قد تكلفها حياتها.

---

(١) عميرة هاس، غزة بؤس من جهة ورو ح دُعابة من جهة أخرى، هاآرتس، ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٨.

كان محمد صادقًا معها عندما أخبرها عن المخاطر التي ستواجهها. هناك المصريون الذين يحاولون قطعَ الأنفاق من خلال رمي القنابل. إضافةً إلى قذائف القوات الإسرائيلية الجوية التي تقصف الحدود المشتركة مع مصر بشكل متقطع. أُضف إلى ذلك خطرَ إمكانية انهيار النفق بكل بساطة. تقول ميّ: «كنت أعرف أنني قد أُدفَن حيةً في أية لحظة». أما محمد، فيقول: «كنتُ مصدومًا، شعرتُ بالسوءِ لأنها مرت بهذه المحنة من أجلي».

كانت الخطبةُ على الإنترنت ذاتَ مساء، حيثُ اجتمعت العشيرة كلها في شقة عائلة محمد المتواضعة في مخيم النصيرات للنازحين في قطاع غزة. كان عشرة من أعضاء العائلة جالسين قُبالةَ أغلى ما يملكون: الكمبيوتر مع كاميرا الويب والذي أبقاهم على تواصل مع أقربائهم في الضفة الغربية. كان محمد ممسكًا بالفأرة متوردَ الوجه، و ظهرت قريبتُه ميّ على الشاشة مُحاطةً بأقاربها. يُمسك الآباء بزمام الحديث: «هل أنتما مُوافقان ؟» سألوا، محمد وميّ، ابتسما لبعضهما خلال الكاميرا، وأوما برأسَيهما، و غمرَ الفرحُ العائلتين.

استقلت ميّ وأمها سيارة أجرة إلى الأردن ثم سافرتا إلى مصر. ثم كان على مي أن تودع أمها على الجانب المصري من الحدود مع غزة. لم تكن مي تعرف إن كان بإمكانها رؤية عائلتها مجددًا. تطلب الأمر من ميّ أن تقطع أربعة أيام وآلاف الكيلومترات لتسافر من الرملة إلى غزة. «بعد خطبتنا خلال الإنترنت، تقدمت بطلب للإسرائيليين خمس مرات، من أجل السماح لي بأن أنضم لميّ في الضفة الغربية، و كان هذا كله دون طائل»، لذا اتفقا أن تأتي ميّ إلى محمد. تقول مي: «توفي أبي قبل أربعة أسابيع من سفري، والآن فقدت أمي ابنتها الوحيدة»[1].

مديرية الأنفاق

«روافع الضغط الاقتصادية التي تمارسها إسرائيل على القطاع من خلال الإغلاق والتقييد لدخول بضائع آخذة في الضعف، وإن الفلسطينيين يجدون اليوم في مصر مصادر بديلة لتوريد الطاقة والبضائع.

من خلال أنابيب بُنيت في الأنفاق تحت محور فيلادلفيا يتدفق السولار إلى قطاع غزة في كل يوم، بحيث إن الفلسطينيين في القطاع لم يعودوا متعلقين بالسولار الإسرائيلي باهظ الثمن، والذي فضله الوحيد في جودة تصفيته.

---

(١) أولريك بوتز، قصة حب من غزة: العروس التي زحفت خلال النفق، دير شبيجل، ٩/ ١٠/ ٢٠٠٩.

منذ بداية التهدئة أخذت سلطات حماس الأمور في أيديها. فقد سيطرت على الأنفاق وأعلنت عن إقامة مديرية الأنفاق، وبدأت تبني أنابيب وناقلات وقود. يبدو أن الضغط الاقتصادي لم يعد يشكل رافعة ناجعة كما يعتقدون في إسرائيل»[1]. كان هذا قبل بناء الجدار الفولاذي على الحدود مع غزة، والله وحده يعلم كيف سيعيش القطاع مع اكتمال هذا الجدار وإحكام الحصار على القطاع الصامد.

* * *

(١) يديعوت، روافع الضغوط الاقتصادية التي تمارسها إسرائيل على قطاع غزة آخذة في الضعف، ٢٠٠٨/١١/٩.

الباب الثالث

شهود على الجريمة

الفصل الأول

أخلاقيات الأنبياء!!

دأبت إسرائيل على تصوير نفسها أمام الرأي العام العالمي في صورة كاذبة متدثرة بثوب أخلاقي زائف، يقول إسحاق ليئور: « في ١٩ يونيو (حزيران) ١٩٧٧، نشرت الصنداي تايمز تحقيقًا صحفيًّا شاملًا عن التعذيب الذي يتعرض له السجناء الفلسطينيون في السجون الإسرائيلية. وجاء في استنتاجات التقرير بأن: تعذيبَ السجناء العرب منتشر ومنهاجي لدرجة أنه لا يمكن اعتباره استثناءً من أفراد من الشرطة. يبدو أنه مقرر كسياسة مقصودة.

النفي الإسرائيلي كان بالطبع باتًّا. وحسب رد سفارتنا في لندن، فإن أخلاقيات الأنبياء لا تسمح بالتعذيب؛ ولهذا فإن هذه الاتهامات داحضة»[1].

دولة عصابات

يقول المؤرخ الإسرائيلي آفي شليم: «الطريق الوحيد لفهم حرب إسرائيلية لا معنى لها في غزة لا يتأتى إلا من خلال فهم السياق التاريخي. تأسيس دولة إسرائيل في مايو (أيار) ١٩٤٨ حمل قدرًا كبيرًا من الظلم والجور للفلسطينيين. في يونيو (حزيران) ١٩٤٨، كتب السّير جون ترويتبيك إلى وزير الخارجية إرنست بيفين: إن الأمريكان هم المسئولون عن قيام دولة عصابات يرأسها وبشكل مطلق مجموعة من القادة عديمي الضمير.

---

(١) إسحاق ليئور، الأكثر أخلاقية في العالم، هاآرتس، ١٤/ ٤/ ٢٠٠٩.

كنت أعتقد بأنَّ هذا الحكم كان قاسيًا جدًّا، لكنّ هجوم إسرائيل الآثم الشرير على سكان غزة، وتواطؤ إدارة بوش في هذا الاعتداء، أعاد فتح السؤال»[1].

دولة مارقة

«العرض المختصر للسجل الإسرائيلي خلال العقود الأربعة الماضية يؤكد لنا نتيجة مفادها أن الدولة أصبحت دولة مارقة يقوم عليها مجموعة من القادة عديمي الضمير. دولة مارقة تنتهك القانون الدولي بشكل اعتيادي، تمتلك أسلحة الدمار الشامل، وتمارس الإرهاب، والعنف ضد المدنيين»[2].

منطق مخادع

تقول ديبورا أور: «جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل السابقة وإحدى مؤسّسات دولة إسرائيل تُعرِّف قتل الأطفال الفلسطينيين من قبل الإسرائيليين على أنه مجرد جريمة يقوم بها العرب ضد الفلسطينيين. نستطيع أن نسامح العرب على قتلهم أطفالنا، ولكننا لا نستطيع أن نسامحهم على جعلنا نقتل أطفالهم!!

جزء آخر يمكن اقتباسه مما قالته مائير: سوف نحصل على السلام مع العرب حينما يحبون أطفالهم أكثر من كرههم لنا»[3].

ابكِ وأطلق النار

«كالمعتاد دومًا، ها هي إسرائيل القوية تدعي أنها ضحية العدوان الغاشم من قبل الفلسطينيين. إلا أن ما نراه بأعيننا من البون الشاسع بين تكافؤ القوتين لا يدع لنا مجالًا للشك بمعرفة وتحديد من هو الضحية الحقيقية.

إن هذا يشبه الصراع بين داود وجالوت في الكتاب المقدس، ولكن بصورة معكوسة.

---

(١) آفي شليم، كيف تسببت إسرائيل في وضع غزة على شفا كارثة إنسانية، الجارديان، ٧/ ١/ ٢٠٠٩، نقلًا عن موقع إسلام ديلي.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ديبورا أور، موت الأطفال والإحساس، الإنديبندنت البريطانية، ١٧/ ١/ ٢٠٠٩.

داود يمثل الفلسطينيين ـ العُزَّل والأضعف والأقل شأنًا في الصراع ـ يواجه الطاغية جالوت المدجج بالسلاح الذي لا يرحم.

إن اللجوء إلى القوة العسكرية الغاشمة مترافقة ـ كما هو الحال دائمًا ـ بحملات دعائية إعلامية كلامية بأننا نحن الضحايا. هذا هو ما نسميه عندنا بالعبرية متلازمة النار، أو بمعنى آخر: ابكِ وأطلقْ النار»[1].

العين بالرمش

«الهجوم الإسرائيلي الوحشي على غزة جنون يقوم على أن العين بالرمش. وبعد ثمانية أيام من القصف ـ ومع أن عدد القتلى يزيد على ٤٠٠ ـ إلا أن المجلس الأمني المصغر طالب باحتلال الأرض؛ مما سيؤدي إلى نتائج كارثية لا تُحصى»[2].

الضغط على المدنيين نظرية قتال حقيقية

«اليوم بات ممكنًا القول إن ممارسة الضغط على سكان مدنيين أصبحت في الجيش الإسرائيلي نظرية قتال حقيقية. وكما هو متبع في جيشنا، يوجد لهذا الأمر وصف في اللغة العسكرية المغسولة سمعتها من مقاتلين شبان: «ترفيع مدني». بمعنى، استخدام المدنيين لممارسة الضغط على الزعماء وعلى رجال المنظمات الفلسطينية العاملة في أوساطهم»[3]. فلقد «زاد في غزة وحدها نسبة القتلى من غير المشاركين الفلسطينيين قياسًا بقتلى الجيش الإسرائيلي من ١:٦ في الانتفاضة الأولى إلى ١:٨٦ في الرصاص المصهور»[4].

قتل الأطفال شريعة يهودية

يقول عكيفا الدار: «تُحول المكاتب الحكومية ـ على نحو دائم ـ دعمًا ومخصصات لمدرسة دينية قال حاخامها: إنه يحل المس بأبناء قائد لمنعه من السلوك الشرير... وجدنا في الشريعة

---

(١) آفي شليم، مصدر سابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ميخائيل سفراد، بفضل المستشار، معاريف، ٣/ ١٠/ ٢٠٠٧.

(٤) يغيل ليفي، ضبط النفس مفتاح تجنب جولدستون آخر، هاآرتس، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٩.

أن أطفال الأغيار الذين لا يخالفون عن الفرائض السبع[1] يوجد تقدير لقتلهم بسبب الخطر الذي سينشأ في المستقبل إذا نشئوا ليصبحوا أشرارًا مثل آبائهم». وزعيمهم الروحي قرر في كتاب «توراة الملك» أنه «لا يحتاج إلى قرار أمة لإباحة دم ملكوت الشر»[2].

خرق الاتفاقيات

«فجوة كبيرة هي تلك التي تفصل ما بين الواقع الفعلي على الأرض وحقيقة أعمال إسرائيل وبين الخطاب الرسمي للناطقين باسمها. حماس لم تكن هي من خرق اتفاق التهدئة، وإنما من قام بذلك هو جيش الدفاع الإسرائيلي. قام بذلك الخرق عندما أوقعت غارة إسرائيلية في الرابع من نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٨ ستة من عناصر حماس وأردتهم قتلى»[3].

* * *

(١) أي من يقل عمرهم عن سبع سنوات.

(٢) عكيفا الدار، حماس ليست وحدها، هاآرتس، ١٧/ ١١/ ٢٠٠٩.

(٣) آفي شليم، مصدر سابق.

الفصل الثاني

حرب غزة: جريمة حرب وحماقة دولة

حرب غزة مشهد جديد لقصة دامية تتوالى فصولها ومشاهدها منذ نكبة فلسطين وحتى اليوم، ولكنها كما يقول الكاتب الإسرائيلي زئيف شترنهيل: «هذه الحرب ستُسجل باعتبارها أكثر الحروب قسوة ووحشية بين الحروب التي شهدناها»[1].

أزعر الحارة يضرب مرة أخرى

«ما بدأ في غزة هو جريمة حرب وحماقة دولة. حكومة خرجت بعد شهرين من إقامتها بحرب عدمية فظيعة[*]، تخرج إلى حرب بائسة أخرى قبل شهرين من انتهاء ولايتها. وبين هذا وذاك، كان إيهود أولمرت يطلق من حنجرته شعارات السلام عاليًا، وقال أكثر الكلمات جرأة في تاريخ إسرائيل، وإلى جانبه وزير جيشه إيهود باراك قائد حزب اليسار المزعوم في منصب الشريك الرئيسي في الجريمة»[2].

(*) حرب لبنان ٢٠٠٦.

(١) زئيف شترنهيل، انتصار ؟ الأمر يعتمد على النتائج السياسية، هاآرتس، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) جدعون ليفي، أزعر الحارة يضرب مرة أخرى، هاآرتس، ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٨.

المدونة الأخلاقية للجيش الإسرائيلي !!

«لفهم سر سلوك الجيش الإسرائيلي في الحملة الأخيرة في غزة ينبغي أن نقرأ مقالة آسا كيشر وعاموس يدلين في عام ٢٠٠٥: «القتل المتعمد والقتل الوقائي». كيشر هو بروفيسور في فلسفة الأخلاق والممارسة في جامعة تل أبيب، ومستشار أكاديمي للجيش الإسرائيلي، وواضع مدونته الأخلاقية. اللواء عاموس يدلين هو رئيس شعبة الاستخبارات، وقائد الكليات العسكرية سابقًا. ويمكن تلخيصها بالقول بأن أمن جنود «نا» أسبق على أمن مواطني «هم». هذه الحجة مغلوطة وخطيرة وتقوض التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين، الذي هو تمييز بنيوي وتأسيسي لنظرية الحرب العادلة، ولا سيما للسلوك المناسب في الحرب»[1].

أكثر الحروب وحشية في تاريخ إسرائيل

هذه المدونة الأخلاقية ـ على الرغم من مجافاتها للأخلاق تمامًا ـ طورها قادة العدو ومقاتلوه في حرب غزة إلى ما هو أسوأ. يتحدث جدعون ليفي عن مجرم الحرب الصهيوني يوآف جلينت قائد حرب غزة، فيقول: جلينت كان قائدًا عسكريًا لأكثر الحروب وحشية في تاريخ إسرائيل. من الأجدر التمعن في التقرير الانتقادي الذي نشرته بالأمس منظمة «يكسرون الصمت». أربع وخمسون شهادة من مقاتلين يجب أن تكون كتابًا أسود لتلك الحرب التي ترفرف فوقها راية أسود من السواد.

وفقًا لشهادة عدد من المقاتلين: «من الأفضل المس بالأبرياء على أن نتردد في المس بالعدو. إن لم تكن متيقنًا فلتقتل. في الحرب التي تجري في المناطق العمرانية يُعتبر الجميع هناك أعداء. ليس هناك أبرياء... شدة النار وقوتها كانت غير منطقية».

[لينت أشرف على هذه الحرب التي بثت في الجيش الإسرائيلي روحًا شريرة فاسدة تقول: إن من المسموح لنا أن نفعل كل ما نريده، وأن نلقي بآلاف القنابل والصواريخ والفسفور الأبيض من أجل قتل عائلات بأكملها وبث الدمار، وأن نُعتبر بعد ذلك ناجحين. حرب التدمير باسم التدمير الذي أقدم عليه الجنود. قائد المنطقة خاصتنا هو بطل على الضعفاء»[2].

---

(١) أفيشاي مرجليت ومايكل فليتسر، ليس هكذا تدار الحروب العادلة، هاآرتس، ٨/ ٤/ ٢٠٠٩.
(٢) جدعون ليفي، بطل إسرائيل، هاآرتس، ١٦/ ٧/ ٢٠٠٩.

اعترافات إسرائيلية بارتكاب جرائم حرب

«في الأصل، حملة على نمط الرصاص المصهور ترمي إلى إعادة غزة إلى القرون الوسطى»[1]. هذا الهدف تؤيده الكثير من الشهادات والاعترافات الصهيونية التي تدل على كم ونوعية الجرائم التي ارتكبتها إسرائيل في حرب الرصاص المصهور، نذكر منها ما يلي:

شطب البيوت

«الجيش الإسرائيلي نزل على غزة بقوة لا تُعقل. كل بيت أُطلقت منه النار شُطب، وأحيانًا أيضًا البيوت التي إلى جانبه. قذائف كبيرة أصابت مناطق شاملة. جرافات دي ٩ حرثت مسارات تقدم واسعة، نظفت مناطق كاملة. والمقاتلون ثقبوا فتحات في الجدران الداخلية للبيوت وتقدموا هكذا، من بيت إلى بيت على نمط مخيمات اللاجئين في جنين»[2].

هذا الهدم لا يمكن تبريره قانونيًا، يقول عاموس هرئيل: « التحقيقات الميدانية التي يجريها الجيش الإسرائيلي عن نتائج حملة «رصاص مصهور» في قطاع غزة تشير إلى مشكلة جسيمة بالنسبة للقدرة على تبرير هدم منازل فلسطينية عديدة في أثناء الحملة. وقالت مصادر عسكرية إنه أسهل على الجيش الإسرائيلي بالذات أن يشرح حوادث قُتل فيها مدنيون من شرح هدم المنازل»[3].

تعليمات سخية بفتح النار

تحت عنوان شهادات قاسية لضباط وجنود، كتب عاموس هرئيل يقول: «تعليمات سخية بفتح النار، قتل مدنيين فلسطينيين، تدمير مقصود لأملاكهم - هذه صورة وضع حملة رصاص مصهور في قطاع غزة كما يُفهم من الشهادات الأولى لضباط وجنود شاركوا

(١) أليكس فيشمان، إعادة غزة إلى القرون الوسطى، يديعوت، ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٢) بن كاسبيت، صورة نصر، معاريف، ١٥/ ١/ ٢٠٠٩.

(٣) عاموس هرئيل، محققون ميدانيون: لا تبرير قانونيًا للهدم الكبير للمنازل في حملة رصاص مصهور، هاآرتس، ١٥/ ٢/ ٢٠٠٩.

في القتال. شهاداتهم من الميدان تبتعد مسافة كبيرة عن مزاعم الجيش الإسرائيلي أن القوات حرصت في كل الجبهات على أخلاق قتالية عالية في الحملة»[1].

وينقل هرئيل بعض هذه الشهادات لجنود وضباط شاركوا في حرب غزة لنعرف حجم جرائم الحرب الإسرائيلية، وحقيقة المدونة الأخلاقية للجيش الإسرائيلي:

- «حياة الفلسطينيين هي أقل أهمية بكثير جدًّا من حياة جنودنا.
- ما هو جميل في غزة، أن ترى شخصًا يمر على الدرب. لا يجب أن يكون معه سلاح. أنت يمكنك ببساطة أن تطلق عليه النار !!
- ما شعرت به هو الكثير من العطش للدم !!
- نحن ينبغي لنا أن نقتل كل شخص يوجد هناك، كل شخص يوجد هناك هو مخرب، وإرهابي.
- من المحبط حقًّا أن نفهم أنه في داخل غزة مسموح لك أن تفعل ما تشاء، أن تحطم أبواب بيوت لمجرد أن هذا لطيف. وإذا جئت لجندي وقلت له: لماذا تحطم صورة العائلة ؟ هذا لا يزعجنا. هذا ليس عملياتيًّا. فسيقول لك: لأنهم عرب»[2].

وتعلق أسرة التحرير في صحيفة هاآرتس على هذه الشهادات فتقول: «هذا هو الجيش الذي يتشرب أكثر فأكثر التزمت الديني من مدرسة الحاخامية العسكرية. جدير بالتحقيق بالظاهرة بأدوات خارجية واقتلاعها من جذورها، خشية أن يحطم العفن الجيش الإسرائيلي والمجتمع الإسرائيلي»[3].

الأوامر: استهداف المدنيين وطواقم الإسعاف والإنقاذ

تعلق عميرة هاس على وثيقة عُثر عليها، عبارة عن ورقة مكتوبة بالعبرية بخط اليد بعنوان «تقدير وضع»، فتقول: «أكد أحد التقارير من القطاع ـ ويظهر في شهادات عديدة ـ أن الجنود أطلقوا النار على فرق إنقاذ فلسطينية وللصليب الأحمر، وهكذا لم يسمحوا بإنقاذ

---

(١) عاموس هرئيل، شهادات قاسية لضباط وجنود عن قتل فلسطينيين أبرياء في الحرب على غزة، هاآرتس، ١٩/٣/٢٠٠٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أسرة التحرير، الرصاص والأزمة، هاآرتس، ١٩/ ٣/ ٢٠٠٩.

جرحى وإخلاء جثث. عدد غير معروف من الجرحى نزفوا حتى الموت، آخرون انتظروا الإنقاذ لأيام عديدة دون أي علاج. الوثيقة توفر شهادة مكتوبة على أن قادة في الجيش الإسرائيلي أصدروا تعليمات بفتح النار حتى على طواقم إنقاذ وإخلاء فلسطينية»[1].

جريمة حرب بكل المقاييس

«هذه الحرب هي حرب مأساوية. لا شك عندي في أن الاستخبارات الإسرائيلية المحكمة علمت أنه لا يوجد في غزة مناطق مفتوحة، وأن الأولاد لا يبعدون عن المدارس ورياض الأطفال، وأنه لا توجد عندهم صفارات تحذير. وفي كل مرة نقتل ناشطًا من حماس مهما كان سنقتل أيضًا خمسين ولدًا، ولن نعلم إلى أين نُصرّف العار. هذه الحرب بدأت تظهر مثل جريمة حرب بجميع المقاييس. كنا دائمًا جيدين في الاقتباس، لكن لا ونحن في جانب الشيطان، ولا وعندما يحدث القتل المنهجي للأولاد»[2].

* * *

(١) عميرة هاس، وثيقة عسكرية من غزة تأمر بإطلاق النار حتى على فرق الإنقاذ، هاآرتس، ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٩.

(٢) يونتان جيفن، في ظل انعدام الإنجازات على الأرض: ما يحدث في غزة جريمة حرب بكل المقاييس، معاريف، ٨/ ١/ ٢٠٠٩.

الفصل الثالث

حرب غزة والأسلحة المحظورة

لقد كانت غزة مسرحًا استخدمت فيه إسرائيل ترسانتها من أسلحة محظورة ضد المدنيين مثل: الفسفور الأبيض، وقذائف الدايم، والسهام الخارقة. إضافة إلى اليورانيوم المنضب:

أمطار النار: الفسفور الأبيض

تحت عنوان: أمطار النار، صدر تقرير لمنظمة هيومان رايتس ووتش يدين إسرائيل بالاستخدام المكثف والعشوائي لقذائف الفسفور الأبيض ضد المدنيين في غزة.

«الفسفور الأبيض مادة كيميائية يتم نشرها بواسطة لقذائف المدفعية والقنابل والصواريخ وقذائف الهاون. لدى الارتطام بالأرض أو لدى انفجارها جوًّا، تبعث دخانًا أبيض كثيفًا يستخدمه العسكريون في إخفاء تحركات القوات»[1]. «ويشتعل لدى اتصاله بالأوكسجين، ويستمر في الاحتراق حتى درجة ٨١٦ درجة مئوية حتى لا يتبقى منه أي شيء، أو حتى ينتهي ما حوله من أوكسجين»[2]. و«حين يلامس الأشخاص أو الأشياء، فهو يؤدي إلى حروق كثيفة ودائمة الأثر. ويمكنه اختراق الأجساد وإصابة الأعضاء

---

(١) مارك جار لسكو وآخرون، أمطار النار: استخدام إسرائيل غير القانوني للفسفور الأبيض في غزة، هيومان رايتس ووتش، نيويورك، ٢٠٠٩، ص ٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣.

الداخلية بالتسمم. والكثير من الدراسات المعملية أظهرت أن الحروق التي تغطي أقل من ١٠٪ في البشر يمكن أن تكون قاتلة بسبب آثارها على الكبد والقلب والكليتين»[١].

وقد خلص التقرير إلى أن استخدام إسرائيل للفسفور الأبيض في قطاع غزة مخالف للقانون الدولي لأنه: «ينتهك الالتزام باتخاذ جميع الاحتياطات المستطاعة لتقليل الضرر اللاحق بالمدنيين والأعيان المدنية. ويخرق الحظر على الهجمات العشوائية أو غير المتناسبة»[٢].

وقال التقرير أيضًا: «لم تعثر هيومان رايتس ووتش على دليل على أن قوات الجيش الإسرائيلي أطلقت الفسفور الأبيض برًّا على أهداف عسكرية واضحة، مثل المقاتلين الفلسطينيين في المخابئ، لكنها استخدمت الفسفور الأبيض المتفجر جوًّا من أجل أثره العرضي»[٣].

الجحيم بعينه في غزة: قذائف الدايم

«تضمن التقرير الذي نشرته مجلة «فرايداي» الصادرة باللغة اليابانية تحت عنوان «الجحيم بعينه في غزة: إسرائيل تستخدم أسلحة حارقة ضد البشر» صورًا وتحليلات لخبراء وشهود عيان عن الأسلحة الكيميائية والإشعاعية التي استخدمتها قوات الاحتلال الإسرائيلية ضد سكان غزة دون تمييز. وأشارت التحليلات إلى أن هذه الأسلحة الإسرائيلية تتضمن قذائف «دايم» والتي هي عبارة عن متفجرات بإمكانها اختراق الجسم البشري بجزيئات صغيرة دون إحساس الضحية المستهدفة، ثم تنفجر داخل الجسم، وتطلق حرارة شديدة تدمر الأعضاء والعظام وتحللها؛ مما يؤدي إلى موت سريع»[٤].

السهام الخارقة

أكد تقرير لمنظمة العفو الدولية استخدام إسرائيل لقنابل السهام الخارقة والواحد منها «عبارة عن سهم معدني طوله ٤ سم مدبب الرأس من الأمام، وله أربع فراشات في الذيل.

---

(١) المصدر السابق، ص ٩، ١٠ مختصرًا.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٩ مختصرًا.

(٣) المصدر السابق، ص ١.

(٤) وكالة الأنباء الأردنية بترا، تقرير ياباني: إسرائيل استخدمت في غزة ذخيرة تدمر الأعضاء وتحلل العظام، ٢٠٠٩/١/١٩.

ويُحشى بين ٥٠٠٠ و ٨٠٠٠ سهم داخل قذيفة عيار ١٢٠ ملم، تُطلق من الدبابات بوجه عام. وتنفجر القذيفة في الهواء، وتتناثر السهام على منطقة بعرض ٣٠٠ متر وطول ١٠٠ متر»[١].

قذائف اليورانيوم المنضب

«أعلنت المنظمة الدولية (عمل المواطنين لتفكيك السلاح النووي بالكامل) أنها أعدت تقريرًا يُظهر وجود عشرات الأطنان من اليورانيوم المنضب في قطاع غزة جراء الهجوم الإسرائيلي. وأوضحت أن كمية اليورانيوم المنضب ربما تصل إلى ما لا يقل عن خمسة وسبعين طنًّا عُثر عليها في التربة وباطن التربة في قطاع غزة»[٢].

* * *

(١) منظمة العفو الدولية، الجيش الإسرائيلي استخدم السهام الخارقة ضد المدنيين في غزة، موقع منظمة العفو الدولية، ٢٧/١/٢٠٠٩.

(٢) جريدة أخبار العالم، تقرير دولي يتحدث عن وجود ٧٥ طنًّا من اليورانيوم المنضب في غزة، موقع جريدة أخبار العالم، ٢٣/٥/٢٠٠٩.

الفصل الرابع

شهادات دولية على الجريمة

هناك تقارير وشهادات دولية على جرائم إسرائيل في حرب غزة. وهي تؤكد على كم الجرائم التي ارتكبتها بما فيها جرائم دولة، وجرائم ضد الإنسانية، وجرائم إبادة جماعية، وعقاب جماعي، وقصف عشوائي، وإستهداف متعمد للمدنيين والمنشآت والأعيان المدنية. وننوه هنا إلى أننا سنفرد فصلًا مستقلًا لتقرير لجنة جولدستون لأهميته، وأهمية ما واكبه من أحداث وردود أفعال:

تقرير ريتشارد فالك

يرصد ريتشارد فالك ـ المفوض الأممي لحقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة ـ جرائم حرب غزة، ويفند المزاعم الإسرائيلية حول مشروعية الحرب، ومشروعية الأساليب العسكرية الإسرائيلية. وهو بالمناسبة يهودي أمريكي وأستاذ في القانون. ومما جاء في تقريره:

جريمة حرب بأكبر حجم في القانون الدولي

«إن أهم مسألة قانونية جديرة بالبحث هي الاستخدام الإسرائيلي للأسلحة الحديثة على نطاق واسع ضد شعب واقع تحت الاحتلال في الظروف التي تحياها غزة. وهذا البحث لا

بد أن يشمل مدى استطاعة إسرائيل في ظل الظروف الموجودة في غزة التمييز بين الأهداف العسكرية والمدنية. إذا تعذر القيام بذلك، يصبح الهجوم ـ الذي هو أصلًا غير قانوني ـ يشكل على ما يبدو جريمة حرب بأكبر حجم في القانون الدولي. على أساس من الأدلة الأولية المتوفرة، فإن هناك ما يدعو للوصول إلى هذا الاستنتاج»[1].

«لقد كان من الممكن وضع شروط لتجنب الأهداف غير العسكرية، وتجنب المدنيين الفلسطينيين إلى حد كبير. وعلى أساس التقارير والإحصائيات من الممكن أن نخلص إلى نتيجة مبدئية مفادها: أنه في ضوء أعداد الضحايا المدنيين الفلسطينيين، فإن الإسرائيليين إما أنهم لم يرسموا الخطوط الفاصلة التي يتطلبها القانون الدولي والمعاهدات الدولية، أو لم يستطيعوا فعل ذلك نظرًا لظروف القتال السائدة؛ مما يجعل هذه الهجمات من المستحيل توافقها مع القانون الدولي. لقد كانت نتائج العملية العسكرية ما يلي:

- مقتل ١٤٣٤ فلسطينيًا وإصابة ٥٣٠٣ فلسطينيين، أي أنه ١:٢٢٥ مواطنًا من غزة قد قُتل أو أصيب، وهذا لا يشمل الإصابات النفسية التي من المؤكد أنها ستكون واسعة الانتشار.

- دمار واسع وشامل للمنازل ومنشآت الخدمة العامة والبنية التحتية ومنشآت الأمم المتحدة والتي قدر عددها بنحو ٢١ألف منشأة هُدمت كليًا، أو أصابها دمار كبير.

- ٥١ ألف فلسطيني نزحوا إلى ملاجئ تكفل لهم حماية قليلة، بينما لجأ الباقون إلى بيوت أصدقائهم وأقربائهم التي تعد آمنة أكثر بقليل»[2].

عقاب جماعي وحصار جائر

«لا مجال بالمرة للتوفيق بين أهداف وأحكام القانون الدولي الإنساني وبين القصف الإسرائيلي على منطقة تؤوي ١,٥ مليون فلسطيني بلا وسائل حماية، والذين حوصروا إلى درجة الانهيار على مدى ١٨ شهرًا، والذين لم يدخل إليهم إلا أقل القليل من الغذاء والوقود والدواء؛ مما أدى إلى تدهور خطير في صحة المواطنين وفي القطاع الصحي. هذا

---

(١) ريتشارد فالك، وضع حقوق الإنسان في فلسطين والمناطق العربية المحتلة الأخرى، الأمم المتحدة، الجمعية العامة، مجلس حقوق الإنسان، الدورة العاشرة، ١١/ ٢/ ٢٠٠٩، ص٦.

(٢) المصدر السابق، ص٦،٧.

الحصار غير القانوني يندرج تحت مواد القانون الدولي المتعلقة بالعقاب الجماعي، ويخالف اتفاقيات جنيف الرابعة التي توجب إمداد الشعب الواقع تحت الاحتلال بالغذاء والدواء ومستلزمات الرعاية الصحية[1].

قول مضلل

«أما ما ادعاه سفير إسرائيل للاتحاد الأوروبي خلال المناقشات مع لجنة من البرلمان الأوروبي والذي دافع فيه عن الهجمات الإسرائيلية على غزة. والذي برر ضرب مدارس الأمم المتحدة بأنه قد تم عن طريق الخطأ، وهو أمر وراد أثناء القتال. قوله هذا مضلل فيما يتعلق بخصائص منطقة الحرب التي لا مجال فيها للخطأ، ولكنه اعتداء جسيم على منطقة مكتظة بالسكان، إنه شكل من أشكال الحرب اللاإنسانية التي تُحدث تشوهات وأضرارًا نفسية طويلة المدى خصوصًا على الأطفال الذين يشكلون ٥٠٪ من سكان القطاع»[2].

سياسة حرب لم يسبق لها مثيل

«في سياسة حرب لم يسبق لها مثيل، رفضت إسرائيل السماح للمدنيين في غزة لمغادرة منطقة الحرب ـ باستثناء مائتي زوجة ـ خلال ٢٢ يومًا من العمليات؛ مما حدا بالمفوضة السامية لشئون اللاجئين إلى أن تصرح بأن هذا! هو الصراع الوحيد في العالم الذي لا يُسمح فيه للمدنيين حتى بالفرار. كل المعابر مع إسرائيل ظلت مغلقة باستثناء الفتح النادر والمحدود لمعبر رفح. نتيجة لذلك، فإن الأطفال والنساء والشيوخ والمعاقين لم يستطيعوا أن يفروا من العمليات العسكرية. وقد فاقم ذلك غياب أماكن الاحتماء لصغر حجم القطاع واكتظاظه البشري وغياب الملاجئ وحالة الإغلاق الدائم للقطاع؛ مما قد يشكل جريمة ضد الإنسانية»[3]. وهناك «ستة ملاجئ طوارئ تابعة للأونروا قد دُمرت أثناء عملية الرصاص المصهور»[4].

---

(١) المصدر السابق، ص ٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٧،٨.
(٣) المصدر السابق، ص ١١.
(٤) المصدر السابق، ص ١٢.

واجب دول الجوار حيال المدنيين بغزة

«هذا الوضع يستلزم اعتبار كل مدني غير مقاتل لاجئًا له حقوق اللاجئين خصوصًا إذا لم يجد ملاذات داخلية آمنة، ويفرض أيضًا على الدول المجاورة واجبًا قانونيًّا لقبول المدنيين الفارين من الحرب بصورة مؤقتة. ويفرض ذلك أيضًا على إسرائيل كقوة احتلال طبقًا لاتفاقية جنيف الرابعة أن توفر ملاذات آمنة لحماية المدنيين من آثار القتال، وواجب خاص حيال المصابين والمرضى والأمهات والأطفال تحت الخامسة عشرة»[1].

تقرير لجنة إيان مارتن

تقول صحيفة يديعوت: «تقرير رسمي من الأمم المتحدة، حقق في النار الإسرائيلية على مؤسسات الأمم المتحدة في حملة رصاص مصهور، يتهم إسرائيل بسلسلة خطيرة من الاتهامات، وعلى رأسها نار غير متوازنة، وإصابة مقصودة للمدنيين ولمؤسسات الأمم المتحدة. وكانت لجنة خاصة من الأمم المتحدة برئاسة إيان مارتن قد صاغت التقرير، الذي قال بشكل لا لبس فيه: إسرائيل أطلقت النار بشكل موجه نحو مؤسسات الأمم المتحدة رغم علمها بأنه محظور عليها عمل ذلك.

ويتهم التقرير إسرائيل بإطلاق نار غير متوازنة، واستخدام القوة المبالغ فيها. كما يقضي التقرير بأن إسرائيل أصابت مدنيين فلسطينيين لغير حاجة.

مصدر في الوفد الأمريكي إلى الأمم المتحدة قال ليديعوت أحرونوت: هذا تقرير غير مسبوق في شدته تجاه إسرائيل، وسيتعين عليها أن تلعق جراح التقرير لسنوات طويلة أخرى إذا ما أُخذ بالصيغة الحالية كما هي.

التوصية الرئيسة في التقرير كفيلة بأن تورط إسرائيل في معركة دبلوماسية، وأن تلحق بها ضررًا هائل الحجم: تعيين لجنة تحقيق مستقلة ستحدث موجة من التنديد الدولي ضد إسرائيل، وتفتح إمكانية اتهام مسئولين إسرائيليين كبار في مؤسسات قانونية في أرجاء العالم، وتجر إسرائيل إلى وحل دبلوماسي عميق.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٢.

من شأن استنتاجات التقرير أيضًا أن تثير موجة كراهية دولية ضد إسرائيل، وأن تجعلها هدفًا أساسيًا في حرب منظمات حقوق الإنسان»[1].

تقرير لجنة جون دوجارد

هذه اللجنة شُكلت بواسطة جامعة الدول العربية من مجموعة من رجال القانون الدوليين الأجانب المشهود لهم بالكفاءة والحيدة. وضمت: البروفيسور جون دوغارد من جنوب أفريقيا المفوض الأممي السابق لحقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية، والبروفيسور الهولندي بول دي وارت، والقاضي النرويجي فين لينجيهم، والمحامي الألماني جونزالو بوى، والبروفيسور البرتغالي فرانشسكو كورت ـ ريال المختص بالتقييم الطبي الشرعي للأضرار الجسدية، والمحامية الأسترالية رايلين شارب.

لا مكان آمن

قدمت اللجنة تقريرها إلى جامعة الدول العربية في ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٩، وجاء عنوان التقرير «لا مكان آمن» كاشفًا عن حجم الجرائم التي ارتكبتها إسرائيل في قطاع غزة أثناء حرب الرصاص المصهور. وقد تضمن التقرير العديد من النقاط الهامة أبرزها ما يلي:

- «قوات الدفاع الإسرائيلية مسئولة عن ارتكاب جريمة الهجوم على المدنيين بغير تمييز وعلى نحو غير متناسب.

- رفضت اللجنة تعريف إسرائيل لمن هم المدنيون. فأعضاء حكومة حماس المدنية المسئولون عن إدارة شئون غزة ليسوا بمحاربين كما تزعم إسرائيل. وهذا ينطبق أيضًا على أفراد قوات الشرطة المسئولين عن الحفاظ على القانون والنظام وتنظيم حركة المرور.

- رفضت اللجنة ادعاء إسرائيل بأنها قد أنذرت المدنيين بضرورة إخلاء منازلهم عن طريق المنشورات والمحادثات الهاتفية. فقد عجزت هذه النشرات وتلك المكالمات عن إبلاغ المدنيين عن الأهداف التي سيتم قصفها، وعن الأماكن التي قد تكون آمنة. ومن ثم

---

(١) يوسي يهوشع. الأمم المتحدة ضد الجيش الاسرائيلي.. في إسرائيل غاضبون: الأمم المتحدة أعدت تقريرًا فتاكًا عن الحملة في قطاع غزة، يديعوت، ٥/ ٥/ ٢٠٠٩.

تسببت في خلق حالة من الفوضى والذعر بينهم. وتسبب القصف المستمر والتحذيرات المضللة في ترويع السكان.

● رأت اللجنة أن قوات الدفاع الإسرائيلية مسئولة عن التدمير المتعمد للممتلكات، وأنه لا يمكن تبرير مثل هذا الفعل على أساس أنه ضرورة عسكرية. كما لم يكن هناك دليل يُوثق به على أن للتدمير أية مزايا عسكرية.

● هناك أدلة قوية على أن قوات الدفاع الإسرائيلية وأعضاءها قد قاموا بإلقاء القنابل وقصف المستشفيات وعربات الإسعاف، كما أعاقوا إجلاء الجرحى. وترى اللجنة أن هذا التصرف يشكل جريمة حرب.

● تشمل الجريمة ضد الإنسانية أعمال القتل، والإبادة، والاضطهاد وغيرها من الأفعال غير الإنسانية التي تُرتكب كجزء من هجوم نظامي واسع النطاق موجه ضد السكان المدنيين مع العلم بالهجوم. وجدت اللجنة أن الهجوم الإسرائيلي كان مستوفيًا للأركان القانونية لهذه الجريمة.

● رأت اللجنة أن الأفعال التي ارتكبتها إسرائيل تستوفي أركان جريمة الإبادة الجماعية كما جاءت في اتفاقية الإبادة الجماعية من حيث أن قوات الدفاع الإسرائيلية مسئولة عن عمليات القتل، والإبادة وإلحاق الأضرار الجسدية لأعضاء مجموعة هي الفلسطينيين المقيمين في غزة.

● رأت اللجنة أنه بالرغم من أن عملية الرصاص المصهور لم تنفذ من جانب قوات الدفاع الإسرائيلية لتدمير الفلسطينيين المقيمين في غزة كمجموعة، فإن من الممكن أن يكون لدى بعض أفراده من الجنود مثل هذه النية، ومن ثم يمكن ملاحقتهم لارتكاب مثل هذه الجريمة. واستندت اللجنة في هذا الاستنتاج إلى وحشية بعض عمليات القتل وإلى التقارير التي أفادت بأن بعض الجنود قد أقدموا على أفعالهم بتأثير من بعض الحاخامات الذين شجعوهم على الاعتقاد بضرورة تطهير الأراضي المقدسة من غير اليهود.

● رفضت اللجنة الحجة القائلة بأن إسرائيل قد قامت بتنفيذ عملية الرصاص المصبوب دفاعًا عن النفس.

● رأت اللجنة أن أعضاءً من قوات الدفاع الإسرائيلية قد ارتكبوا جرائم حرب، وجرائم ضد الإنسانية، ومن المحتمل أيضًا جرائم إبادة جماعية خلال عملية الرصاص

المصهور. وإن المسئولين عن ارتكاب مثل هذه الجرائم مسئولون عن أفعالهم كأفراد شأنهم في ذلك شأن الذين أصدروا الأوامر، أو حرضوا على ارتكاب مثل هذه الجرائم، أو ساهموا في تحقيق الغرض المشترك بارتكابها. كما يتحمل القادة العسكريون والسياسيون مسئولية الجرائم التي اُرتكبت أثناء قيادتهم أو سلطتهم أو سيطرتهم الفعلية؛ حيث كانوا على علم، أو كان يتعين أن يكونوا على علم بارتكاب مثل هذه الجرائم، وأخفقوا في منعها، أو ردع مرتكبيها، أو التحقيق بشأنها وملاحقة المسئولين عنها قضائيًّا»[1].

الطبيب النرويجي مادس جيلبرت

قال مادس جيلبرت في حديث له مع الصحفي الإيطالي ميكيل أنجيلو كوكو: «كنت في بيروت عام ١٩٨٢ شاهدًا على أعمال رعب وجرائم فظيعة اعتقدت أنها لن تتكرر مرة أخرى. في حين وجدت بعد مرور ٢٧ عامًا أن الفلسطينيين في غزة قد باتوا يعانون أوضاعا أسوأ وأصعب. من الممكن القول إن نسبة ٩٠٪ من الجرحى الذين نعالجهم هم مدنيون عزل؛ مما يعزز الاعتقاد أنهم يعمدون إلى استهداف المدنيين. إن ما يحدث في غزة يمثل هجومًا وحشيًّا لا حاجة له. لقد تعمدوا تنفيذ مخطط يهدف إلى إسدال الستار على حرية الكلمة وحقوق الإنسان ومعاهدات جنيف. إنه عمل إجرامي مرعب.

ما يحدث في مستشفى الشفاء كارثة بكل ما للكلمة من معنى؛ فالجرحى يصلون في كل ساعة من دون توقف. تدخل سيارات الإسعاف من البوابة الرئيسية محملة بالجرحى، وتخرج من الباب الخلفي وهي تحمل جثث أولئك الذين لم نفلح في إنقاذ حياتهم. كثيرون يصلون وقد تعرضوا لأعمال بتر منتهية، كلتا الساقين مبتورتان. هناك جراح بسبب الإصابة بشظايا الرصاص. لم يعد باستطاعتنا استقبال المزيد. فالمستشفى مليء عن آخره؛ مما يضطر الأقارب لاصطحاب المرضى المصابين بجراح خطيرة إلى البيت. مستشفى الشفاء يجثم على ركبتيه. والمسئول الأول عن ذلك هو الحصار الطويل الذي تفرضه إسرائيل، والهجوم والمجازر التي ترتكب هذه الأيام»[2].

---

(١) جون دوجارد وآخرون، لا مكان آمن، النسخة العربية، ص ٨ ـ ١٢ مختصرًا، موقع جامعة الدول العربية، ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٩.

(٢) ميكيل أنجيلو كوكو، أصوات من مستشفى الشفاء في غزة: استخدام أسلحة فتاكة ضد المدنيين، جريدة المانيفستو الإيطالية، قسم الترجمة، صحيفة العربي اليوم، ٢٣/ ١/ ٢٠٠٩.

مصانع بتر الأطراف

وقال مادس جيلبرت «في حديث هاتفي مع صحيفتي زود دويتشه تسايتونج وتاجزشبيجل الألمانيتين: «نحن نبتر الأطراف بشكل مستمر يشبه خطوط الإنتاج في المصانع، ممرات المستشفى مليئة بالمشوهين. الهجمات الإسرائيلية تطال المسعفين والمستشفيات»[1].

شهادة الطبيب النرويجي إيريك فوس

«قال إيريك فوس إن ما يجري في غزة كارثة إنسانية من الدرجة الأولى، ومستشفياتها تعاني نقصًا في المستلزمات الطبية، خصوصًا مع ارتفاع ضحايا العدوان عليها، ولو شهد أي مستشفى صحي في أي دولة أوروبية أو في أمريكا ما تمر به غزة، لأعلن توقفه عن العمل. كما قال إن الوضع الذي عايشه في غزة هو الأسوأ، ولا يوجد له مثيل حتى في حرب لبنان الأخيرة وحرب أفغانستان»[2].

* * *

(١) منبر الرأي، ٦/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) وكالة الأخبار العراقية «واع»، طبيب نرويجي: إسرائيل تستخدم اليورانيوم المنضب، ١٠/ ١/ ٢٠٠٩.

الفصل الخامس

تقرير جولدستون: لائحة الاتهام الأخطر ضد إسرائيل

القاضي ريتشارد جولدستون هو «يهودي مع ماضٍ صهيوني»[١]. «زار إسرائيل مرات غير قليلة. وابنته تسكن فيها منذ أكثر من عقد من الزمان. وعلى مدى ٢٥ سنة ترأس جمعية أصدقاء الجامعة العبرية في القدس في جنوب أفريقيا»[٢].

تحدثت ابنته «عن الصراع النفسي الذي مر به والدها المقتنع أنه لولا وجوده لكان التقرير أشد جسامة بأضعاف المرات»[٣]. وبالرغم من ذلك، فقد اتهمته إسرائيل بعد نشر تقريره بأنه يهودي مفعم بالكراهية الذاتية، قال جولدستون: «أنه شعر بالإهانة من الاتهامات التي وجهت إليه. وقال: يوجد في داخلي حب كبير لإسرائيل. زرتها مرات عديدة، وعملت من أجل أهداف إسرائيلية على مدى سنوات عديدة»[٤].

ولكن الوضع في غزة صدم ضمير القاضي جولدستون، فيقول: «في غزة، فوجئت وصُدمت بالدمار والبؤس هناك. لم أكن أتوقع أن جيش الدفاع الإسرائيلي سوف يستهدف المدنيين والأهداف المدنية. كما لم أكن أتوقع رؤية الدمار الواسع للبنية التحتية

(١) بن درور يميني، جولدستون ضد الإنسانية، معاريف، ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٩.
(٢) مايا بنجل، آثار الحرب على غزة، معاريف، ١٤/ ٩/ ٢٠٠٩.
(٣) جدعون ليفي، عار لاهاي، هاآرتس، ١٧/ ٩/ ٢٠٠٩.
(٤) عميت كوهين وآخرون، تقرير جولدستون والابتزاز الإسرائيلي، معاريف، ٥/ ١٠/ ٢٠٠٩.

الاقتصادية لغزة بما في ذلك أراضيها الزراعية و المصانع و إمدادات المياه وشبكات الصرف الصحي. ليست هذه أهدافًا عسكرية. في حياتي لم أسمع أو أقرأ أي تبرير حكومي لمثل هذا الدمار»[١].

ملخص التقرير[٢]

على الرغم من اتهام التقرير للفصائل الفلسطينية بارتكابها ما قد يُشكل جرائم حرب لاستهدافها المدنيين الإسرائيليين، إلا أنه إحقاقًا للحق، فلقد مثل تقرير بعثة جولدستون صدمة كبيرة لإسرائيل، وجاء كلائحة اتهام شاملة ضد الكيان الصهيوني.

أكد التقرير على حق الشعب الفلسطيني في مقاومة الحرمان القسري له من حق تقرير المصير، وأكد على حقه في العيش بحرية في دولته. كما فضح الممارسات الإسرائيلية وانتهاكاتها المستمرة للقانون الدولي ليس في قطاع غزة وحده، بل في مجمل الأراضي الفلسطينية. وليس ضد أهل الضفة والقطاع وحدهم، بل أيضًا ضد عرب ٤٨. وليس في حرب غزة وحدها، بل طوال الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية منذ عام ١٩٦٧.

وتناول التقرير أيضًا ما جرى في حرب الرصاص المصهور، وما ارتكبته فيها إسرائيل من جرائم حرب بدون أن تكون هناك ضرورة عسكرية تبرر تلك الأفعال. وكانت أهم الاتهامات التي وجهها التقرير لإسرائيل هي:

- التدمير الواسع النطاق للممتلكات الذي لا تبرره ضرورة عسكرية كالاستهداف المتعمد للمجلس التشريعي وسجن غزة.
- الاستهداف المتعمد لمنشآت الأمم المتحدة التي لجأ إليها الفلسطينيون للاحتماء من القصف الإسرائيلي.
- استهداف المستشفيات الفلسطينية وسيارات الإسعاف.
- تدمير البنية الأساسية التعليمية، فقد دُمرت نحو ٢٨٠ مدرسة وحضانة في ظل

(١) ريتشارد جولدستون، لهذا حققت في تصرفات إسرائيل في غزة، ريال كلير بوليتكس، ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٩.
(٢) تقرير بعثة جولدستون، تقرير بعثة الأمم المتحدة لتقصي الحقائق بشأن النزاع في غزة، الموجز التنفيذي، الأمم المتحدة، ٢٣/ ٩/ ٢٠٠٩، ص ١ـ٢٧.

حاجة الكثير من المباني المدرسية من قبل للإصلاح نتيجة للحصار الذي يمنع استيراد مواد البناء.

- عدم التمييز بين الأعيان المدنية والعسكرية وعدم التمييز أيضًا بين الأشخاص المدنيين والعسكريين، ومثال ذلك الاستهداف المتعمد لمقار الشرطة الفلسطينية والمساجد.
- القصف العشوائي، والهجمات المتعمدة غير المبررة على المدنيين العزل.
- التدمير المنهجي والمتعمد لأساسيات الحياة في غزة كمطحن الدقيق الوحيد الذي كان يعمل في غزة في أثناء الحرب، ومزرعة كبرى للدواجن تمد القطاع بـ ١٠٪ من احتياجاته من البيض، وتدمير البنية الصناعية الأساسية، وتجريف الأراضي والصوبات الزراعية، ومنشآت مياه الشرب، ووحدات معالجة الصرف الصحي.
- الأعمال المتعمدة من جانب القوات المسلحة الإسرائيلية والسياسات المعلنة لحكومة إسرائيل تشير على نحو تراكمي إلى نية توقيع العقوبة الجماعية على سكان قطاع غزة.
- التدمير المنهجي الواسع النطاق للمباني والممتلكات المدنية خصوصًا في الأيام الثلاثة الأخيرة من الحرب.
- استخدام المدنيين الفلسطينيين دروعًا بشرية.
- احتجاز أعداد كبيرة من المدنيين وفيهم نساء وأطفال في أوضاع مزرية ولاإنسانية؛ مما يعد عقابًا جماعيًّا لهم.

التقرير ومحاسبة إسرائيل عن جرائم الحرب

دعا التقرير إلى اللجوء للولاية العالمية في التحقيق في جرائم الحرب، وذلك لافتقاد نظام التحقيق الإسرائيلي لمعايير النزاهة والاستقلالية والفاعلية، ولاتسام النظام القانوني الإسرائيلي على وجه الإجمال بسمات تمييزية متأصلة فيه تجعل من سُبل نيل العدالة أمام الضحايا الفلسطينيين أمرًا بالغ الصعوبة.

كما دعا أيضًا إلى أن يقوم المجتمع الدولي بإيجاد آلية لتعويض الضحايا؛ حيث إن الهيكل الدستوري الحالي والتشريعات الموجودة في إسرائيل لا يتيحان مجالًا كبيرًا ـ إن كانا أصلًا يتيحان أي مجال ـ أمام الفلسطينيين لالتماس التعويض

ردود أفعال الصحافة الإسرائيلية على التقرير

جاءت التعليقات الإسرائيلية كاشفة عن مدى أهمية التقرير، وخطورته على مستقبل إسرائيل ومكانتها الدولية، وأثره على أي حماقة مستقبلية ترتكبها ضد الشعب الفلسطيني. فالتقرير هو «الأكثر أهمية وخطورة من كل التقارير المتعلقة بحرب غزة»[1]، وهو «أحد لوائح الاتهام الأشد خطورة ضد القيادة السياسية والعسكرية في إسرائيل، وسيواصل الإثقال على الصورة الأخلاقية والمكانة الدولية لإسرائيل»[2].

ولقد جسد التقرير مخاوف إسرائيل من المحاكمات الدولية، يقول إسرائيل هرئيل «ترددت إسرائيل طوال أربع سنوات وأكثر، ولم تخرج لإزالة كابوس صواريخ القسام عن رأس النقب الغربي، لأسباب منها خوفها من تقديم ساستها وضباطها إلى المحكمة الدولية كمجرمي حرب. وها هو تقرير جولدستون يأتينا ليجسد هذه المخاوف ويقول: بما أن العملية التي نُفذت ضد حماس تمخضت عن موت المدنيين، وبما أن قتل المدنيين هو جريمة ضد الإنسانية، فإن إسرائيل لا تمتلك خيارًا عسكريًّا آخر ضد الإرهاب»[3].

و«بفضل جولدستون سيفكرون في إسرائيل مرتين وربما ثلاثًا قبل صب متر إضافي واحد من الرصاص المصهور على رءوس السكان المدنيين الذين لا حول لهم ولا قوة. من الآن لن يكون الاعتبار الوحيد في نظر إسرائيل هو الحد الأدنى من الخسائر في طرفنا. من الآن سيأخذون بالحسبان العواقب الدولية والشخصية لكل هجمة وحشية»[4].

و«حتى لو توقفت المسيرة القانونية، ولم تجلس إسرائيل في قفص الاتهام في لاهاي، فإن أياديها قد كُبلت. العالم بقيادة أوباما لن يدعها تنطلق إلى رصاص مصهور ٢»[5].

كما نزع التقرير وغيره من التقارير الدولية الشرعية عن أعمال إسرائيل في غزة، تقول القاضية الإسرائيلية روت غيبزون: «إن نتيجة هذه التقارير هي أن العملية كلها - بل حصار غزة - ليست أداة شرعية في مكافحة إسرائيل للأعمال الإرهابية من غزة. يرى جولدستون

---

(١) جدعون ليفي، عار لاهاي، هاآرتس، ١٧/ ٩/ ٢٠٠٩.

(٢) أسرة التحرير، جولدستون واتهام إسرائيل بجرائم ضد الإنسانية، هاآرتس، ١٧/ ٩/ ٢٠٠٩.

(٣) إسرائيل هرئيل، سم ودمار، هاآرتس، ١٧/ ٩/ ٢٠٠٩.

(٤) جدعون ليفي، حتى يدفع مجرمو الحرب الثمن عن جرائمهم، هاآرتس، ١/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٥) ألوف بن، مصداقية جولدستون، هاآرتس، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.

أن الجنود ليسوا فقط مذنبين، بل الساسة الذين خططوا، والمستشارين القانونيين الذين وافقوا على أهداف وسبل عمل يصفها جولدستون على أنها جرائم حرب»[1].

ويضع التقرير شرعية وجود إسرائيل على المحك، فيحذر إيال بنبنستي أستاذ القانون بجامعة تل أبيب من خطورة عدم الانصياع لمطلب جولدستون بالتحقيق، فيقول: «في عصر ثقافة التحقيق الخارجي لا يوجد للمتهم حق في الصمت. من يصمت يعرض نفسه لخطر ضياع التأييد من الرأي العام العالمي. هذا التأييد هو ذخر إستراتيجي في أثناء القتال المستقبلي: إذا كانت أهداف القتال وأساليبه تلقى الشرعية، سيقل الضغط السياسي لإنهائه قبل أن تُستكمل أهدافه. بالمقابل، رفض التعاون من شأنه أن يجعل للدولة على المدى البعيد سمعة «خارقة قانون»، ويضع عدالة وجودها قيد الشك. هذا الخطر بات ملموسًا في تقرير جولدستون الذي ينتقل من التحقيق في القتال في غزة إلى عرض إسرائيل كدولة ذات نظام تمييزي، ويثير ضمنًا الشك في شرعية وجودها. الصمت حيال الانتقاد على حرب غزة يهدد بطبع عدم الشرعية على الحروب المقبلة»[2].

ويُعرِّض التقرير الساسة والعسكريين الإسرائيليين لخطر الملاحقة الدولية، يقول بن درور يميني: «إذا لم تنشأ لجنة تحقيق فستكون الدولة والساسة الكبار والضباط والجنود معرضين لدعاوى قضائية لا تُحصى. في سنة ٢٠٠٥، صدر أمر اعتقال في بريطانيا لجنرال في الاحتياط هو دورون الموج. وحدث هذا قبل أسابيع معدودة لبوجي يعلون وهو وزير في حكومة إسرائيل. فما الذي يجب أن ننتظره بعد؟!»[3].

سلطة أوسلو تخضع للابتزاز والتهديد

طلبت سلطة رام الله سحب التصويت على تقرير جولدستون وتأجيله ستة أشهر، ثم عادت بعد ذلك وطلبت التصويت عليه بعد أن وُجهت بانتقادات حادة فلسطينية وعربية ودولية. وبين الموقفين انكشف المستور، فالسر في التأجيل يعود إلى:

---

(١) روت غيبزون، ما هو مطلوب في مواجهة تقرير جولدستون، هاآرتس، ٧/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٢) إيال بنبنستي، الصمت الإسرائيلي حيال الانتقاد على حرب غزة يهدد بطبع عدم الشرعية على حروبها المقبلة، هاآرتس، ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٣) بن درور يميني، تشكيل لجنة تحقيق إسرائيلية كفيل بدفن تقرير جولدستون، معاريف، ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٩.

• «تهديد إسرائيلي: فلقد عرضت محافل إسرائيلية سلسلة من الأشرطة يظهر كبار مسئولي السلطة يشجعون إسرائيل على مواصلة الحملة. وهددت إسرائيل بكشف المواد على وسائل الإعلام ولجنة الأمم المتحدة.

• بشكل رسمي، يقولون في إسرائيل بأن السبب الذي دفع «أبو مازن» إلى سحب الطلب للبحث في التقرير يعود إلى أن نتنياهو أوضح بأن الخطوة ستمس مسًّا خطيرًا بالمسيرة السياسية.

• مصدر أمني كبير قال: جد صحيح القول بأنه أُلمح لمسئولين فلسطينيين بأنهم إذا ما سحبوا التأييد لتقرير جولدستون فسيحصلون على مساعدة في دفع المصالح لإقامة شبكة هاتف محمول ثانية في الضفة الغربية»[١].

• «ضغط أمريكي كبير واستئناف المفاوضات للسلام هما التفسير لهذه التعليمات»[٢].

وتعلق عميرة هاس على قرار السحب، فتقول: «في مكالمة هاتفية واحدة إلى مندوب م.ت.ف في جنيف أعرب محمود عباس عن استخفافه بالعمل الشعبي. فعلى مدى تسعة أشهر، عمل الآلاف من الفلسطينيين ومؤيديهم في الخارج ونشطاء إسرائيليين ضد الاحتلال حتى لا يُدفن هجوم الجيش الإسرائيلي في سلة المهملات.

تلوى الناطقون الفلسطينيون كي يُسوغوا الخطوة، وشرحوا بأن الحديث لا يدور عن إلغاء بل تأجيل لستة أشهر. فهل في غضون ستة أشهر سيتبنى ممثلو الولايات المتحدة وأوروبا في جنيف التقرير ؟! هل في الأشهر التالية ستطيع إسرائيل القانون الدولي ؟ هل هذا ما كان يُعرضه للخطر تبني التقرير ؟!.

عشية احتفال النصر لدى «حماس» على شرف تحرير السجينات، رفع عباس غزة إلى العناوين الرئيسة في سياق انهزامية م.ت.ف، سياق البصق في وجه ضحايا الهجوم. وأكد عمليًا، بأن «حماس» هي التي تمثل القيادة الوطنية، وأن طريقها ـ طريق الكفاح المسلح ـ يحقق الإنجازات التي لا تحققها المفاوضات.

نمط عمل وتفكير أوسلو هو نزعة التنازل العضال التي دومًا من إنتاج الرغبة في

---

(١) عميت كوهين وآخرون، تقرير جولدستون والابتزاز الإسرائيلي، معاريف، ٥/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٢) عميرة هاس، ومرة أخرى عباس يتنازل، هاآرتس، ٥/ ١٠/ ٢٠٠٩.

«التقدم». وبالنسبة لـ م.ت.ف و«فتح»، فإن التقدم هو في واقع الأمر وجود السلطة التي تعمل أكثر من أي وقت مضى كوكيل فرعي للجيش الإسرائيلي والمخابرات الإسرائيلية والإدارة المدنية.

هذه قيادة تؤمن بالمفاوضات كطريق إستراتيجي لتحقيق الدولة والانخراط في العالم الذي تصممه الولايات المتحدة. غير أنه في مثل هذا العالم يوجد أجر شخصي لنزعة التنازل هذه، وهو امتيازات للقيادة وللدوائر الفورية المحيطة بها. الأجر الشخصي يقرر التكتيك.

فهل حقًّا الخيار هو فقط بين المفاوضات وبين مسرح الكفاح المسلح ـ بين هنود حمر وجيش ذي سلاح فوق متطور ـ كما تعرضه القيادة الفلسطينية ؟ لا، الخيار الحقيقي هو بين المفاوضات كجزء من كفاح شعبي، وبين مفاوضات الشراكة التجارية حين يشكر الصغير ـ بخضوعٍ ـ الكبير على سخائه»[1].

* * *

(١) المصدر السابق.

الفصل السادس

أمريكا شريكة في الجريمة

لأمريكا دورها الواضح في صنع مأساة غزة، يقول يعقوب كاتز عن القنابل الذكية الأمريكية: «تلقت إسرائيل في شهر سبتمبر ٢٠٠٨ موافقة الكونجرس على شرائها ألف قنبلة. ووصلت الشحنة الأولى في بداية ديسمبر (كانون الأول)، واُستخدمت بنجاح خلال القصف الجوي الإسرائيلي العنيف على البنُى التحتية لحماس لاختراق مواقع تحت الأرض لإطلاق صواريخ القسام في قطاع غزة، كما اُستخدمت لتفجير أنفاق في رفح»[١].

ويؤكد ذلك مالكولم سمارت مدير برنامج الشرق الأوسط في منظمة العفو الدولية، فيقول: «يمكن القول إلى حد كبير إن إسرائيل قد شنت هجومها العسكري على غزة بأسلحة وذخائر ومعدات عسكرية زودتها بها الولايات المتحدة الأمريكية، وسدَّد تكاليفها دافع الضرائب الأمريكي.

إن واجبًا خاصًا يقع على عاتق الولايات المتحدة الأمريكية في وقف تزويد إسرائيل بأية شحنات يمكن أن تسهم في انتهاكات جسيمة لقوانين الحرب وقانون حقوق الإنسان. وينبغي على إدارة أوباما أن توقف فورًا المساعدات العسكرية التي تقدمها الولايات المتحدة

---

(١) يعقوب كاتز، سلاح الجو الإسرائيلي يستخدم القنابل الذكية التي زودتها بها الولايات المتحدة، جيرزاليم بوست، ٢٨/ ١/ ٢٠٠٩.

إلى إسرائيل»[1]، خصوصًا وأن «إمدادات الأسلحة في هذه الظروف تعتبر متناقضة مع أحكام القانون في الولايات المتحدة»[2].

غزة بين سندان الحصار الأمريكي ومطرقة سلاحه

لقد كانت غزة في حرب الرصاص المصهور واقعة تحت سندان الحصار الأمريكي وتحت مطرقة سلاحه، يقول بيتر دانزيرت : «كان بعض الباحثين الذين يتابعون روتين العقود، وعمليات النقل العسكرية، قد تنبهوا إلى أن عقود شهر ديسمبر (كانون أول) ٢٠٠٨ بالإضافة إلى كون وجهتها في هذه اللحظة هي ميناء أشدود، فهي تحتوي على كميات ضخمة، سواء من العبوات الشديدة الانفجار ـ ٨١٦ طنًّا تضمنها العقد الأول ـ أو متفجرات مصنفة ضمن فئة للسلع الخطيرة، أو الفسفور الأبيض، وقنابل مضادة للتحصينات.

تؤكد التصريحات الأمريكية على أن مثل عمليات النقل الخاصة بالإمدادات قد جرت برمجتها في وقت سابق على نشوب القتال في غزة، وليست لها أية علاقة مع احتياجات الجيش الإسرائيلي.

فلننظر إلى الحقائق القائمة على أرض الواقع، من الجائز بكل تأكيد أن تكون قد جرت مناقشة عمليات النقل واتخاذ القرار اللازم بشأنها قبل حلول شهر ديسمبر (كانون أول) بعدة أشهر مع ورود احتمال أن يكون قد تم اللجوء إلى مناقشة العملية الإسرائيلية مع المسئولين في البنتاجون قبل بدئها بفترة كافية، لكن تبقى حقيقة أن موضوع التنافس على العقود يحمل تاريخ ٤ ديسمبر (كانون أول)، وأن مواعيد الشحن والتنزيل الواردة فيه من المفترض أن تتم في وقت قصير على غير العادة؛ مما يدلل على أن العملية طارئة وليست روتينية، يضاف إلى ذلك العرض التعاقدي الأول اثنان آخران في ٣١ ديسمبر كانون أول، بعد أربعة أيام على بدء الهجوم الإسرائيلي على غزة»[3].

---

(١) منظمة العفو الدولية، استخدام الأسلحة المقدمة من الخارج ضد المدنيين من جانب إسرائيل وحماس، ٢٠٠٩/٢/٢٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بيتر دانزيرت وآخرون، من خفايا الدعم العسكري الأمريكي اللامحدود لإسرائيل، ترجمة بديع أبو عبده، العرب اليوم، ٥/ ٢/ ٢٠٠٩.

عميرة هاس تفضح المتآمرين

تقول عميرة هاس: «إدارات كلينتون، وبوش، وباراك أوباما حذفوا مصطلح «الاحتلال الإسرائيلي» من قاموسهم. مليارات الدولارات التي تحصل عليها إسرائيل من الولايات المتحدة من أجل السلاح والتقدم العسكري - والتي كان لها إسهام هام في دمار غزة - تنخرط مع الدعاية الإسرائيلية الناجحة. وكأن الأنفاق في رفح، وصواريخ الجراد، هي تهديد إستراتيجي عليها، وجزء من الهجمات الإسلامية العالمية على الأنظمة الحضارية الراقية.

الغرب ضخَّم حركة حماس وقوتها العسكرية إلى مقاييس زائفة، أتاحت فرض حصار طويل وثلاثة أسابيع من العربدة العسكرية الإسرائيلية»[1].

حتى الأموال المقدمة من الغرب تحت دعوى دعم الشعب الفلسطيني هي في حقيقة الأمر ستار لدعم إسرائيل نفسها، تقول عميرة هاس: «تأييد الدول المانحة لإسرائيل وسياستها يتناسب طرديًّا مع كمية المال الذي وُعدت السلطة الفلسطينية به. تبرع دافع الضرائب الأمريكي لحساب حكومة رام الله البنكي يعتبر قليلًا جدًّا بالمقارنة مع المبالغ الضخمة التي تتبرع بها حكومته لإسرائيل سنويًّا.

ليس من الممكن التأثر كثيرًا بالوعود الأمريكية بالتبرع بتسعمائة مليون دولار - ثلثيها موجهة لتعزيز مكانة حكومة سلام فياض والباقي لغزة - ونسيان الثلاثين مليار دولار التي وعدت واشنطن إسرائيل بها كمساعدة عسكرية حتى آخر عام ٢٠١٧.

يجب اعتبار التسعمائة مليون الموعودة في شرم الشيخ جزءًا من الدفعة الأمريكية الثابتة لإسرائيل. فإسرائيل كقوة احتلال ملزمة بضمان سلام السكان الواقعين تحت سيطرتها. ولكنها تُلحق الضرر بهؤلاء السكان، فتسارع الولايات المتحدة لتعويضها عن الضرر الذي لحق بها.

الدول الغربية تشتري من إسرائيل السلاح والمعلومات التكنولوجية والعسكرية التي تتطور في المختبر الاحتلالي المتسبب الدائم للأزمات الإنسانية.

كل فلس يُدفع للفلسطينيين - من أجل ميزانية حكومة رام الله أو العلاج الطبيعي

---

(١) عميرة هاس، مؤتمر المانحين لإسرائيل، هاآرتس، ٤/ ٣/ ٢٠٠٩.

للأطفال الذين جرحهم الطيارون وجنود المدرعات الإسرائيليون ـ هو إشارة لإسرائيل بأنها قادرة على مواصلة مساعيها لفرض تسوية استسلامية على النخبة الفلسطينية.

تأييد سياسة إسرائيل: هكذا فقط يمكن فهم مواصلة تلك الدولة إغداق مئات ملايين الدولارات على إطفاء الحرائق التي تشعلها هذه السياسة من دون أن تطفئ مصدر النار نفسه»[1].

* * *

(1) المصدر السابق.

الباب الرابع

الحملة الأكبر في تاريخ الجيش الإسرائيلي

الفصل الأول

العملية الأكثر تخطيطًا في تاريخ الصراع

تميزت حرب غزة بأنها «كانت العملية الأكثر تخطيطًا في تاريخ حروب إسرائيل»[١]. إذ «تم الإعداد لها في عام ٢٠٠٦، وتم أيضًا التدريب عليها مرتين قبل شنها»[٢]. و«سبق العملية استعدادات وجمع معلومات قامت بها المخابرات (الموساد) والاستخبارات (الشاباك) على مدى فترة طويلة»[٣]. وفي أثناء التنفيذ، كانت «كل مرحلة يعاد المصادقة عليها قبل تنفيذها، رغم أن الخطط سبق أن اجتازت مصادقات غير قليلة في السنتين الأخيرتين»[٤].

اختيار توقيت الحرب

«عندما استقر الرأي على العملية، تم الحديث كثيرًا عن نافذة الزمن التي أعطتها لإسرائيل الأعياد المسيحية: بين عيد الميلاد ونهاية السنة يكون العالم المسيحي مشغولًا بالاحتفالات لا بإخماد الحرائق في الشرق الأوسط. وموعد مهم آخر هو ٢٠ يناير (كانون الثاني)، يوم أداء أوباما اليمين الدستورية. لا تريد الحكومة بدء علاقاتها بالرئيس الجديد

(١) ألوف بن، مصداقية جولدستون، هاآرتس، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٢) ناحوم برنياع وشمعون شيفر، عدنا إليك ثانية، يديعوت، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٣) يوسي هوشع وآخرون، الحرب على غزة: الأنفاق تدمر، يديعوت، ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٤) عوفر شيلح، الجيش يتقدم ولكن أين أولمرت ؟، معاريف، ٤/ ١/ ٢٠٠٩.

بدءًا سيئًا»[1]. أي أن التوقيت جاء في المرحلة الانتقالية بين إدارتين أمريكيتين: إدارة بوش التي منحت تفويضًا كاملًا لإسرائيل كما في حرب لبنان الثانية، وإدارة جديدة تتنصل من مسئولياتها الأخلاقية تجاه هذه الحرب بدعوى أنها لم تستلم بعد.

خطة خداع حماس

«الاستعدادات للعملية أنشأت حلفًا جديدًا بين أولمرت وباراك وأشكنازي. كان الثلاثة شركاء في السر. وأشركوا تسيبي ليفني في جزء من المعلومات فقط. بحسب أقوال واحد من المشاركين: وُجدت اتصالات بحكومات أجنبية تمت من وراء ظهرها. ولم يشركوا وزراء المجلس الوزاري المصغر قط. فقد خافوا أن يتسرب ما يُبلّغ به المجلس الوزاري المصغر. ولكن مضمون جلسة المجلس الوزاري المصغر التي أجازت العملية تسرب كله إلى الإعلام. بالرغم من ذلك، نجحوا بمساعدة طائفة من الحيل بإحراز مباغتة تكتيكية:

- كان إسهام أولمرت في الحيلة إعلانه بأنه سيعقد نقاشًا آخر لآثار العملية يوم الأحد ٢٨/ ١٢.
- وكان إسهام باراك في الحيلة فتح المعابر لقافلة غذاء في يوم الخميس ٢٥/ ١٢، وهو إجراء جلب عليه النقد ممن لم يكونوا شركاء في سر العملية.
- كان قرار المهاجمة في السبت عملًا لامعًا: فإسرائيل لا يُفترض أن تبدأ حروبًا في السبت[*].

زادت المباغتة أعداد القتلى. وكان مُهمًّا أيضًا قرار أن يُرسل في الموجة الأولى عدد كبير من الطائرات المقاتلة هاجمت دفعة واحدة بمباغتة تامة. ذكّر هذا بهجوم سلاح الجو الناجح في بداية حرب الأيام الستة»[2].

وزير الحرب باراك يسرب خطة الخداع

يقول بن كاسبيت: «في هياج المعركة، تضاءلت قصة تسريب قرار المجلس الأمني

(١) ناحوم برنياع وشمعون شيفر، عدنا إليك ثانية، يديعوت، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) ناحوم برنياع، أفضل متأخرًا، يديعوت، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(*) يوم السبت يوم مقدس لدى اليهود يحرم عليهم فيه ممارسة أي عمل.

المصغر بدء عملية عسكرية في غزة. وهو التسريب الذي جعل آلافًا من أفراد حماس يتركون مواقعهم ويدخلون أنفاقهم. كان باراك نفسه هو الذي أراد أن يوقع الوزراء على تعهدات سرية شخصية مع انقضاء جلسة المجلس الأمني المصغر، كي لا تُسرِّب أو تُشوش المفاجأة الإستراتيجية لحماس. في نهاية الأمر كما تعلمون تسرب ذلك إلى الخارج. وهو تسرب اتهم به باراك ليفني، واتهمت به ليفني باراك. ولكن، ليس كلاهما على حق تمامًا، ولا على خطأ تمامًا، وإن تكن رواية ليفني أكثر صلابة بقليل: ففي الحقيقة لقد خطبت خطبة قتالية في يوم الأربعاء مساءً[1] في منتدى سياسي؛ لكنها لم تقل هناك أي شيء لم تقله عشرات المرات قبل ذلك. أما باراك، فمضى إلى منتدى نسيم مشعل، وأعلن أنه أمر الجيش بالاستعداد للعملية»[2].

نجاح جزئي لخطة الخداع

«على أية حال، تلقت حماس التحذير ونزلت تحت الأرض. كان الأمر يحتاج إلى عملية خداع محكم في أيام الخميس والجمعة والسبت لإخراج أفراد حماس إلى الخارج مرة أخرى:

- خرج جنود جولاني إلى السبت في بيوتهم بلغط كبير، فقد تحدث الجميع عن ذلك بالهواتف المحمولة؛ إذ تملك حماس معدات تنصت إيرانية متطورة.
- وفُتحت المعابر للإمدادات الإنسانية، بالرغم من أن باراك علم أن الإعلام سيوجه إليه النقد لذلك، بل تلقى طلب لائحة اتهام بالخيانة من آري إلداد.
- وقال ديوان رئيس الحكومة: إنه لن توجد مباحثات عن غزة قبل يوم الأحد.

نجحت الخدعة نجاحًا جزئيًا فقط. فلم يخرج الجميع من أنفاقهم. في الأصل كان يُفترض أن تفقد حماس في الهجوم الأول من ٦٠٠ إلى ٧٠٠ من النشطاء لا ٢٥٠ ناشطًا[3]»[4].

---

(١) الأربعاء ٢٤/ ١٢/ ٢٠٠٨ قبل الحرب بثلاثة أيام.

(٢) بن كاسبيت، نلعب من سبت إلى سبت، معاريف، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٣) هؤلاء من يسميهم بن كاسبيت نشطاء هم في الواقع جنود وضباط في شرطة غزة، وهم هيئة مدنية طبقًا لأحكام القانون الدولي لا يجوز مطلقًا استهدافهم بالقصف.

(٤) بن كاسبيت، نلعب من سبت إلى سبت، معاريف، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.

حرب بتنسيق كامل بين كافة أجهزة إسرائيل

«بدأ الأمر بضربة جوية مخطط لها، ودقيقة وفتاكة. عمل نموذجي استخباري، وغرفة حرب مشتركة بين الشاباك والجيش الإسرائيلي لأول مرة في ساعة الحرب»[1].

«قبل دقائق من هجوم سلاح الجو الأول، أعلن أشكنازي الانتقال إلى «ساعة قتال». بدّل مقر القيادة العامة للجيش الإسرائيلي القرص، ونزل إلى وكر القيادة. يوجد بين وكر مقر القيادة العامة ووكر سلاح الجو ممر تحت الأرض.

تعمل غرفة عمليات مشتركة للجيش الإسرائيلي والشاباك في بئر السبع وتل أبيب. تتم ثلاثة تقديرات وضع رئيسية كل يوم في السادسة والنصف صباحًا، وفي الرابعة والنصف بعد الظهر، وقبل منتصف الليل بقليل. الشاباك وشعبة الاستخبارات موترتان حتى آخر النزاع وتحاولان مجاراة الأحداث وإصدار تقديرات، ومقاصد وأهداف.

هنالك جهاز إعلام منظم، وحديث واعٍ وموضوعي. في كل ما يتعلق بطريقة استعمال القوة يثور انطباع أن الجيش الإسرائيلي تعلم دروس فينوجراد»[2].

دور قيادة الجبهة الداخلية والإعلام

قيادة الجبهة الداخلية هي المسئولة عن إجراءات الحماية للداخل الإسرائيلي، والتعامل مع احتمالات حدوث الخسائر البشرية، ومحاولة التقليل منها، والتعامل أيضًا مع الإصابات البشرية أو الاقتصادية أو العمرانية، يقول ناحوم برنياع: «تأخذ الحكومة في حسابها إمكان إجلاء جماعي عن البلدات. وستكون قيادة الجبهة الداخلية التي غابت في حرب لبنان الثانية العنوان الرئيسي في بلدات غلاف غزة. ولقد تمت استعدادات لإسكان عشرات الآلاف. عدم التحصين في الجنوب يقتضي تعجيل العملية وإنهاءها سريعًا قدر المستطاع.

أعلن وزير الدفاع حالة طوارئ. لم يحدث هذا في حرب لبنان الثانية. وكان من جملة أسباب ذلك معارضة وزارة المالية. يُمكّن الإعلان قيادة الجبهة الداخلية من السيطرة على القيادة»[3].

---

(١) بن كاسبيت، بلا توقعات، معاريف، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٢) بن كاسبيت، نلعب من سبت إلى سبت، معاريف، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٣) ناحوم برنياع، أفضل متأخرًا، يديعوت، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨.

الفصل الثاني

الحملة الأضخم في تاريخ الجيش الإسرائيلي

حرب الرصاص المصهور تميزت ـ حسب أحد مخططيها ـ بأنها «الحملة الأضخم في تاريخ الجيش الإسرائيلي»[1]. نعم هي الحملة الأضخم في تاريخ الصراع وذلك للحشد العسكري السياسي الإسرائيلي الكبير لهذه الحرب، والاختلال الكبير في موازين القوى المادية بين طرفيها، وكم ونوعية السلاح الإسرائيلي المستخدم فيها، ولظروف قطاع غزة الذي أنهكه الجوع والحصار.

هي الحملة الأضخم أيضًا لما واكبها من «سياسة حرب لم يسبق لها مثيل»[2]. ولما أُرتكب فيها من جرائم حرب ولما نجم عنها مندمار هائل لم تصدقه عينا جولدستون نفسه، وهو اليهودي المتعاطف مع إسرائيل وصاحب الماضي الصهيوني[3].

حرب هي «أكثر الحروب وحشية في تاريخ إسرائيل»[4]، هدفها «إعادة غزة إلى القرون الوسطى»[5]، طالت كل شبر في غزة، وطالت كل فرد وبناء فيها، حتى إن لجنة جون دوجارد سمت تقريرها: «لا مكان آمن»[6].

---

(١) ناحوم برنياع، أولمرت حققنا ما أردنا، يديعوت، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) سبق ذكره في الباب السابق في فصل شهادات دولية على الجريمة.

(٣) انظر الفصل المتعلق بتقرير جولدستون في الباب السابق.

(٤) جدعون ليفي، بطل إسرائيل، هآرتس، ١٦/ ٧/ ٢٠٠٩.

(٥) أليكس فيشمان، إعادة غزة إلى القرون الوسطى، يديعوت، ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٦) مصدر سبق ذكره في فصل شهادات دولية على الجريمة.

وبدلًا من أن يأتي المطر بالخير، سلطت إسرائيل أمطار أسلحتها من الفسفور الأبيض الذي يصهر البشر والحديد حتى إن هيومان رايتس ووتش سمت تقريرها عن الحرب: «أمطار النار»(١).

وبدلًا من أن تسد إسرائيل حاجات القطاع، بصفتها دولة احتلال ملزمة بذلك طبقا لاتفاقية جنيف الرابعة والبروتوكول الإضافي، أنشأت مصانع لبتر الأطراف في القطاع الصامد حسب شهادة مادس جيلبرت.

نعم هي الحملة الأضخم في تاريخ الحروب الإسرائيلية؛ لأنها هي «الجولة الأكثر نزفًا في الصراع»(٢)؛ ولأنها حرب اعتمدت سياسة «شطب البيوت»(٣)، وكانت الأوامر فيها «دمِّروا مائة منزل مقابل كل صاروخ يُطلق»(٤).

هي الحملة الأضخم في تاريخ الجيش الإسرائيلي لأسباب كثيرة ومتعددة. حرب ستظل محفورة في ذاكرة الصراع، وفي ذاكرة الأمة. كما أنها ستظل محفورة في سجل النضال الفلسطيني، كحرب استطاعت فيها قوة مقاومة الصمود طيلة ثلاثة أسابيع أمام أكبر جيش في المنطقة وواحد من أفضل جيوش العالم.

حرب بتوافق داخلي ودولي وتأييد إقليمي مستتر

«منذ بداية المعركة العسكرية في قطاع غزة ساد إجماع شبه تام في الساحة السياسية حول أهداف العملية وضرورتها. من اليمين ومن اليسار، ساندوا قرار الحكومة الخروج في معركة ضد حماس»(٥). كما «تمتعت إسرائيل بإسناد من الإدارة الأمريكية وبقدر كبير أيضًا من الدول في أوروبا. كما أنها تتمتع بتماثل مصالح نادر مع رؤساء الدول العربية المعتدلة.

هذه الدول تنقل إلى القيادة الإسرائيلية رسائل حادة لا تقل عن تصريحات السياسيين الإسرائيليين: اضربوا «حماس»، ولا تسمحوا لهنية بالتحول إلى نصر الله الثاني. في هذه

(١) تقرير أمطار النار تحدثنا عنه فصل حرب غزة والأسلحة المحظورة.
(٢) نير غونتاج، الجولة الأكثر نزفًا في الصراع، يديعوت، ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٣) بن كاسبيت، صورة نصر، معاريف، ١٥/ ١/ ٢٠٠٩.
(٤) تقرير بعثة جولدستون، الموجز التنفيذي، مصدر سابق، ص ١٤.
(٥) ماتي توخفيلد، وقف نار آخر والصواريخ ستصل إلى تل أبيب، إسرائيل اليوم، ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٨.

الحرب، يجب أن تخرج حماس مضروبة ومرضوضة بحيث لا ترفع الرأس لفترة طويلة»[1]. ولقد وقفت سلطة أوسلو في هذه الحرب موقف المحرض على شنها والاستمرار فيها.

حشد عسكري إسرائيلي كبير

«نشرت إسرائيل قواتها البحرية والجوية والبرية، واشتملت العمليات العسكرية في قطاع غزة على مرحلتين رئيسيتين: مرحلة القصف الجوي، والمرحلة الجوية الأرضية. وبدأ الهجوم الإسرائيلي بهجوم جوي استمر أسبوعًا، في الفترة من ٢٧ ديسمبر (كانون الأول) إلى ٣ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٩.

وواصلت القوات الجوية القيام بدور هام في مساعدة وتغطية القوات الأرضية في الفترة من ٣ يناير (كانون الثاني) إلى ١٨ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٩. وكان الجيش مسئولًا عن الغزو البري، الذي بدأ في ٣ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٩،عندما دخلت القوات البرية غزة من الشمال والشرق.

وتشير المعلومات المتاحة إلى أن ألوية جولاني وجفعاتي والمظليين وألوية سلاح المدرعات الخمسة قد اشتركت في العملية. واستُخدمت البحرية جزئيًا لقصف ساحل غزة أثناء العمليات[2].

بالإضافة إلى ذلك، فقد استدعت إسرائيل أيضًا قوات كبيرة وضخمة من الاحتياطي، ففي يوم ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨ «أُعلن عن تجنيد احتياط بحجم ٦٧٠٠ رجل»[3]، ثم «جندت ٢٥٠٠ جندي»[4]. ومع بدء الحرب البرية، «استُدعي، بأوامر طوارئ، عدد كبير من وحدات الاحتياط»[5].

---

(١) شمعون شيفر وآخرون، حماس يجب أن تخرج مضروبة ومرضوضة بحيث لا ترفع الرأس، يديعوت، ٤/١/٢٠٠٩.

(٢) تقرير بعثة جولدستون، الموجز التنفيذي، مصدر سابق، ص ٦.

(٣) أليكس فيشمان، أين القسام؟، يديعوت، ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٤) بن كاسبيت، بلا توقعات، معاريف، ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٥) عاموس هرئيل وآخرون، الهدف: كسر روح حماس، هاآرتس، ٤/ ١/ ٢٠٠٩.

فرق شاسع في موازين القوى المادية

«إسرائيل هي ثالث مُصدر للسلاح في العالم بعد الولايات المتحدة وفرنسا»[1]. وهي «حسب وثيقة نشرها سلاح الطب في الجيش الأمريكي، هي قوة عظمى نووية»[2]. و«تمتلك معدات متقدمة جدًّا، كما أنها أحد من يتصدر سوق إنتاج بعض أكثر منتجات التكنولوجيا العسكرية تقدمًا، بما في ذلك الطائرات الموجهة بلا طيار.»[3].

أما الخصم وهو حماس، فلديها: «نحو ٣ آلاف صاروخ. نحو ٨٠٪ منها قسام، مستوى دقته ليس عاليًا، وضرره قليل بشكل عام. هذا مقلق ومخيف نفسيًّا»[4].

ولكن حتى لا نغمط المقاومة حقها، ولا نهدر أهمية ما اعتمدت عليه في مواجهة هذا الاختلال الهائل في موازين القوى، والذي سنفرد له بابا كاملًا تحت عنوان قوة الضعف وضعف القوة، نذكر هنا ما قاله عوفر شيلح في بدء الحرب البرية: «وزير الجيش ورئيس الأركان ليسا ضالين وراء التفوق النسبي. إيهود باراك يعرف جيدًا أن الاختبار لم يبدأ أمس الأول، ولن يكون اليوم ؛ بل في الأيام المقبلة. التحرك إلى الأمام سيكون معناه الدخول بشكل أكثر كثافة إلى المناطق المبنية، والمخاطرة بحدث تأسيسي تسعى إليه حماس: ضربة هامة لقوة من الجيش الإسرائيلي، اختطاف جندي، تفجير دبابة في حفرة لغم كبيرة من النوع الذي أعد في غزة في السنتين الأخيرتين»[5].

ونذكر أيضًا أن هذا السلاح القليل الذي كانت تمتلكه حماس، تعتبره إسرائيل «محطما للتوازن لقدرته على الوصول إلى عمق إسرائيل ومراكزها الحيوية وقواعدها الإستراتيجية»[6]. كما أن «حماس» تمتلك ـ كما يقول مات شانسيز مراسل قناة فوكس نيوز الأمريكية ـ سلاحًا «لا تستطيع إسرائيل تملكه أو التغلب عليه: سلاح المقاتل الفلسطيني»[7]. وتمتلك أيضًا سلاح الشعب الفلسطيني الصامد.

---

(١) يوسي ميلمان، صلافة في وجه روسيا، هاآرتس، ١/ ٩/ ٢٠٠٩.

(٢) أمير أورن، الجيش الأمريكي: إسرائيل تحتفظ بسلاح نووي وعلى ما يبدو بسلاح كيماوي، هاآرتس، ١٣/ ٩/ ٢٠٠٩.

(٣) تقرير بعثة جولدستون، الموجز التنفيذي، مصدر سابق، ص ١٤.

(٤) عاموس هرئيل وآفي يسسخروف، هذا ما يجري اليوم خلف كواليس السياسة الإسرائيلية: هاآرتس، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٥) المصدر السابق.

(٦) أليكس فيشمان، يقتربون من تل أبيب، يديعوت، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٧) مات شانسيز، سلاح حماس الذي لا تستطيع إسرائيل التغلب عليه، موقع قناة فوكس نيوز الأمريكية، ٦/ ١/ ٢٠٠٩.

الباب الخامس

الإدارة الإسرائيلية للحرب

الفصل الأول

أسود تقودها حمير[1]

دخلت إسرائيل الحرب في غزة «في ظروف سياسية مريحة لا مثيل لها. وساندت الأسرة الدولية في البداية العملية الإسرائيلية، التي عُرضت كرد على الإرهاب»[2]. وكانت «أهداف الحملة والشروط الجديدة لإنهائها، والتي يطرحها رئيس الوزراء إيهود أولمرت تبدو تمامًا كتلك التي عرضها في خطابه في الكنيست في ١٧ يوليو (تموز) ٢٠٠٦. في حينه، صرح بأن الحرب ترمي إلى: إحلال وقف نار تام على الحدود الشمالية، انتشار الجيش اللبناني في كل مناطق جنوب لبنان، إخراج حزب الله من المنطقة، والإزالة التامة لتهديد الصواريخ على سكان إسرائيل. أما في المداولات الداخلية، فقد وعد بأن الحرب ستستمر حتى إزالة حكم حماس من القطاع»[3].

ولكن، فقد فشلت إسرائيل في تحقيق أهدافها، وذلك لإخفاقها على المستوى السياسي، ولغياب الرؤية الإستراتيجية لهذه الحرب، وللأداء السيئ لقيادتها العسكرية ووحداتها المقاتلة، وأيضًا لنتائج الحرب العكسية على مصالحها، ومصالح حلفائها.

---

(١) أنتوني كوردسمان، انتصارات تكتيكية وهزيمة إستراتيجية، مصدر سابق، ص ٢٢٠.

(٢) أسرة التحرير، الصحوة من سكرة القوة، هاآرتس، ١/ ٢/ ٢٠٠٩.

(٣) أسرة التحرير، حملة الرصاص المصهور وعملية التسيس، هاآرتس، ١٣/ ١/ ٢٠٠٩.

أسود تقودها حمير

يخلص أنتوني كوردسمان إلى أن التخبط السياسي الإسرائيلي في إدارة هذه الحرب شبيه بما وقعت فيه بريطانيا في الحرب العالمية الأولى: قوة كبيرة تفتقر إلى القيادة، أو بعبارة ذات دلالة بالغة «أسود تقودها حمير»، يقول كوردسمان: «هل سينتهي أمر إسرائيل إلى تمكين عدو بالمعنى السياسي كانت قد هزمته بالمعنى التكتيكي ؟ هل ستُلحق أفعال إسرائيل في هذا السياق ضررًا بالغًا بالموقف الأمريكي في المنطقة، وبأي أمل بالسلام، وكذلك بالأنظمة والأصوات العربية المعتدلة ؟. إذا شئنا الصراحة، يبدو أن الجواب حتى الآن هو نعم. وإذا شئنا إعادة صوغ تعليق على إدارة الحكومة البريطانية للجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى، نقول إن أسودًا تقودها حمير على ما يبدو»[1].

الجيش الإسرائيلي كمن يتخبطه الشيطان من المس

ليست الإدارة السياسية الإسرائيلية هي وحدها التي تستحق لقب «حمير تقود أسودًا» ؛ بل كان الجيش الإسرائيلي أيضًا وقيادته العسكرية يستحقان هذا اللقب عن جدارة، يقول بن كاسبيت: «يستحق الجيش الإسرائيلي كلمة مستقلة. صحيح أنه جيش جديد، ومختلف، وهادئ ومتواضع ومدرب وناجع. من جهة ثانية خوف التنفيذ فظيع. القيادة العليا مترددة. يفكر الجميع في لجان التحقيق، وفي المصابين، وفيما سيقول الإعلام.

دخل الجيش الإسرائيلي غزة كمن يتخبطه الشيطان من المس. يمشي على البيض. هذا جيد من جهة ما، لكنه خطر أيضًا. فعندما يمشى على البيض لا يكون وصول»[2].

دولة آخذة في الغرق

هذا التخبط السياسي الإسرائيلي له تأثيره على مستقبل إسرائيل، يقول عوفر شيلح:

(١) أنتوني كوردسمان، مصدر سابق، ص ٢٢٠.

(٢) بن كاسبيت، وجهات نظر الساسة الإسرائيليين الكبار بالنظر إلى الحرب، معاريف، ٢٠٠٩/١/٩.

«دولة آخذة في الغرق في مسيرة صبيانية وخصخصة يمكنها أن تحتفل بعودة الابن[1]، دون أن تستوعب بأن الطريق التي عولجت فيه قضيته، والحملة التي ضربت (حماس) ضربة شديدة، منحتا المنظمة الإسلامية نصرًا ما كان يمكنها حتى أن تحلم به»[2].

* * *

(١) يقصد الأسير الإسرائيلي لدى حماس الجندي جلعاد شاليط.

(٢) عوفر شيلح، جلعاد سيعود .. حماس ستنتصر، معاريف، ١٠/ ٢/ ٢٠٠٩.

الفصل الثاني

رب البيت جُن جنونه

لقد اتبعت إسرائيل في حرب غزة سياسة «رب البيت جُن جنونه»، يقول ميرون بنبنستي: «أراد محدثو عملية الرصاص المصهور أن يميزوها بتعريفين متناقضين: «رب البيت جُن» ويرد بوحشية مجنونة، و«غضب مضبوط» أيضًا، أي عملية عقلانية ترمي إلى الردع. ينبغي أن نضيف إلى هذين التعريفين تعريفًا آخر وهو أنها رد غريزي مكرر من جماعة مهاجرين مغتصبة، يرمي إلى أن يَسم وعي الواقعين تحت الاحتلال: بعدم جدوى بقاء واستمرار المقاومة»[1].

هذه السياسة سماها تقرير جولدستون بنظرية الداهية، فيقول: «تتسق التكتيكات التي استخدمتها القوات المسلحة الإسرائيلية في هجوم غزة مع ممارسات سابقة، كان أحدثها أثناء حرب لبنان في عام ٢٠٠٦. فقد ظهر حينئذ مفهوم يُعرف باسم نظرية الداهية، والذي ينطوي على استخدام قوة غير متناسبة، ويتسبب في إحداث ضرر ودمار كبيرين للممتلكات والهياكل الأساسية المدنية، والمعاناة للسكان المدنيين»[2].

سياسة الحرب هذه دأبت إسرائيل على استخدامها ضد الشعب الفلسطيني. وهي تقوم على محاور ثلاثة، هي:

---

(١) ميرون بنبنستي، الويل للمنتصرين، هاآرتس، ٢٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) تقرير بعثة جولدستون الموجز التنفيذي، مصدر سابق، ص ١٤.

- الصدمة والترويع.
- شن حرب نفسية واسعة النطاق على الشعب الفلسطيني.
- تشديد الحصار، والمنع شبه الكامل لدخول المساعدات والغذاء والمحروقات.

الصدمة والترويع

استخدمت إسرائيل النيران بكثافة شديدة وبنوعيات عالية الدقة وذات قدرة تدميرية هائلة على رقعة جغرافية محدودة والأرقام شاهدة على ما نقول:

- حتى ٢/ ١/ ٢٠٠٩: «نفذت» الطائرات القتالية نحو خمسمائة طلعة»[١].
- حتى ١٣/ ١/ ٢٠٠٩: «نُفذت ١٢٠٠ غارة لسلاح الجو على أهداف تتراوح بين منصات إطلاق للصواريخ، وحتى مؤسسات الدعوة لحماس التي هوجمت ٢٣ مرة»[٢]، أي بواقع ١٢٩ طلعة جوية يوميًا.
- ألقى سلاح الجو وحده نحو ألف وخمسمائة طن مواد متفجرة على غزة، قسم كبير منها هو تسليح دقيق. هذه ذخيرة من شأن الجيش الإسرائيلي أن يحتاج إليها في المواجهات الأكبر في لبنان، وسوريا، وإيران»[٣].
- «حاولت إسرائيل مرتين على الأقل اغتيال رئيس الذراع العسكري لحماس أحمد الجعبري. في إحدى الحالتين، ألقى سلاح الجو قنبلتين بوزن طن على مبنى كان يبدو أن الجعبري يمكث فيه مع مجموعة من نشطاء آخرين من الذراع العسكري. أحد رجال حماس قُتل، ولكن الجعبري نفسه لم يصب بأذى»[٤].

حتى اختيار التوقيت لبدء الحرب كان مقصودًا به إيقاع أكبر كم من الخسائر البشرية خصوصًا في الأطفال، تقول عميرة هاس: «إن من أعطى أمرًا لنحو مائة من الطيارين

---

(١) يوئيل ماركوس، يا حلو الكيلومترات تقلصت، هاآرتس، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) عوفر شيلح، ماذا نريد، معاريف، ١٣/ ١/ ٢٠٠٩.
(٣) عاموس هرئيل وآفي يسسخروف، نهاية مع وقف التنفيذ، هاآرتس، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.
(٤) عاموس هرئيل، الاستخبارات الإسرائيلية تحقق إذا كانت حماس صفت عملاء في غزة، هاآرتس، ٢٩/ ١/ ٢٠٠٩.

المقاتلين ليقصف أهدافًا للعدو في غزة يعلم جيدًا أسماء المدارس التي تجاور أهدافًا كثيرة جدًّا، ولا سيما محطات الشرطة المدنية في يوم السبت في الحادية عشرة ظهرًا، زمن المفاجأة الضخمة التي أعددناها للعدو، كان جميع أولاد القطاع في الشوارع، نصفهم أنهى في الحال نوبة الدراسة الأولى، والنصف في الطريق إلى النوبة الثانية»[1].

حرب نفسية ضارية

شنت إسرائيل حربًا نفسية شديدة لا تقل ضراوة عن الهجوم العسكري، فقامت «بإسقاط أكثر من ٢,٥ مليون منشور، وأجرت أكثر من ١٦٥ ألف مكالمة هاتفية. هذا عدا الطلقات التحذيرية لأسطح المنازل لتحذير المدنيين لينأوا بأنفسهم عن العمليات العسكرية»[2]. ولكن تقرير جولدستون يعلق على ذلك، فيقول: «تلاحظ البعثة وجود عوامل، قوّضت على نحو يُعتد به فعالية التحذيرات الصادرة، وهذه العوامل تشمل عدم التحديد في كثير من الرسائل الهاتفية المسجلة مسبقًا والمنشورات ومن ثم عدم مصداقيتها. كما أن مصداقية التعليمات الصادرة بالانتقال إلى مراكز المدن؛ توخيًا للسلامة قد قلَّل منها أيضًا، حقيقة أن مراكز المدن كانت موضع هجمات مكثفة. وبحثت البعثة أيضًا الممارسة المتمثلة في إسقاط متفجرات أخف على أسطح المباني أو ما يُطلق عليه طَرْق الأسطح. وهي تخلص إلى أن هذا الأسلوب غير فعّال كتحذير، ويشكل نوعًا من أنواع الهجوم على المدنيين الذين يقطنون المبنى. وأخيرًا، تشدد البعثة على أن إصدار التحذير لا يعفي القادة وتابعيهم من مسؤولية اتخاذ جميع التدابير الممكنة الأخرى للتمييز بين المدنيين والمقاتلين»[3].

تشديد الحصار على قطاع غزة

حاولت إسرائيل تركيع القطاع عبر تشديد الحصار المشدد عليه أصلًا. ففي تقرير لمنظمة هيومان رايتس ووتش[4] جاءت محتوياته صادمة لكل حس إنساني، نقرأ أوضاع القطاع في المجال الطبي، فكيف بالمجالات الإنسانية الأخرى ؟!:

(١) عميرة هاس، هكذا نحبهم، هاآرتس، ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٢) دولة إسرائيل، العملية الجارية في غزة: الجوانب الوقائعية والقانونية، يوليو ٢٠٠٩، ص ٣.

(٣) تقرير بعثة جولدستون، الموجز التفيذي، مصدر سابق، ص ٨.

(٤) هيومان رايتس ووتش، حياة الحرمان والخطر، موقع منظمة هيومان رايتس ووتش، ٢٢/ ١/ ٢٠٠٩.

أعلى معدل إصابات

«تُعد الإصابات والخسائر في أول ١٧ يومًا هي الأعلى في النزاع الإسرائيلي الفلسطيني منذ عقود، وقد فاقت كثيرًا قدرة المرافق الصحية والمستشفيات في غزة على التحمل. أكثر من ٤٠٪ من القتلى و٥٠٪ من المصابين هم من النساء والأطفال. وحتى ١١ يناير (كانون الثاني)، كان ٤١٣ من المصابين في حالة حرجة تتطلب العناية المركزة.

حصار الجرحى

ومن المشكلات الجدية الأخرى عدم القدرة على نقل الأشخاص المصابين إصابات حرجة إلى خارج قطاع غزة، أو الذين يحتاجون إلى عناية مركزة لفترة طويلة. ولا يتوفر إلا خياران: سواء إلى إسرائيل عبر معبر إيريز، أو إلى مصر عبر معبر رفح.

مستشفيات بلا كهرباء

تأثرت المستشفيات جراء انقطاع الكهرباء بعد توقف محطةِ كهرباء غزة من ٣٠ ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠٨ إلى ١٠ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٩. واعتمدت بشكل حصري على مولدات الكهرباء. حتى ٧ يناير (كانون الثاني) لم يكن هناك من وقود في مستشفى الشفاء - المستشفى الرئيسي في غزة - إلا ما يكفي لتشغيل المولد الكهربائي لثلاثة أيام فقط، وفي مستشفى غزة للأطفال كمية أقل. ونفد الوقود من سيارات الإسعاف في مستشفى كمال عدوان.

نقص الدواء والأطباء

٧٠٪ تقريبًا من أصحاب الأمراض المزمنة أُجبروا على وقف علاجهم بسبب الوضع الأمني. وبالنسبة للجرحى الذين ينجحون في الوصول إلى منشأة طبية، فإن العلاج بدائي؛ لأن العاملين الطبيين يواجهون عددًا هائلًا، يحتاجون لإنقاذ حياتهم. ولا يوجد ما يكفي من الأطباء والممرضات في المستشفيات. وفي ٥ يناير (كانون الثاني) حاولت اللجنة الدولية للصليب الأحمر بلا جدوى أن تنسق المرور الآمن لحافلة فيها ٥٨ شخصًا من العاملين بالمستشفيات لبلوغ أماكن عملهم.

حالة مروعة

في حالة مروعة على نحو خاص، أفادت اللجنة الدولية للصليب الأحمر: أنه في ٧ يناير

(كانون الثاني) حصلت عربة للجنة برفقة أربع سيارات إسعاف للهلال الأحمر الفلسطيني للمرة الأولى على حق الدخول إلى عدة منازل في حي الزيتون في مدينة غزة، وكانت القذائف الإسرائيلية قد أصابتها. وقالت اللجنة إنها طلبت الإذن من الجيش الإسرائيلي منذ ٣ يناير (كانون الثاني) للدخول إلى المنطقة، لكن الجيش الإسرائيلي لم يمنحها الإذن إلا بعد أربعة أيام. وعثر الطاقم على ١٢ جثة ملقاة على حشية فراش وأربعة أطفال صغار يرقدون إلى جوار أمهاتهم القتلى. وكان الجنود الإسرائيليون على مسافة ٨٠ مترًا لدى وصول المسعفين. وحين وصل المسعفون أخيرًا أمرهم الجنود بالمغادرة ؛ لكن المسعفين رفضوا. ثم منعهم الجنود من نقل الجثث إلى سيارة الإسعاف فاُضطروا إلى نقل الجثث على عربة يجرها حمار.

ـب البيت جُن جنونه في الضفة أيضًا

لقد حاولت إسرائيل بشتى الوسائل المجنونة وأد أي احتجاج فلسطيني في الضفة، يقول تقرير جولدستون[1]: «العمليات الإسرائيلية في قطاع غزة تسببت في موجة من التظاهرات في الضفة التي لم تنته عندما انتهت العمليات. أعداد اعتقالات الأطفال كانت مرتفعة مع ارتفاع النسبة المئوية للأطفال المتهمين برشق بالحجارة، مما يشير إلى أنهم اُعتقلوا أثناء المظاهرات».

ولقد «خلصت اللجنة الدولية للدفاع عن الأطفال فرع فلسطين في تقريرها الذي صدر في ٩/ ٦/ ٢٠٠٩ إلى أن الاعتداء على الأطفال الفلسطينيين من قبل السلطات الإسرائيلية كان بشكل منهجي ومؤسسي.

وفي بيان صدر يدعم تقرير الحركة من اليونيسيف ومنظمة الصحة العالمية ومفوضية حقوق الإنسان الدولية ذكر أن: المحاكم العسكرية الإسرائيلية تنتهك الكثير من الحقوق الأساسية للمحاكمة العادلة وفقًا للقانون الإنساني الدولي وقانون حماية الإنسان. وعلى سبيل المثال، تقريبًا في جميع الحالات فإن الأدلة الأولية المستخدمة لإدانة الأطفال هو الحصول على اعتراف من خلال التحقيقات القسرية التي أُجريت في غياب محام. التهمة الأكثر شيوعًا التي وُجهت لهؤلاء الأطفال هي إلقاء الحجارة في ٢٧٪ من الحالات، والتي

---

(١) تقرير بعثة جولدستون، النص الإنجليزي، ص ٤٠٩، ٤١٠.

تحمل عقوبة أقصاها ٢٠ سنة مع احتمال صدور أحكام قاسية. في ٩٥٪ من الحالات انتهت باعتبارهم مذنبين سواء وقعت الجريمة أم لا.

في ٥ أغسطس (آب) ٢٠٠٩، نشر موقع البي بي سي أن قائدًا سابقًا في الجيش الإسرائيلي قال للبي بي سي أن الصغار الفلسطينيين كانوا يعاملون بصفة روتينية بطريقة قاسية أثناء احتجازهم. كول إفراتي الذي ترك الجيش من خمسة شهور سابقة قال: أنا لم أحتجز أحدًا قط عمره أقل من تسع أو عشر سنوات ؛ أما من هم في الرابعة عشرة أو الثالثة عشرة أو الحادية عشرة فهم بالنسبة لي ما زالوا أطفالًا؛ ولكنهم يُحتجزون كالكبار. كل جندي كان في المناطق المحتلة سيروي لك نفس القصة. الأشهر الأولى بعد أن تركت الجيش، كنت أحلم بالأطفال العرب واليهود باستمرار».

إذا كان هذا هو تعامل الاحتلال مع أطفال لم يبلغوا الـحُلم بعد، فكيف بتعامله مع النساء والرجال والشيوخ والشباب. وإذا كان هذا هو التعامل في الضفة في ظل سلطة رام الله التي قمعت الشعب الفلسطيني ومنعته في الغالب الأعم من مناصرة إخوانه في غزة، فكيف إذن بأهل غزة في ظل هذا القتال الضاري والآلة العسكرية المجنونة والتصرفات الوحشية والسادية لقوات مذعورة تخشى حتى خيالاتها؟

* * *

الفصل الثالث

أوهام النصر: تنبؤات مبكرة بالفشل

تحدث بعض الإسرائيليين منذ بدايات الحرب عن توقعاتهم بفشل إسرائيل في تحقيق أهدافها من هذه الحرب، مهما كان حجم النيران المستخدمة، ومهما حاولت إسرائيل اقتلاع المقاومة والقضاء فى هذه الحرب على قيادتها، ومهما حاولت أيضًا تركيع القطاع الصامد.

مسبوكة من رصاص قديم

يسترجع يغئال سيرينا دروس الانسحاب الإسرائيلي من لبنان سنة ٢٠٠٠، ثم من غزة سنة ٢٠٠٥، فيقول: «كما في لبنان قادنا انسحاب غزة الأبكم إلى فترة الصواريخ. صواريخ غزة تذكار للمكان الذي لم نُعلمه شيئًا سوى إطلاق النار، وتركناه بعد ذلك لنفسه.

في الجبهتين اللتين انسحبنا منهما عسكريًّا تركنا ورمًا دائمًا، مرضا يستصرخ الجيش لعلاجه، وبمحاولته يُهزم مرة بعد أخرى، لأن الهدوء والسكينة لا ينشآن البتة من اليأس والقتل. حتى لو سُويت غزة بالأرض، فلن ينشأ أي هدوء، بل انتقام يأتي من السكون ومن الأعشاب ومن القبور»[1].

(١) يغئال سيرينا، مسبوكة من رصاص قديم، يديعوت، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨.

أوهام النصر

تحت هذا العنوان، كتب تسفي برئيل عن سيناريوهين إسرائيليين لحرب غزة: أحدهما جامح محلق في الخيال، والآخر حقيقي شبيه بما جرى في حرب لبنان ٢٠٠٦، يقول الكاتب: «هناك سيناريو جديد يلقي بظلاله على السياسيين وعلى الجمهور: يسمونه عملية عسكرية واسعة. هذا مصطلح يضم في ثناياه كل الأمنيات الخفية في السرائر: انتقام من إطلاق النار والصواريخ، استعادة مكانة وهيبة إسرائيل، توجيه ضربة جسيمة لحماس، التعويض عن فك الارتباط عن غزة، توجيه رسالة حادة لإيران، تهديد مبطن لحزب الله، وكذلك التعبير عن قلق الحكم في إسرائيل لمواطنيه، وتسجيل بضعة نقاط استعدادا للانتخابات.

الخيال في حالة نشاط، وأنشودة المجد والفخار تعزف. ها هي الطائرات الحربية قد قصفت أهدافًا في قلب غزة، وغدًا قد يدخل آلاف الجنود مقتحمين أزقتها. غدًا قد يقضون على إسماعيل هنية ومشير المصري ومحمود الزهار. الجيش الإسرائيلي يسيطر على مواقع السيطرة التابعة لحكومة حماس، والناطق باسمه يرسل للصحافة آلاف الصور عن الأسلحة والصواريخ التقنية التي ضُبطت في المخازن. جنود الوحدات الخاصة يشقون طريقهم نحو المكان الذي يختبئ فيه جلعاد شاليط، والجندي المخطوف يعود إلى والديه سليما معافى. الانتخابات - كما سيصرح المذيع - ستُجرى في موعدها. ويتبقى لتسيبي ليفني وإيهود باراك وبنيامين نتنياهو خوض الكفاح من أجل حقوق طبع الحرب الناجحة التي كانت في غزة.

هذا كان السيناريو الخيالي؛ ذلك لأن السيناريو الحقيقي لا يُعرض علينا. ربما سيُعرض علينا عندما تتشكل لجنة التحقيق التي ستحقق فيما حدث في غزة»[1].

إسرائيل لم تنتصر في حرب

يقول إبراهام بورج رئيس الكنيست الأسبق: «منذ حرب الأيام الستة لم ننتصر قط. لماذا تنتهي حروبنا بنغمة ضبابية ثابتة؟ أعتقد أنه لا يمكن بعدُ الانتصار في الحروب. ليس فقط أننا لا نستطيع، وإنما لا يستطيع الغرب كله. من الصعب أن أتذكر حربًا واحدة في الستين

(١) تسفي برئيل، أوهام النصر في غزة، هاآرتس، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨.

عامًا الأخيرة انتصرت فيها الولايات المتحدة نصرًا مبينًا. لديها جيش هائل؛ ولكن أمريكا أيضًا لا تنتصر. فيتنام انتهت بالعار. حربا الخليج (الأولى والثانية) لا توصف كإنجازات عسكرية مفتخرة.

وعليه، يبدو أن القيادة الإسرائيلية ستفشل. فشلٍ أساسه تجاهل التحوّل في مفهوم الانتصار: من الحسم إلى النقاش، من القتل إلى بناء الجسور. هنالك جسر من سديروت إلى غزة. من لا يَسْر عليه، فإنه يقود شعبه إلى فشل في جميع حروبه»[1].

ليس هناك حل عسكري للصراع بين إسرائيل وحماس

يقول المؤرخ آفي شليم: «لا يمكن لأي قدر من التصعيد العسكري الذي تقوم به إسرائيل أن يحصنها أو يمنع عنها الهجمات الصاروخية. فبالرغم من كل هذا الموت والدمار، فإن «حماس» واصلت المقاومة وشن الهجمات الصاروخية. هذه حركة مقاومة تمجد التضحيات والاستشهاد. ببساطة أقول ليس هناك حل عسكري للصراع بين إسرائيل وحماس»[2].

* * *

(١) إبراهام بورج، انتصارات ؟! لا يوجد شيء كهذا، هاآرتس، ٥/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) آفي شليم، كيف تسببت إسرائيل في وضع غزة على شفا كارثة إنسانية؟ الجارديان البريطانية، ٧/ ١/ ٢٠٠٩.

الفصل الرابع

أخطاء إسرائيل في حرب غزة

ارتكبت إسرائيل في حرب غزة مجموعة من الأخطاء المركبة أثرت على مجريات الحرب، وعلى نتائجها. هذه الأخطاء هي:

حرب بدون قيادة مترابطة

دخلت إسرائيل الحرب بقيادة ثلاثية منقسمة على ذاتها : أولمرت وباراك وليفني. تنعدم بينهم الثقة. وتتجاذبهم صراعاتهم الانتخابية. وتتحكم خلافاتهم السياسية في تصرفاتهم وقراراتهم. وهو انقسام رافق الحملة منذ بدايتها، وخرج من الغرف المغلقة إلى وسائل الإعلام، تقول هاآرتس: «في الأسابيع التي سبقت القرار بحملة رصاص مصهور وبقوة أكبر منذ الانطلاق إلى العملية، اشتعل جدال مغطى إعلاميًّا بين أولمرت وشريكيه الكبيرين في القيادة السياسية: وزير الدفاع إيهود باراك ووزيرة الخارجية تسيبي ليفني. في بؤرة الخلاف يقف تبادل للاتهامات على كشف أسرار العملية وخروج عن الصلاحيات، ومشادات على الخطوة العامة لما يلوح كنجاح عسكري في الأيام الأولى. وبدلًا من إظهار التضامن والتمسك بالمهمةفإن أولمرت، وليفني وباراك ينشغلون ببناء صورتهم الإعلامية.

محظور أن تلعب الاعتبارات السياسية والخصومات الشخصية دورًا رائدًا في القرارات على الخروج إلى الحرب وتعريض حياة المدنيين والجنود للخطر.

السكان الذين تتعرض منازلهم للهجوم، والجنود الذين قد يكونون مطالبين باجتياح غزة، يحتاجون إلى أن يعرفوا بأنهم يعرضون أنفسهم للخطر من أجل هدف وطني، وليس كحجارة شطرنج في الملعب السياسي»[١].

كانت ليفني تدرك أنه «إذا نجحت العملية سيكسب باراك. وإذا فشلت العملية ستخسر هي. بالنظر إلى هذا الوضع، يجب عليها أن تتحدث طول الوقت يمينًا، وأن تنظر بقلق يسارًا. يقول عدد من مستشاريها إن كل يوم قتال يُسقط منها نصف نائب ويزيده إلى باراك»[٢].

لقد اعتبر إيتان هابر رئيس ديوان إسحاق رابين ذلك لعنة حلت بإسرائيل، إذ تؤثر المصالح الانتخابية على قراراتها المصيرية، فيقول: «لعنة وقعت على دولة إسرائيل: الانتخابات القريبة للكنيست تشوش الوعي. تخلق أوضاعًا لا تطاق للمتنافسين وأساسًا لثلاثة زعماء في إسرائيل. حتى لو كان هؤلاء الثلاثة ملائكة علويين، أعضاء في طابور الأولياء، فلا يوجد أي احتمال ألا تؤثر الانتخابات على سلوكهم وعلى قراراتهم. لشدة المشكلة، فإن لديهم ليس فقط دولة يديرونها، بل وحرب أيضًا. لعنة كبيرة وقعت على دولة إسرائيل»[٣].

حرب بدون هدف إستراتيجي

يقول الخبير الإستراتيجي الأمريكي أنتوني كوردسمان: «ما هو الغرض الإستراتيجي وراء القتال الحالي ؟ فبعد أسبوعين من القتال لم ينبس أولمرت وليفني وباراك بكلمة واحدة تدل على أن إسرائيل ستجني منافع إستراتيجية، أو منافع تكتيكية أكبر من المكاسب التي حققتها من ضرب منشآت أساسية لحماس بصورة انتقائية في مستهل الحرب. في الواقع، إن صمتهم يثير أسئلة متكررة حول ما إذا كانوا سيكررون الإخفاقات الهائلة التي مُنيت بها قيادة إسرائيل السياسية العليا خلال حرب إسرائيل ـ حزب الله في عام ٢٠٠٦. هل تتخبط إسرائيل نوعا ما في حرب متصاعدة باطراد من غير هدف إستراتيجي واضح، أو على الأقل بهدف إستراتيجي يمكنها أن تحققه على نحو معقول ؟»[٤].

(١) أسرة التحرير، نزاع شخصي في القيادة، هاآرتس، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) بن كاسبيت، وجهات نظر الساسة الإسرائيليين الكبار بالنظر إلى الحرب، معاريف، ٩/ ١/ ٢٠٠٩
(٣) إيتان هابر، الثلاثي غير المقدس إلى أين يقود إسرائيل المأزومة ؟، يديعوت، ١٦/ ١/ ٢٠٠٩.
(٤) أنتوني كوردسمان، انتصارات تكتيكية وهزيمة إستراتيجية، مصدر سابق. ص ٢٢٠.

حرب بغير خطة للنصر

يقول موشيه أرنس وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق: «بخلاف جميع دروس التاريخ، وبخلاف العقل المستقيم، أقنعت قيادتنا نفسها بتأييد وسائل الإعلام بأنه لم تعد توجد حروب ننتصر فيها كما كان الأمر ذات مرة، أو لا يمكن أن نهزم الإرهاب بالقوة.

كيف يمكن أن نزعم أن الجيش الإسرائيلي الذي يُفترض أن يواجه جيوشًا نظامية قوية غير قادر على حسم معركة مع نحو عشرين ألفًا إذا بالغنا من المسلحين بسلاح خفيف ومتوسط؛ إلا إذا كان يحارب ـ كما حارب في لبنان ـ بغير خطة للنصر.

في الحقيقة، إن خطتنا تدل على أن قادتنا يتكلون على المصريين أن يدافعوا عنهم بمنع التهريب من سيناء. هذا بطبيعة الأمر أمل باطل. من المهم أن نذكر أيضًا أنه سيكون لامتناع إسرائيل عن هزيمة حماس آثار خطيرة. الدرس سهل: من لا يجهد نفسه في الانتصار في الحرب إلى النهاية سيكون حكمه حكم نتائج حرب لبنان الثانية»[1].

ويقول الكاتب الإسرائيلي عاموس ريغف: «الاستنتاج الأساسي للجنة فينوجراد بالنسبة لنتائج حرب لبنان الثانية ـ «تفويت كبير وخطير» ـ صحيح أيضًا بالنسبة لحرب غزة. يوجد شيء يُسمى النصر. فقط إذا ما كان هناك التصميم السياسي، والعسكري والمدني للوصول إليه. في الحرب في غزة، لم يكن هناك تصميم سياسي. ذات الزعماء الذين قادوا إسرائيل إلى فك الارتباط وإلى التهدئة وأغلقوا عيونهم أمام العنوان الواضح على الحائط، الذي كان يحذر من أن هذا سينتهي بالصواريخ على عسقلان وأسدود ـ ذات الزعماء هم الذين أمروا الجيش الإسرائيلي ـ بانعدام شهية ـ بشن الحرب»[2].

التقدير الزائد لقوة حماس

يقول ناحوم برنياع: «في الأشهر الأخيرة خرجت عن أذرع الأمن في إسرائيل قصص رعب عن المنظومات المحصنة التي بنتها حماس في القطاع، وعن الأنفاق، وعن الفخاخ، وعن تصميم القوة المقاتلة لحماس.

(١) موشيه آرنس، لا يحل لنا أن نرفض هزيمة حماس، هاآرتس، ١٤/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) عاموس ريغف، ما حققته إسرائيل على الأرض، إسرائيل اليوم، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.

القصص خدمت هدفًا: منع عملية عسكرية إسرائيلية. ومثلما وقع جهاز الأمن في خطيئة الاستخفاف بحزب الله قبل الحرب في ٢٠٠٦، هكذا وقع في خطيئة التقدير الزائد لحماس قبل العملية الحالية»[١].

حرص مفرط على الحياة

«الحرص المفرط على الحياة» كان نظرية القتال الإسرائيلية الرئيسية في غزة. هذا الخوف من الموت أو الإصابة أو الأسر، جعل الجيش الذي لا يُقهر يخشى مواجهة حتى عجائز فلسطين، يقول الكاتب يونتان شم ـ أور: «اسمع، قال لي ملح الأرض[٢]: كنت هناك. كل شيء كان مفخخًا، والأنفاق. أصدرتُ أمرًا واضحًا بإطلاق النار على كل من يتحرك. فقد بعثوا إلينا من قبل بنساء كبيرات في السن يحملن عبوات. أنا لا آخذ على عاتقي المخاطرات. إذا وضعت في جانب واحد مائة عربي أبرياء أمام جندي واحد من جنودي، فليس لدي أي تردد.

وهو حقًّا لم يتردد هناك. التاريخ يكرر نفسه. الفصل السيئ فيه. فقبل نحو ستين سنة، الفدائيون نغصوا حياة السكان. قوات المظليين أرسلوا لكيِّ وعيهم. النتائج في البداية، كانت مثل رصاص مصهور. القوات عادت دون إكمال المهمة، ولكن أحياء وبدون إصابات. وعندها عُين موشيه ديان رئيسًا للأركان. أخذ شارون الذي كان يقود وحدة ١٠١، وأعطاه كتيبة المظليين ٨٩٠. أوامر ديان كانت بسيطة جدًّا: لا تعودوا إذا لم تنفذوا. قال صراحة للمقاتلين: لست مستعدًا لأن أسمع عن عملية بدون إصابات بيننا. لا توجد وجبات بالمجان، ولا يوجد انتصار في المعركة بدون خسائر.

على مدى عشرات السنين، بنى ذلك التراث الجيش الإسرائيلي. بعد لبنان الأولى، بدأ هذا يتصدع. في لبنان الثانية تبلور. وفي غزة، أصبحت نظرية القتال الرسمية للجيش الإسرائيلي: المهم ألا نُصاب، وليمت العالم.

دون شجاعة، لا قيمة لكل الترسانة التي في العالم. الشجاعة هي السلاح الحقيقي لكل جيش مظفر. لقد تغيرت الأزمنة، فنحن نحب الحياة أكثر من أي شيء آخر. ولكي لا

(١) ناحوم برنياع، حققنا ما أردنا، يديعوت، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) يقصد أن هذه القصة سمعها كل من خاض الحرب في غزة، أي أنها قصة متواترة بين القوات الغازية.

نعرضها للخطر، وافقنا على أن نعيش في خوف، وأن نسمح لكل حارس في مجمع تجاري أن يجري علينا تفتيشًا، وأن نكون مهانين في المطار، وأن نتنازل عن حقوق المواطن، وبالأساس نحن لا نريد أن نموت في الحروب. الخوف انتصر علينا أيضًا»[1].

هذه السياسة أدت إلى فشل حملة الرصاص المصهور، وأدت إلى غضب دولي غير مسبوق على إسرائيل، يقول ناحوم برنياع: «عندما يكون صفر إصابات لقواتنا هو الهدف الأسمى:

- يتأخر قدر الإمكان الشروع في الحملة.
- نقصف غزة من الجو بدلًا من إدخال القوات البرية إليها.
- نطلق كميات مبالغة فيها من النار أمام كل خطر.
- ومن اللحظة التي تبدأ فيها الحملة نستدعي بكل أنواع الطرق الملتوية الطلب لوقف النار.

ما اعتبره الرأي العام في إسرائيل انتصارًا، الرأي العام في البلدان الأخرى اعتبره اعتداءً من جيش حديث محمي جيدًا على سكان عديمي الحيلة»[2].

الاستخدام المفرط للقوة

«بعد أسبوعين من إدارة أولمرت للمعركة بمسئولية وبضبط للنفس، قفز من داخله عزيز متبجح خفيف العقل. اندلع من داخله القائد المنفلت للحرب الفاشلة حرب لبنان ٢٠٠٦. ولكن المشكلة ليست فقط في أقوال التبجح التي قالها رئيس الوزراء، بل بمفهوم التبجح الذي بدأ يتبناه. مفهوم يهمس بأن هذه الحرب الرائعة يمكن أن تتواصل أكثر فأكثر. مفهوم يؤدي إلى أن يفكر أولمرت بجدية بإمكانية توسيع الحرب، والسيطرة على محور فيلادلفيا، واحتلال رفح.

في عام ١٩٧٠، كانت إسرائيل غارقة في حرب استنزاف. في بداية تلك السنة حققت إسرائيل تفوقًا حاسمًا على مصر بفضل طائرات الفانتوم التي تلقتها من الولايات المتحدة.

---

(١) يونتان شم ـ أور، لا يأخذون المخاطر، معاريف، ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٩.

(٢) ناحوم برنياع، دروس رصاص مصهور، يديعوت، ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٩.

ولكن إسرائيل لم تكتف بذلك، سارت خطوة أخرى، وقصفت أهدافًا إستراتيجية في العمق المصري، مما أدى إلى أن يسارع الاتحاد السوفييتي إلى تزويد مصر بصواريخ مضادة للطائرات. وهذه عطلت التفوق الإسرائيلي، وقلبت النصر بالنقاط إلى تعادل محرج. بعد ثلاث سنوات من ذلك، ولّد هذا التعادل حرب يوم الغفران.

القاعدة هي قاعدة بن جوريونية بسيطة: لا لشد الحبل أكثر مما ينبغي. استخدام القوة فقط عندما يكون هذا حيويًا. ولما كانت إسرائيل ليست قوة عظمى، فإنه لا يمكنها أن تصل إلى حسم مطلق على خصومها. عليها أن تكتفي بأهداف محددة ومدروسة: أن تردع العدو، وأن تضمن الهدوء بشكل عام، وأن تؤجل قدر الإمكان الحرب المقبلة»[١].

التوق اليائس لصورة النصر

لقد دفع إسرائيل توقها اليائس إلى صورة النصر إلى ارتكاب جرائم حرب أدت إلى آثار سياسية وخيمة، يقول جدعون ليفي: «هذا هو وجه إسرائيل في العالم الآن: دبابات في شوارع غزة المشتعلة، فالمزيد المزيد من القتلى عبثا، عشرات آلاف اللاجئين الجدد، ووزيرة خارجية مغرورة على نحو مفزع، وتنديد ونبذ عالميين متعاظمين.

نزعة الثأر والتوق اليائس لصورة النصر على ظهر مئات آلاف المدنيين، صورة لن تتحقق أبدًا، حتى ولا مع مائة تصفية أخرى لزعماء حماس. من أيّد هذه الحرب ومن عارضها يجب أن يتحدوا الآن في صرخة عالية: كفى»[٢].

عدم فهم طبيعة الشعب الفلسطيني

يقول سيفر بلوتسكر «هدف الحملة تحقق: إسرائيل ردت بعصف على نار صواريخ حماس، هكذا قالت أمس الأول في مقابلة في الراديو وزيرة الخارجية تسيبي ليفني. فالرد العاصف أن نكوي وعي قادة حماس، كي يعرفوا لاحقًا بأن إسرائيل مجنونة، فاقدة الصواب منذ الولادة، وعلى كل قسام يُطلق سترد بمحو بيت سكني في أطراف غزة.

---

(١) آري شفيت، إذا كان أولمرت يريد أن يطهر نفسه: المطلوب إنهاء الرصاص المصهور بإنجاز محدود، هاآرتس، ٢٠٠٩/١/١٥.

(٢) جدعون ليفي، كفي للجنون العطش للدماء ونزعة الثأر. هاآرتس، ١٦/ ١/ ٢٠٠٩.

ولكن، لندع للحظة جانبا المسائل الأخلاقية، ولنسأل فقط سؤال المنفعة: هل هذا حقًّا سيردع حماس ؟ أشك في ذلك. في أثناء الحرب العالمية الثانية حاول الحلفاء كي وعي القيادة النازية بقصف كثيف على المدن الألمانية دون نجاح. المدن مُحيت ؛ أما الوعي فلم يتغير. من أجل إخضاع النازيين اُضطرت جيوش الحلفاء إلى الوصول حتى برلين»[1].

عدم الاستفادة من دروس الحروب السابقة

يقول ألوف بن: «توجد ظاهرة مكررة تسبب خسارة العمليات العسكرية. لنسمها «نقطة النشوة»، ويمكن تعريفها على هذا النحو: النجاح السريع في بدء المعركة يرفع معنويات القادة ويشجعهم على الاستمرار في القتال، اعتقادًا بأن استعمال قوة أخرى سيُفضي إلى إخضاع العدو المضروب.

دُفعت إسرائيل إلى نقطة النشوة بعد النصر الخاطف في حرب الأيام الستة، واعتقدت أنها إذا استعملت قوة أخرى فستبقى في سيناء إلى الأبد. اقترح المصريون ـ الذين دُمرت مدنهم في حرب الاستنزاف ـ السلام الذي رفضته جولدا مائير باحتقار. وكانت النتيجة حرب يوم الغفران التي دفعت إسرائيل إلى صدمة وطنية، وبعدها إلى انسحاب من سيناء بعد آلاف القتلى بلا حاجة.

كان جورج بوش الأب زعيما فريدًا في نوعه، أوقف التقدم في حرب الخليج في ١٩٩١ بعد تحرير الكويت السريع، ولم يغره إلى أن يطارد العراقيين إلى بغداد. ولكن، أخفق ابنه في نقطة النشوة بعد أن أسقط صدام سريعًا في ٢٠٠٣، وكانت النتيجة استنزافًا ضعضع مكانة أمريكا كقوة كبرى مسيطرة على العالم.

أولمرت بدلًا من أن يقف بعد العملية الجوية ـ التي فاجأت العدو وأصابته بمكان مؤلم ـ اعتقد أن النصر قريب وأصر على الضغط، وعرض شروطًا مفرطة لوقف إطلاق النار. كانت النتيجة: إضعاف الإنجاز الأولي، وضعضعة التأييد الدولي والتكتل الداخلي»[2].

---

(١) سيفر بلوتسكر، إسرائيل لا تريد الانتصار، يديعوت، ١٣/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) ألوف بن، رسالة إلى قادة إسرائيل: اخرجوا من غزة قبل أن يحل محل النشوة البراقة صدمة مؤلمة، هاآرتس، ٧/ ١/ ٢٠٠٩.

سياسة عد الجثث كمعيار للإنجاز والنصر

تعتمد السياسة الإسرائيلية معيار عد الجثث أو بعبارة أخرى إيقاع أكبر خسائر بشرية في الفلسطينيين كمعيار للإنجاز والنصر. ولكن هذا المعيار ثبت فشله في حروب كثيرة؛ إذ: «بدأت هزيمة الولايات المتحدة في حرب فيتنام عندما أخذ الجيش الأمريكي وقادته بسياسة «عد الجثث». أما الأهداف الأخرى مثل إخضاع حكومة فيتنام الشمالية أو القضاء على قدرة الفيتكونج (قوات ڤيتنام الشمالية) على القتال، فلم يكن في الإمكان إحرازه بالاستعمال المفرط الذي لا تمييز فيه للقوة العسكرية، وبقي فقط الافتخار بعدد قتلى الفيتكونج. يجب أن نؤمل ألا يجعل استمرار القتال في غزة الجيش الإسرائيلي يأخذ أيضًا بسياسة «عد الجثث». فموت بضع مئات أخرى من الفلسطينيين لن يفض بالضرورة إلى تسوية أفضل»[1].

* * *

(١) رؤفين بدتسور، أخطاء الرصاص المصهور، هاآرتس، ٨/ ١/ ٢٠٠٩.

الباب السادس

الإدارة الفلسطينية للحرب

الفصل الأول

إستراتيجية قوة الضعف وضعف القوة

هناك عدة معطيات لفهم إستراتيجية المقاومة في إدارتها لحرب غزة الأولى، وكيف تعاملت مع اختلال موازين القوى، ومحاولتها توظيف هذا الاختلال لصالحها. وكيف تعاملت أيضًا مع ضعف أو غياب الغطاء العربي والإسلامي لها. هذه الإستراتيجية تقوم على العناصر الأربعة الرئيسية التالية، وهي:

قوة الضعف

فالشعب الفلسطيني لا يمكن مقارنته بإسرائيل من حيث موازين القوى المادية ؛ إلا أن لديه عناصر أخرى من القوة لها وزنها في معادلات الصراع مع العدو. يأتي على رأس هذه العناصر صمود الشعب الفلسطيني، والبعد الديموجرافي (السكاني)، والرأي العام العربي والإسلامي والدولي.

ضعف القوة

إسرائيل لديها من عناصر القوة ما تنوء بحمله العصبة من الدول ؛ ولكن في المقابل، فإن لديها نقاط ضعف خطيرة تهدد بتقويض أركانها، ويمكن للشعب الفلسطيني أن يحقق

من خلالها مكاسب وانتصارات يعترف بها العدو نفسه قبل الصديق. يأتي على رأس نقاط الضعف هذه: العامل النفسي، وغياب العمق الإستراتيجي، ومحدودية وسوء الخيارات المتاحة لديها.

التكيُّف مع المتغيرات

وذلك يعني اللجوء إلى أساليب وتكتيكات لمواجهة إستراتيجيات العدو وتكتيكاته، بدون التفريط في الثوابت أو تغييب الأهداف الرئيسية. هذا التكيُّف يهدف إلى استمرار المقاومة، ومواجهة المتغيرات الإقليمية والدولية، وتحقيق مكاسب للقضية الفلسطينية.

الاستخدام الأمثل للقوى المتاحة

هذا العنصر يعني توظيف القدرات المتاحة لدى المقاومة. وكذلك توظيف الطبيعة الجغرافية والسكانية والعمرانية لقطاع غزة لتحقيق معادلة الردع، وحماية المقاومة، وإيقاع الخسائر بالعدو.

وهذان العنصران الأخيران في إستراتيجية المقاومة هما في واقع الأمر يندرجان تحت إستراتيجية قوة الضعف؛ ولكن لأهميتهما بسطنا الحديث عنهما في عنصرين مستقلين.

أهمية إستراتيجية قوة الضعف وضعف القوة

هذه الإستراتيجية تقف أمامها إسرائيل عاجزة تمامًا، تحقق فشلًا يتلوه فشل، وتحرز عجزًا يتلوه عجز. يتحدث الكاتب الإسرائيلي كوبي نيف عن ذلك في لهجة تهكمية، وفي مرارة بالغة، فيقول: «يوجد لجميع قادتنا في الحقيقة طريقتان مجربتان، أي فشلتا في كل اختبار وامتحان في القضاء على الإرهاب مرة بعد أخرى:

- **الطريقة الأولى**: بجميع أنواع «الوسائل المحكمة»، أي جميع أنواع الحيل والخدع، التي تكلف المليارات ولا تساوي قرشًا، من الأسوار والجدران إلى جميع أنواع خطط التحصين الإلكترونية مع أسماء لعب حاسوب مثل «القبة الحديدية» أو «ستار الفولاذ»[1].

---

(١) القبة الحديدية أو ستار الفولاذ مشروع صهيوني لمواجهة صواريخ القسام والصواريخ قصيرة المدى كصواريخ الجراد والكاتيوشا، ولكنه لم يدخل الخدمة حتى الآن، وسنشير إليه فيما بعد في هذا الباب.

• **الطريقة الثانية**: المجربة أكثر، أي التي فشلت مرات أكثر، وهي: العمل العسكري المتدحرج الذي يأخذ في الازدياد من يوم إلى يوم، إلى أن يصبح «العملية الكبيرة» التي تقضي على الإرهاب، في كل سنة أو سنتين، بدفعة واحدة وإلى الأبد.

ما إن مرت سنة ونصف منذ العملية الكبيرة الناجحة السابقة للقضاء على الإرهاب، ألا وهي حرب لبنان الثانية، حتى أصبحنا متوجهين إلى العملية الكبيرة القادمة للقضاء على الإرهاب التي ستنجح بطبيعة الأمر كنجاح سابقاتها بالضبط: السور الواقي ٢، واحتلال غزة ٣، والضربة الساحقة ٤، والمهمات الفتاكة ٥؛ حتى إن الاسم لا يهم ولا يساعد. إن ما نسميه «إرهابًا» هو الطريقة الوحيدة الممكنة للشعب الفلسطيني لمحاربتنا»[1].

* * *

(١) كوبي نيف، إهلاك مكرر، معاريف، ٢٢/ ١/ ٢٠٠٨.

الفصل الثاني

قوة الضعف

هذا هو العنصر الأساسي في إدارة الصراع مع العدو، وكان له دوره الحاسم في حرب غزة. وفي هذا الفصل سنذكر مكونات هذا العنصر وأهمية كل منها:

عناصر قوة الضعف: رؤية صهيونية

يعرّف الخبير الصهيوني صمويل بار قوة الضعف، فيقول: «إنها القوة النسبية التي يحتفظ بها الطرف الضعيف في مواجهة الطرف القوي. يمكن لهذه القوة الاعتماد على واحدة من ثلاث إستراتيجيات، أو على تركيبة منها:

- تحييد المكونات الرئيسية للمزايا التي يتمتع بها الخصم وهذا يتم: من خلال التوصل إلى دفاع لمواجهة التكتيكات التي تعتبر محورية بالنسبة إلى تلك المزايا، أو من خلال إيجاد ظروف تمنع العدو من استخدام تلك القدرات التي توفر تلك المزايا.
- عبر إيجاد وضع داخلي في المجتمع المستهدف يجعل الإذعان للضغوط أو التهديدات الردعية مستحيلًا عمليًا.
- إصدار تهديدات معاكسة تُشْغل القوة المتفوقة، وتُضيّق الفسحة المتوفرة أمامها للمناورة»[1].

---

(١) صمويل بار، التجربة الإسرائيلية في ردع المنظمات الإرهابية، مؤسسة السياسة والإستراتيجيا، ورقة مقدمة=

عناصر قوة الضعف: وجهة نظر فلسطينية

يورد عوفر شيلح عناصر قوة الضعف وارتباطها بنظرية الأمن القومي الفلسطيني كما يراها المفكران الفلسطينيان محمد الفرا ووليد الخالدي، وهي:

- قدرة الشعب الفلسطيني على الصمود في مقدمة المزايا التي يتمتع بها الفلسطينيون وهي مصدر قوتهم.
- مركزية القضية الفلسطينية حيث تكرّس الاعتراف الدولي والعربي بصورة عامة وخاصة بهم.
- الديموجرافيا ـ سواء التجمع أو الشتات الفلسطيني ـ والذي يُصعّب على القوى المعادية للفلسطينيين أن تهزمهم بواسطة هجوم مركزي ومحدد.
- القوة المتمثلة بالضعف. فغالبية الأضرار التي تصيب الفلسطينيين هي سلاح قوي إزاء إسرائيل العنيدة، القوية، والتي تبالغ في ردود فعلها»[1].

وسنتناول هنا العناصر الثلاثة الأولى من عناصر قوة الضعف، وهي صمود الشعب الفلسطيني، وعامل الديموجرافيا، والرأي العام العربي والدولي. أما العنصر الأخير وهو ميزان الخسائر الذي يعمل لصالح الشعب الفلسطيني فسوف يتم تناوله في مواضع أخرى.

صمود الشعب الفلسطيني

هذا هو العامل الأساس: صمود المقاتل، وصمود الشعب، وصمود القيادة، بل وحتى صمود الأسير الفلسطيني في سجون الاحتلال، يقول عكيفا الدار: «عندما يسمع قادة حماس القادة الإسرائيليين ـ وهم يتفاخرون باستعادة الردع ـ يموتون من الضحك بالتأكيد. وهذا لا يعود فقط إلى الصواريخ التي تواصل ردع سكان عسقلان. فتهديد إلقاء المزيد من القنابل على غزة يردعهم مثلما تخيف عقوبة الموت استشهاديًا وهو في طريقه لتنفيذ عملية. إن كان كل قتيل في سديروت يضيف مقعدًا لليمين، فكل طفل يُقتل في غزة هو مقعد جديد لحماس.

= إلى مؤتمر هرتزيليا يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٧، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، لبنان، سلسلة ترجمات الزيتونة، العدد: ٢٤، نيسان أبريل ٢٠٠٧، ص ١٨.

(١) عوفر شيلح، لصالح القضية الفلسطينية، يديعوت، ٢٢/٥/٢٠٠٦.

الحصار المفروض على غزة والذي ألحق ضررًا فادحًا بمصادر رزق الناس هو تعزيز آخر لقوة حماس. على المحتل ألا يستغرب أن ظهر في نظرهم كعدو للشعب الفلسطيني، وليس لحماس»[1].

حتى الأسرى في سجون الاحتلال يقدمون صورة رائعة للصمود والثبات الفلسطيني، يقول عميت كوهين: «في هذه اللحظة، يبدوَ أن الضغوط لا تقدم الصفقة. فقد أعلن السجناء لمقربيهم خارج السجن بأن ليس لديهم أية نية للانثناء تحت الضغط. كل تصعيد إسرائيلي سيواجه بتصعيد من داخل السجن. يمكنهم أن يخوضوا إضرابًا عن الطعام، أو يتخذوا إجراءات أخرى. القيادة في السجن تشدد على أن لحماس مطالب واضحة بالنسبة لصفقة شاليط. القيادة في السجن تؤيد هذه المطالب وليس لها نية لتغيير موقفها»[2].

عوامل الصمود الفلسطيني

هذا الصمود هو نتاج عناصر متعددة، عناصر الدين والثقافة، والبناء والتكوين، والفهم الصحيح للعدو:

١ـ العامل الديني:

يقول صموئيل بار: «بروز أيديولوجية الشهادة ـ والقبول الاجتماعي واسع النطاق لها ـ يُطيح بالنظريات العسكرية القائمة على الردع»[3]. ويقول بن كاسبيت: «محاربة الإرهاب من هذا النوع هي شيء معقد. يوجد ها هنا طراز متميز من الإخوان المسلمين، يسيطر على القطاع مع تزويد بوسائل قتالية كبيرة، وبلا حدود. إذا ترددت إسرائيل أو خافت، فسيعلم العالم العربي كله، وسيعلم جميع الشهداء الذين يتكونون بإزائنا، أن إسرائيل قابلة للمس، وغير مصممة ولا مستعدة للمحاربة عن وجودها»[4].

٢ـ بناء الفرد:

وهنا ننقل شهادة هامة عن حركة المقاومة الإسلامية حماس لويليام سيجهارت، يقول

(١) عكيفا الدار، الحرب في غزة رسخت مكانة حماس بخلاف ما يدعيه قادة إسرائيل، هاآرتس، ٢/ ٢/ ٢٠٠٩.

(٢) عميت كوهين، محافل فلسطينية: ديكل يضغط على السجناء لإقرار الصفقة، معاريف، ٢٤/ ٣/ ٢٠٠٩.

(٣) صموئيل بار، التجربة الإسرائيلية في ردع المنظمات الإرهابية، مصدر سابق، ص ١٤.

(٤) بن كاسبيت، وجهات نظر الساسة الإسرائيليين الكبار بالنظر إلى الحرب، معاريف، ٩/ ١/ ٢٠٠٩

فيها: «من ؟ أو ما هي حماس ؟، تلك المنظمة التي يريد إيهود باراك وزير الدفاع الإسرائيلي أن يُزيلها كما لو كانت فيروسًا. إن القادة السياسيين لحركة حماس لربما كانوا من أكثر حملة المؤهلات العلمية العالية في العالم. فالحركة تفتخر بوجود أكثر من خمسمائة من حملة درجة الدكتوراه في صفوفها. وغالب عناصر الحركة من الطبقة الوسطى من المهنيين سواء أكانوا أطباء أو أطباء أسنان وعلميين ومهندسين. وأغلب قيادات الحركة درسوا في جامعات ليس فيها أي نوع من الكراهية الأيدلوجية تجاه الغرب»[1].

٣ـ الفهم الصحيح لنفسية العدو:

يقول أوري هاينتر: «حماس فهموا نفسيتنا أكثر مما فهمنا نفسيتهم. نجحوا في الصمود في الحملة انطلاقا من الفرضية بأننا سنتعب وسنكون أول من سيتراجع، وهذا ما حصل. لقد فهموا أنه بعد انتهاء الحملة وتسريح الاحتياط، لن تسارع إسرائيل إلى العودة إلى حملة أخرى. قدروا بأن إسرائيل ستعود إلى سياسة الكف عن أي عمل التي ميزتها على مدى ثماني سنوات من نار الصواريخ على السكان المدنيين»[2].

من مظاهر الصمود الفلسطيني

هذا الصمود الفلسطيني يأتي على رأسه تمسك الشعب بخيار المقاومة والتفافه حولها، يقول جدعون ليفي: «لم نُضعف (حماس)، فهذه الحرب زادت من قوة روح الصمود والثبات المصمم لديها. يجب على الدولة التي ربت أجيالًا على روح ثبات القلة للكثرة، أن تعلم تقدير هذا الآن. لم يكن في هذه الحرب أي شك فيمن هو داود ؟ ومن هو جالوت ؟. السكان في غزة الذين تلقوا ضربة بالغة جدًّا، لن يصبحوا أكثر اعتدالًا بل العكس، سيوجَّه الشعور الوطني الآن لمواجهة من تسبب لهم في ذلك وهو دولة إسرائيل.

يجب أن نضيف إلى سلسلة إخفاقات الحرب بطبيعة الأمر إخفاق سياسة الحصار والقطيعة: فقد تبين منذ زمن أن هذا غير مجد. لقد قاطعهم العالم وفرضت إسرائيل عليهم حصارًا؛ ولكن سيطرت حماس وما زالت تسيطر»[3].

---

(١) ويليام سيجهارت، علينا أن نعدل الصورة المشوهة التي نحملها عن حماس، تايمز أون لاين، ٣١/١٢/٢٠٠٨.

(٢) أوري هايتنر، آسف لا مفر فلنتطلق إلى رصاص مصهور ٢، إسرائيل اليوم، ٣/٣/٢٠٠٩.

(٣) جدعون ليفي، فشل وثكل، هاآرتس، ٢٢/١/٢٠٠٩.

تمثل الديموجرافيا الفلسطينية عاملًا مهمًا من عناصر قوة الضعف الفلسطيني، وسلاحًا أساسيًا تقف أمامه إسرائيل بقضها وقضيضها عاجزة ضعيفة. فغزة التي تبلغ مساحتها ٣٦٤ كيلومترًا مربعًا هي «تجمع سكاني من الأكثر ازدحامًا في العالم، فهناك مليون ونصف من الناس يذوب داخلهم آلاف من مقاتلي حماس كذرات الرمال. من أجل الموازنة نقول إن بنت جبيل الشهيرة في حرب لبنان الثانية هي بلدة فيها ثلاثون ألفًا من السكان. في مخيم الشاطئ للاجئين في القطاع ـ وهو واحد من ثمانية مخيمات ـ يعيش مائة ألف إنسان. والمعنى واضح وهو صعوبة كبيرة في القتال البري والتطهير»[١].

الوحل الغزي

يقول عاموس عوز: «هجوم بري على غزة من شأنه أن يؤدي إلى التورط وإلى الغرق في الوحل الغزي، الذي لا يبدو حياله الوحل اللبناني أكثر من بقعة ضحلة.

مليون ونصف المليون إنسان يعيشون في غزة بكثافة في الفقر، وفي المعاناة، وفي الحصار. هؤلاء الناس لن يصبحوا محبين لإسرائيل، ولن يتلقوا منا حتى كيًا للوعي»[٢].

ويقول يغئال سيرينا: «غزة هي كارثة على عملية سلاح المشاة. وهي شرك لمن يعيش فيه، ولمن يدخلها. هذه هي غزة التي هربنا منها كما في لبنان بعد أربعين سنة من السيطرة. لا باتفاق سياسي، بل بانسحاب عسكري على عجل من غير أن ننظر إلى الخلف»[٣].

لماذا لم تقْدم إسرائيل على احتلال غزة؟

مثّل الخوف من الخسائر البشرية هاجسًا قويًا لإسرائيل منعها من إعادة احتلال القطاع، يقول عوفر شيلح: «أشكنازي يعرف أنه في تفجير مبنى واحد في صور، بعد خمسة أشهر من إعلان وقف النار في حرب لبنان الأولى١٩٨٢، فقد الجيش الإسرائيلي وقوات الأمن أكثر مما فقدا في أي معركة منذ حرب يوم الغفران»[٤].

---

(١) عاموس جلبوع، حرب من نوع آخر، معاريف، ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٢) عاموس عوز، الحرب في الجنوب ووقف نار الآن، يديعوت، ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٣) يغئال سيرينا، مسبوكة من رصاص قديم، يديعوت،٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٤) عوفر شيلح، حملة النار على غزة، معاريف، ١٣/ ١/ ٢٠٠٩.

الاستفادة من الرأي العام العربي والدولي

الرأي العام العربي والدولي يمثل قوة دعم كبيرة للشعب الفلسطيني، وعامل ردع للجموح الإسرائيلي، يقول ناحوم برنياع: «إسرائيل علقت غير مرة في الماضي في فترة من التنديد في الساحة الدولية. في كل مرة خرجنا بسلام، بفضل الفيتو الأمريكي، وبفضل حقيقة أن ليس كل العالم ضدنا.

الـورطة هـذه المـرة أصـعب قليلًا، ولا سيما بسبب التأثير الهائل لوسائل الإعلام الجديدة - من قنوات التليفزيون العربية ومواقع الإنترنت - على الرأي العام، وبسبب الحضور المكثف لمنظمات حقوق الإنسان وقدرتها على تحريك سياسات قضائية، وحملات مقاطعة، وقرارات من الحكومات في الغرب. الفلسطينيون لن يتنازلوا عن إدانة إسرائيل في الساحة الدولية: هذا سلاحهم الأكثر نجاعة»[1].

ويعترف يوسي بيلين بخطورة هذا السلاح، فيقول: «قبل أن يقرر رئيس الوزراء المغادر إيهود أولمرت شن عملية في غزة، وقبل أن يقرر خليفته بنيامين نتنياهو شن عملية عسكرية مشابهة لضمان بقاء الردع الإسرائيلي، يجدر بهم أن يدرسوا بجدية الآثار التي ترتبت على عملية الرصاص المصهور.

ثلاثة أسابيع من البث التليفزيوني التي ظهر فيها الأطفال والنساء وهم يُقتلون يوميًا على يد الجيش الإسرائيلي أخرجت مردة كثيرة من القمقم ليس من الممكن إعادتها إلى هناك، على الأقل ليس في الوقت الحالي.

الأنظمة العربية التي أرادت تغيير الاكتفاء باتهام إسرائيل بالرد بصورة غير متناسبة وفي نفس الوقت مواصلة العلاقات معها، لا تستطيع ببساطة أن تسمح لنفسها بذلك الآن.

القيادة العربية لم تُنتخب بصورة ديمقراطية ؛ إلا أن هذا لم يقلل من حاجتها للإصغاء للشارع، وهذا الشارع شاهد قناة الجزيرة ففقد صوابه، وعرضه للشعور بأن إسرائيل عادت لتكون العدو الذي لا يمكن التسليم بوجوده»[2].

---

(١) ناحوم برنياع، دروس رصاص مصهور، يديعوت، ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٩.
(٢) يوسي بيلين، أنا آسف: القوة لا تكفي، إسرائيل اليوم، ٣/ ٣/ ٢٠٠٩.

أهمية تفاعل الشارع العربي

«ضغط الشارع في مصر والأردن يعطي إشاراته: لأول مرة منذ بداية الحملة نشر أمس مبارك والملك عبد الله بيانات تنديد حادة اللهجة ضد إسرائيل. مسئول كبير في القدس حذر من أنه إذا استمرت العملية فإن من شأن الأردنيين أن يخفضوا مستوى العلاقات. وحذرت مصادر في إسرائيل من أنه إذا أغلق الأردن سفارته، فإن مصر ستسير في أعقابه»[١].

إسرائيل تحطم نفسها

«نوع الضغط الذي مارسه الجيش الإسرائيلي على حماس ربما يضغط على حماس، ولكنه يحطم إسرائيل، ويحطم صورتها. يحطمها في شاشات التليفزيون في العالم، في أروقة الأسرة الدولية، وفي المكان الذي يهمها أكثر من أي شيء آخر: أمريكا أوباما»[٢].

أهمية الثقل الإسلامي بأوروبا

تحرك المسلمين بأوروبا يمثل عامل دعم للقضية الفلسطينية، وعاملًا مؤثرًا إلى حد ما في القرار السياسي الأوروبي، يقول شالوم يروشالمي: «في الأحاديث مع الدبلوماسيين الأجانب فإنك تسمع التخوف أيضًا على مصيرهم. الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي كان أول من عبر عن هذا الخوف في الحديث الشهير الذي أجراه مع رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو. والحجة هي أن الجمود السياسي والوضع في غزة واستمرار الاستيطان سيؤدي إلى اضطرابات للمسلمين في أوروبا.

النرويج، التي تبدي عطفًا على حماس ولا تخشى من الاحتفال بيوم مولد الكاتب كانوت همسون الذي أيد الحزب النازي، تأخذ بالحسبان أيضًا تظاهرات المسلمين في الدولة»[٣].

---

(١) سمدار بيري، لأول مرة في الحملة تنديد من مبارك وعبد الله، يديعوت، ٥/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) آري شفيت، عمل سخيف: الحملة التي خرجت عن طورها، هاآرتس، ١٦/ ١/ ٢٠٠٩.

(٣) شالوم يروشالمي، باتوا يتحدثون صراحة عن إسرائيل كدولة ظالمة وخارقة للقانون، معاريف، ٥/ ١٠/ ٢٠٠٩.

الفصل الثالث

ضعف القوة

إسرائيل قوية عسكريًّا واقتصاديًّا وتكنولوجيًا واستخباراتيًّا، ومدعومة أيضًا دوليًّا؛ إلا أنها بالرغم من ذلك، لديها نقاط ضعف خطيرة، هي:

١ـ الضعف النفسي والمعنوي سواء على مستوى القيادة أو الشعب.
٢ـ ضعف العمق الإستراتيجي.
٣ ـ محدودية الخيارات والبدائل المتاحة سياسيًّا وعسكريًّا أمام إسرائيل وسوء نتائجها.
٤ ـ عدم تحمل المجتمع الإسرائيلي للخسائر البشرية.
٥ ـ وجود نقاط الضعف لدى الجيش الإسرائيلي نفسه.

الضعف النفسي والمعنوي

لعل أهم نقاط الضعف لدى العدو هو العامل النفسي، والخوف من المواجهة المباشرة مع المقاومة، وصدق الله إذ يقول: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾ [الحشر: ١٤]. فلم تجرؤ إسرائيل على دخول المرحلة الثالثة من حرب غزة وهي احتلال المدن والمخيمات الفلسطينية. ذلك لخوفها من النتائج المترتبة عليها، تقول صحيفة هاآرتس: «في الجيش الإسرائيلي يُعشش التخوف كل الوقت من خطأ يؤدي إلى قتل جماعي لمواطنين فلسطينيين، أو هجوم مفاجئ لحماس يؤثر على الرأي العام في إسرائيل»[1].

---

(١) عاموس هرئيل وآفي يسسخروف، شبه حسم، هاآرتس، ١٦/ ١/ ٢٠٠٩.

هذا الخوف يدفع العدو إلى التهويل من قدرات المقاومة، حتى على مستوى القادة العسكريين، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال:١٢]، ونكتفي هنا بالمقالين التاليين:

مسيرة التخويفات

تحت هذا العنوان يقول عاموس جلبوع: «منذ استولت حماس على الحكم في قطاع غزة، كان المفهوم السائد في إسرائيل أن عملية عسكرية واسعة ـ ستتضمن إدخال قوات برية كبيرة ـ هي الأسوأ، وأن بانتظارنا كارثة. هذه الفكرة ترسخت لدرجة أنها أصبحت إيمانًا دينيًّا ملأت مزاميرها وسائل إعلامنا. قالوا لنا إن لدى حماس قدرة عسكرية نوعية. إن مقاتليها الذين تدربوا في إيران ينتظرون الجيش الإسرائيلي بعيون مليئة بالقتل؛ وإن لها منظومات دفاعية متينة، وإن ستالينجراد[1] هي لعبة أطفال بالقياس إليهم؛ وإن الجيش سيتكبد خسائر فادحة بمئات القتلى وآلاف الجرحى؛ وإن القتال من اللحظة التي نتجاوز فيها الجدار سيكون رهيبًا؛ وإن الدبابات ستحترق؛ وإن الجبهة الداخلية ستصبح جحيمًا.

وفي هذا السياق عادت لتصعد مرة أخرى الكلمة الهامسة: وحل. الوحل اللبناني ـ هكذا قالت القصيدة الدينية ـ ستظهر بقعة بالقياس إلى غوص الوحل الغزي. الفلسطينيون في يهودا والسامرة[2] سيثورون، ستندلع انتفاضة ثالثة وحشية[3]، ورئيس السلطة أبو مازن سيسقط.

بشكل عام، قالوا: لا يمكن الانتصار في غزة. في عصر ما بعد الحداثة عندنا لا يمكن للجيش الإسرائيلي أن ينتصر. فلسفة كاملة نشأت حول قصر أيدينا على الانتصار.

الأسباب العميقة لهذا المفهوم تحتاج إلى بحث اجتماعي، وسياسي، ونفسي على نحو خاص. لقد كان لهذا المفهوم بضعة آثار سلبية:

- **أولًا**: دفعت دولة إسرائيل إلى ترك أمن سكان الجنوب لمصيره. قالت الدولة لمواطني

---

(١) مدينة روسية ضربت مثالًا في الصمود، إذ شهدت معارك واسعة وصمودًا كبيرًا في وجه النازي في الحرب العالمية الثانية، وكانت سببًا في اندحار الغزو الألماني للاتحاد السوفييتي.

(٢) يطلق الاحتلال على الضفة الغربية مصطلح يهودا والسامرة.

(٣) الذي منع هذا السيناريو هو السلطة الفلسطينية ذاتها التي سلطت أجهزتها الأمنية لاعتقال المقاومين ومنع الاحتجاجات الشعبية، وهو ما ذكرته عميرة هاس في مقال لها تحت عنوان «السلطة تمنع المتظاهرين في الضفة من الصدام مع الجيش الإسرائيلي»، هاآرتس، ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٨.

الجنوب : عليكم أن تضحوا بقليل من الضحايا بين الحين والآخر، وذلك لأننا إذا دخلنا القطاع فسيُقتل الكثير من الجنود.

• ثانيًا: على المستوى العملي: فقد الجيش الإسرائيلي الردع، وعُرض كجيش ضعيف يخاف التصدي وجهًا لوجه مع مقاتلي حماس الجسورين»[1].

الأسطورة الرابعة

يقول وزير الدفاع الصهيوني الأسبق موشيه آرنس تحت هذا العنوان: «يمكن أن نحصي الأساطير والخرافات التي ترسخت هنا خلال العامين الأخيرين على يد قادة إسرائيل الذين قالوا إن إرسال القوات البرية إلى قطاع غزة من أجل إيقاف إطلاق الصواريخ سيكون خطوة متسرعة. هذه الخرافات رمت إلى تبرير سياسة التقاعس التي اتبعها وزير الدفاع، ووقف إطلاق النار الكارثي مع حماس الذي أتاح لها التزود بالصواريخ بعيدة المدى:

• الخرافة الأولى: التي تبددت في عملية الرصاص المصهور ادعت أن إدخال القوات البرية سينتهي بمقتل مئات الجنود. عندما يتردد هذا الادعاء على لسان قادة ذوي تجربة عسكرية يصبح كل خيار أفضل من الزج بالقوات البرية في أتون المعركة، في الوقت الذي فيه قوة الجيش الإسرائيلي تفوق قوة آلاف المقاتلين في حماس.

• الخرافة الثانية: التي تبددت: هي أن العملية البرية لن تنجح في وضع حد لإطلاق الصواريخ. السؤال هو لماذا ينسبون لحماس مثل هذه القدرات الخارقة، التي تتيح لها إطلاق الصواريخ أيضا من المناطق التي يتواجد فيها الجيش الإسرائيلي ؟

• الخرافة الثالثة: تقول إننا لن نتمكن من مغادرة القطاع من لحظة دخوله، وسنغرق هناك في وحله للأبد.

وها هم قادتنا يبتدعون لنا خرافة رابعة الآن: العملية البرية حققت كل أهدافها. حماس تواصل إطلاق الصواريخ، وقادتنا يدعون أن العملية قد حققت كل أهدافها. وزيرة الخارجية تقول، إنه إن لم تنصع حماس لوقف إطلاق النار أحادي الجانب بعد الانسحاب، فإن قواتنا ستعود. وكأنه من الممكن الشروع بعملية كهذه في كل يوم»[2].

هذا الادعاء بتبدد الخرافات الثلاث كان مرتبطًا بسكرة القوة ونشوة النصر المزعوم، إذ يعود موشيه أرنس نفسه بعد ذلك بحوالي شهرين فيتحدث بمرارة عن فشل حملة الرصاص

---

(١) عاموس جلبوع، مسيرة التخويفات، معاريف، ١٩/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) موشيه أرنس، الأسطورة الرابعة، هاآرتس، ١٩/ ١/ ٢٠٠٩.

المصهور، فيقول: «ما الذي تمخضت عنه هذه العملية ؟ هي لم تضع حدًّا لإطلاق صواريخ القسام، ولم تؤد إلى إطلاق سراح جلعاد شاليط. في المقابل، دفعت إسرائيل ثمنًا باهظًا عندما أثارت ضدها الرأي العام في العالم بسبب الدمار الكبير الذي خلفته في قطاع غزة، والضائقة السكانية المدنية هناك. هذه الأمور ستلاحقها لزمن طويل وستصعب عليها بالتأكيد الرد على استفزازات حماس القادمة.

بالمقارنة مع الثمن، الإنجازات تبدو معدومة. العملية توقفت بسبب الذريعة الواهية بأنه لم يعد هناك ما يمكن فعله. وانسحب الجيش الإسرائيلي من دون أن ينجز شيئًا تقريبًا»[1].

ضعف العمق الإستراتيجي

تفتقر إسرائيل إلى العمق الإستراتيجي. وهذه نقطة ضعف خطيرة جعلتها تبني نظريتها الأمنية على نقل الحرب إلى خارج أراضيها ؛ ولكن الصواريخ والقذائف الفلسطينية قلبت هذه النظرية الأمنية رأسًا على عقب، يقول يوئيل ماركوس: «صواريخ القسام الأولى التي أطلقت على إسرائيل قبل ثماني سنوات اُستقبلت بالاستهزاء. فقد كانت بدائية، وانفجرت في الأغلب في مناطق مفتوحة. أخطأنا في حينه بأن لم نفكر بأن هذا هو الصغير الذي سيكبر. وهذه الأيام فقط اكتشفنا بأنه تحت غطاء ضبط النفس والاستخفاف من جانبنا أقاموا إمبراطورية تحت أرضية لنحو عشرة آلاف صاروخ من كل الأنواع. ولو لم يخرج جهاز الأمن الآن إلى حملة شاملة، لاستيقظنا في يوم صاف على الصافرات في تل أبيب»[2].

يعترف يوفال ديسكن رئيس جهاز الشاباك الإسرائيلي بخطورة سلاح صواريخ المقاومة، فيقول الكاتب: «الذراع العسكري لحماس لديه القدرة على الوصول إلى كريات جات، وأشدود، ومشارف بئر السبع. كما أن منشآت حيوية مثل مركز البحوث النووية في ناحل شورك وقاعدة سلاح الجو في حتسور توجد ضمن المدى.

جملة الأهداف المدنية والإستراتيجية المستهدفة في إسرائيل تجعل هذه الصواريخ ما يسمى «سلاح محطم للتوازن»، بمعنى: سلاح إذا لم يُشل في أقرب وقت ممكن من شأنه أن يلحق أضرارًا جسيمة في العمق الإسرائيلي.

---

(١) موشيه أرنس، ثمن مرتفع مقابل إنجاز ضئيل، هاآرتس، ٢٣/ ٣/ ٢٠٠٩.
(٢) يوئيل ماركوس، يا حلو: الكيلومترات تقلصت، هاآرتس، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.

في البلدات التي توجد في مدى الصواريخ، توجد صافرات إنذار. للسكان في منطقة أشدود وكريات جات توجد فترة زمنية تتراوح بين نصف دقيقة و٤٥ ثانية للوصول إلى مجال محصن»[1].

محدودية وسوء البدائل المتاحة أمام إسرائيل

الخيارات المتاحة أمام إسرائيل لمواجهة المقاومة كلها خيارات سيئة، وكُلفتها عالية إستراتيجيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا. فصاروخ القسام البدائي هذا، لا تمتلك إسرائيل وسيلة ناجعة للقضاء عليه، يقول أليكس فيشمان: «يدور الحديث عن مشروع مركزي واحد يُسمى «القبة الحديدية»، الذي يعمل على مبدأ صاروخ ضد صاروخ. إصابة رأس برأس. الاستثمار في هذا المشروع باهظ جدًّا. كل صاروخ يُسقط صاروخا سيكلف حوالي ٣٠ ألف دولار»[2].

ويعلق رؤبين بدهتسور على هذا المشروع، فيقول: «انتصار الفلسطينيين سيكون من خلال مواصلة إنتاج القسام. الأمر الذي سيستنزف إسرائيل، ويُجبرها على إنتاج صواريخ مكلفة يُشك في أنها ستستخدم أصلًا»[3].

وعلى الرغم من هذه التكلفة المادية العالية، فمشاريع إسرائيل لمواجهة الصواريخ الفلسطينية كلها محدودة الجدوى، بل وتكاد تكون فاشلة، يقول عمير ربابورت: «المشروع المسمى القبة الفولاذية انطلق في طريقه قبل عدة أشهر. هناك وسائل اعتراضية أخرى للصواريخ قصيرة المدى مثل «نيوتيلوس» الذي يستخدم أشعة الليزر، والذي كلف مئات ملايين الشواكل كمشروع مشترك بين إسرائيل وأمريكا. ولكن رغم الدعاية:

- تكنولوجيا الليزر ليست ناضجة، ولن توفر ردًّا على القسام في الأجواء الماطرة أو الغائمة.

- المشروع ليس ناجعًا، ومكلف جدًّا، ولا جدوى من صرف عشرات آلاف الدولارات على كل صاروخ من أجل التصدي لصاروخ بدائي يكلف بضع مئات من الشواكل.

---

(١) أليكس فيشمان، يقتربون من تل أبيب، يديعوت، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٢) أليكس فيشمان، المال ليس المشكلة، يديعوت، ١٠/ ١٠/ ٢٠٠٧.

(٣) رؤبين بدهتسور، صواريخ مقابل أنابيب فولاذية، هاآرتس، ١٤/ ٥/ ٢٠٠٧.

- وإنتاج الصواريخ البدائية أسهل بكثير وأسرع من إنتاج الصواريخ المضادة المكلفة والمعقدة.
- وإذا حصنوا منطقة، فسيطلق الفلسطينيون صواريخهم على مناطق أخرى.
- من يضع كل آماله على الحل التكنولوجي ملزم بالتسليم بأنه غير قابل للتطبيق مع مرور الوقت»[١].

هذا المشروع هو تكرار لمسيرة الفشل والعجز، يقول رؤبين بدهتسور: «في شهر «شباط» فبراير ١٩٩٦ إبّان سقوط الكاتيوشا على كريات شمونة، زف شمعون بيريز - رئيس الوزراء في حينه - خبرًا مفاده أننا «سنمتلك عما قريب سلاحًا لاعتراض الكاتيوشا». مرت ١١ سنة منذئذ، وأطلق حزب الله خلالها أربعة آلاف صاروخ كاتيوشا نحو العمق الداخلي الإسرائيلي، ولم يتم اعتراض أي واحد منها بالطبع»[٢].

القصف الجوي لا يحسم المعركة

القصف الجوي لا يستطيع أن يحقق نتائج ملموسة على الأرض. فلقد «تبين في حرب لبنان الثانية، أنه ليس بوسع قوة جوية أن تهزم ميليشيات مسلحة تفرض أمرتها على السكان المدنيين أو تتمتع بتأييدهم»[٣]. و«إذا ما انتهى الأمر هكذا، فإن «حماس» ستدعي - بقدر ما من الصدق - بأن الجيش الإسرائيلي خاف من المواجهة، والصهاينة الجبناء ألقوا القنابل من الجو، وأعلنوا عن النصر وهربوا. المشكلة الحقيقية لغزة لن تُحل»[٤].

مخاطر الغزو البري

لم يكن أمام إسرائيل سوى خيار الغزو البري والغرق في المستنقع الغزي. ولكنّ هذا الدخول معلوم لدى الطرفين نتائجه مسبقًا، يقول يوئيل ماركوس: «الخروج الفجائي من

---

(١) عمير ربابورت، ليس هناك حل سحري، معاريف، ١٨/ ٥/ ٢٠٠٧.
(٢) رؤبين بدهتسور، صواريخ مقابل أنابيب فولاذية، هاآرتس، ١٤/ ٥/ ٢٠٠٧.
(٣) أسرة التحرير، حانت ساعة الدبلوماسية، هاآرتس، ١/ ١/ ٢٠٠٩.
(٤) بن كاسبيت، يكافحون في سبيل صورة نصر، معاريف، ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٨.

لبنان بأمر من باراك في مايو «آيار» ٢٠٠٠ علّم المنظمات أن البقاء الطويل في منطقة معادية هو نقطة ضعف اليهود»[١].

كما أنه لن يأتي بأي إنجاز إستراتيجي، يؤكد ذلك آفي رتسون، فيقول: «الدخول البري. لا حاجة إليه إذا استثنينا استعمال وحدات المشاة الخاصة المدربة. فلن يأتي بأي إنجاز إستراتيجي»[٢].

ولذلك أقدمت إسرائيل على الهجوم البري من غير ثقة في نتائجه، يقول عوفر شيلح: «دون فرح وبانعدام ثقة متبادلة بين أعضائها، تتدحرج القيادة الإسرائيلية إلى ما يبدو إلى خطوة برية محتمة. وأولئك الذين يُفترض بهم أن يقودوها ـ وعلى رأسهم وزير الدفاع إيهود باراك ـ يبدون كمن يؤمنون أقل من كل الآخرين بالنتائج الملموسة التي ستحققها»[٣].

إسقاط حماس ليس هو الحل

يقول روبيك روزنتال: «يوجد عيب أساسي في طلب أو إعلان القضاء على حماس. فإسرائيل تستطيع القضاء عليها فقط إذا سيطرت على القطاع زمنًا طويلًا وإلى الأبد. إن محاولة تبديل السلطة بغير السيطرة بالفعل على الأرض حدثت في لبنان في سنة ١٩٨٢. وعدوا هذا آنذاك «نظامًا جديدًا». انتهى ذلك إلى قتل الحاكم الذي تقبله إسرائيل، وإلى مجزرة[٤]، وإلى نمو قوة إسلامية خاضعة لإيران[٥]، وإلى إطلاق صواريخ كاتيوشا على إسرائيل مرة أخرى.

تستطيع إسرائيل تبديل حماس إذا غلّبت على قطاع غزة نظامًا عسكريًّا فقط، أن يجول جنود إسرائيليون في شوارع غزة، وأن يجلس في مباني الإدارة مراقبون إسرائيليون، وأن يقيم الشاباك خلايا سيطرة، وأن تتم مراقبة وسائل الإعلام، وأن يُقام على رأس السلطة دُمى إسرائيلية. ليس «برنامج الأخ الأكبر» لحكم كهذا برنامجًا واقعيًّا؛ بل هو واقع فظيع»[٦].

---

(١) يوئيل ماركوس، ينبغي أن نعلم كيف ننهي، هاآرتس، ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٢) آفي رتسون، أخطار العملية البرية، معاريف، ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٣) عوفر شيلح، يتدحرجون نحو غزة، معاريف، ١/ ١/ ٢٠٠٩.
(٤) مجزرة صابرا وشاتيلا.
(٥) حزب الله اللبناني.
(٦) روبيك روزنتال، درس في حدود القوة، معاريف، ١/ ١/ ٢٠٠٩.

عدم تحمل المجتمع الإسرائيلي للخسائر البشرية

تمثل الخسائر البشرية نقطة ضعف خطيرة في المجتمع الإسرائيلي، وعاملًا محوريًا في أي صراع يخوضه، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾[البقرة:٩٦]، يقول بن كاسبيت: «ليست غزة كلبنان. من يُعلن أنه لا يمكن وقف إطلاق صواريخ القسام لا يعلم ما يقول. يمكن وقف الإطلاق. والسؤال هو هل إسرائيل مستعدة لدفع الثمن ؟. أجل، سيُقتل جنود. فمنذ ستين سنة، يُقتل ها هنا جنود في الدفاع عن الدولة. يثور انطباع أن المجتمع الإسرائيلي في السنين الأخيرة يُفضل أن تصاب الدولة بشرط ألا يصاب الجنود»[1].

«في حرب الأيام الستة ـ الأكثر نجاحًا عسكريًا بين حروب إسرائيل ـ قُتل أكثر من مائة جندي في اليوم في المتوسط. بمقاييس اليوم، ما كان هذا ليمر، بعد نصف ساعة كنا سنوقف الحرب. منذئذ، شيئان تغيرا فقط: الأعداء باتوا أكثر تصميمًا ؛ ونحن أقل بكثير»[2].

من أجل ذلك، سعت إسرائيل إلى منع وسائل الإعلام من الدخول إلى ميدان المعركة، يقول أمير أورن: «عزل شبه مطلق لأرض المعركة حتى لا تخرج منها المعلومات مباشرة، والقادرة على تغيير حجم التأييد الداخلي والخارجي للعملية. من هنا كان سلاح الجو وسلاح الأجواء هما الأكثر نجاعة في هذه المعركة»[3].

توظيف المقاومة لهذا العنصر

لقد وضعت المقاومة خطتها على أساس محاولة استنزاف العدو، واستدراجه إلى معركة برية، ومحاولة أسر وقتل جنود، واستغلال هذه الورقة إعلاميًا. أطلقت يديعوت على هذه الخطة «سيناريو الرعب»، فتقول: «حملة رصاص مصهور كان من شأنها أن تنتهي على نحو مغاير تمامًا لو أنه تحقق سيناريو الرعب الذي خشي منه الجميع: اختطاف جندي. منذ بداية القتال، الجيش الإسرائيلي أمر القوات بمنع الاختطاف بكل ثمن بما في ذلك إطلاق النار على سيارة يوجد فيها الجندي المخطوف نحوه ومن يحتجزونه»[4].

---

(١) بن كاسبيت، نلعب من سبت لسبت، معاريف، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) بن كاسبيت، لا توجد حرب مبررة أكثر من حربنا ضد حماس، معاريف، ٤/ ١/ ٢٠٠٩.
(٣) أمير أورن، كم هو عدد العرب الذين يعادلون إسرائيليًا واحدًا؟ هاآرتس، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.
(٤) يديعوت، قائد كتيبة في جولاني يوجه جنوده في غزة إذا اختطف جندي فليفجر القنبلة اليدوية به وبخاطفيه، ٢٦/ ١/ ٢٠٠٩.

استغلال نقاط الضعف لدى الجيش الإسرائيلي

الجيش الإسرائيلي هو من أقوى الجيوش في العالم ؛ ولكن لديه نقاط ضعف خطيرة نجحت المقاومة في استغلالها والاستفادة منها، يقول أليكس فيشمان: «حماس وحزب الله يتابعان بهوس تحركات الجيش الإسرائيلي ويبحثان طوال الوقت عن نقاط الضعف. وهما يعرفان بالضبط كيف سيدفع قائد السرية القوة إلى المعركة. وهذا ما يحتاجه كل قائد ليأخذه بالحسبان: العدو يعرف أنماط عمله مثل كف يده»[1].

ويقول أمير أورن: «المنظمات الإسلامية المتزمتة توجه أفضل فكرها الإبداعي نحو القطاعات الأكثر إهمالًا في الجيش الإسرائيلي نسبيًّا والتي تشكل ثغرات. المقاتلون يعرفون ماذا ينتظرهم، وكم هو كبير حجم الخطر في أن يُحاصروا من العدو، وأي منظومة معدة لإنقاذهم، ولكن دون ضمان النجاح. وهم يفهمون بأنه إلى جانب الموت والإصابة، فإنهم يخاطرون بالأسر. الأسر بالنسبة لهؤلاء هو صدمة لم يُعدوا لها أبدًا»[2].

* * *

(١) أليكس فيشمان، متلازمة لبنان، ١٧/ ٤/ ٢٠٠٨.

(٢) أمير أورن، يتعرضون لضربات على الرأس، هاآرتس، ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٩.

الفصل الرابع

التكيف مع المتغيرات

هذا العنصر هو سمة ثابتة في إستراتيجية المقاومة، يعترف بذلك العميد يوآف زاكس رئيس قسمٍ في شعبة تطوير الوسائل التكنولوجية في الجيش الإسرائيلي، فيقول: «الإرهاب ينزع شكلًا ويرتدي آخر. حين تكون طريقة عمل معينة تُجبي ثمنًا عاليًا جدًّا أو تنجح بقدر أقل، ينتقل الإرهاب إلى شكل آخر. منظمات الإرهاب تبحث دومًا عن طريقة العمل التي تحتاج إلى حد أدنى من المخاطرة والجهد، وتضمن الحد الأقصى من النجاح. وهذا بالمناسبة لا يُقاس فقط في عدد الإصابات، بل وأيضًا في عمق الصدى الإعلامي، مدى الحرج السياسي، المس بالمعنويات العامة وغيرها.

إسرائيل هي قوة عظمى عالمية في مجال تطوير الصواريخ بشكل عام، وصواريخ إسقاط الصواريخ بشكل خاص. يوجد احتمال طيب في أن تفي وزارة الدفاع إلى هذا الحد أو ذاك بالمواعيد الزمنية وبالميزانية التي وضعتها لنفسها في مشروع القبة الحديدية. ولكن في اليوم التالي لاستكمال المشروع لن نكون أقرب من إزالة تهديد القسام، وذلك لثلاثة أسباب:

- **أولًا**: مهما كان انتشار مطلقي القسام، سيكون دومًا ممكنًا العثور على «ثقوب» في التغطية ومواصلة إقلاق السكان المدنيين.

- **ثانيًا**: الاستخدام الناجح لوسائل إطلاق الصواريخ هذه بجوار السكان المدنيين سيشكل إزعاجًا شديدًا لهؤلاء السكان.

• ثالثًا: كلما كانت منظومة التحصين أكثر نجاحًا، سيحتدم التهديد أو يهاجر إلى مواقع أخرى لا تنتشر فيها منظومة إسقاط الصواريخ.

وعليه، فإن نجاح المشروع لن يُحدث تخفيفًا حقيقيًا. وبالعكس، فإن الزمن الذي يمر والمصادر التي تُستثمر في قنوات أكثر نجاعة يُبعدان الحل ولا يُقربانه»[1].

من مظاهر التكيف مع المتغيرات

هذا العنصر الثالث من عناصر إستراتيجية المقاومة برع فيه الشعب الفلسطيني، وأبدعت عقوله المباركة سياسات وتكتيكات وأنماط جديدة من المقاومة، لمواجهة المتغيرات المختلفة، نذكر هنا بعضًا منها:

• عدم اللعب وفق السيناريو الإسرائيلي أو التصور الإسرائيلي لعمل المقاومة: وهذا يعني تغير الأسلوب بحيث لا تقع المقاومة في أسر النمطية وروتينية الفكر والأسلوب. فلقد تعود الاحتلال من اجتياحاته السابقة للقطاع على نمط المواجهة المباشرة والتصدي المكشوف من المقاومة لقواته. هذا ما كان يظنه العدو سيحدث عند إعداده لحرب غزة؛ ولكنه فوجئ بنمط آخر أطلقت عليه وسائل إعلامه بالمقاتلين الأشباح.

• اللجوء إلى الأنفاق كوسيلة للتهريب والقتال، لمواجهة الحصار، وتعويض عدم امتلاك وسائل دفاع جوي تحمي المقاومة من طائرات الاحتلال، وتحميها أيضًا من وسائل تجسسه واستخباراته.

• اللجوء إلى الصواريخ بديلًا عن العمليات الاستشهادية التي توجد دونها عوائق كثيرة، وباعتبار الصواريخ وسيلة فعالة لإضعاف معنويات العدو.

ونظرًا لأننا عرضنا وسنعرض في مواضع أخرى لسلاح الأنفاق، وسلاح الصواريخ كوسائل فعالة في معادلة الصراع مع العدو وكأدوات هامة في إستراتيجية وتكتيكات المقاومة، فإننا سنتناول هنا عدم اللعب وفق السيناريو الإسرائيلي.

عدم اللعب وفق السيناريو الإسرائيلي

كان الجيش الإسرائيلي يظن أن «حماس» ستدفع بمقاتليها إلى الخروج إلى الأرض

---

(١) يوآف زاكس، ثقوب في القبة الحديدية، يديعوت، ١٩/ ٥/ ٢٠٠٨.

لملاقاة قواته في المرحلة الثانية من الحرب. ولقد تساءل البعض أين قوات المقاومة من هذه القوات الغازية ؟ وأين تهديدهم ووعيدهم بتحويل غزة إلى محرقة للقوات الغازية؟ ولماذا اختفت قيادات المقاومة وابتعدت عن الأنظار ؟ وأين ؟ وأين ؟ وأين ؟

ولكن في واقع الأمر، كان ذكاء من حماس ألا تنجر إلى أسلوب قتال يمليه عليها العدو ؛ ولو فعلت لكان ذلك نوعًا من الانتحار الجماعي. وإنما، فرضت على العدو الأسلوب الذي تريده هي، مما سبب له إحباطًا كبيرًا. يؤكد ذلك المعلق أمير أورن فيقول: «الإحباط نابع من رفض حماس اللعب وفقًا للسيناريو التي أعدته إسرائيل. قرار حماس بتجنب التصادم مع الجيش الإسرائيلي كأحد الخيارات التي حُللت ودُرست أُعتبر من ضمن الاحتمالات المتدنية في السيناريو الذي أعده الجيش الإسرائيلي، حيث اعتقدوا أن من الممكن الوثوق بأن العرب سيتصرفون وفقًا للمنطق الذي يُنسب لهم في إسرائيل. ولذلك لا يعرف أحد كيف ستتطور العملية العسكرية إن جددتها إسرائيل»[1].

* * *

(١) أمير أورون، إسرائيل ومواجهة تحديات غزة وإيران، إسرائيل اليوم، ١٣/ ٢/ ٢٠٠٩.

الفصل الخامس

الاستخدام الأمثل للقوى المتاحة

هذا العنصر هو التطبيق العملي لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]. وهو يقوم على التوظيف الأمثل للبشر، والجغرافيا، وطبيعة التربة، والسلاح القليل المتوافر.

الاستخدام الأمثل للمقاتلين

سعت المقاومة في حشد طاقاتها البشرية وتعظيم الاستفادة منها: إعدادًا وتوزيعًا وتكتيكًا. كما استفادت أيضًا من الاكتظاظ العمراني داخل القطاع في تفخيخ المنازل، وعمل الكمائن، واستدراج القوات الغازية بصورة أذهلت العدو، وأربكت ضباطه وجنوده، وألقت في قلوبهم الرعب. وننقل هنا ثلاث شهادات مهمة، كلها أوسمة فخر على صدر المقاومة:

المقاتلون الأشباح

تقول وكالة UPI يونايتد برس إنترناشونال في تقرير لها بعد مرور ثمانية عشر يومًا من بدء الحرب: «أفادت القناة الثانية للتليفزيون الإسرائيلي بأن أعدادًا كبيرة من الجنود الإسرائيليين الذين يشاركون في العملية العسكرية البرية في غزة أُصيبوا بحالات هلع، وتم

نقلهم إلى المستشفى. وذكرت أن سيّلا لا يتوقف من الجنود يصلون إلى مستشفى سوروكا، القسم القليل منهم مصاب بجروح طفيفة؛ لكن القسم الأكبر مصابون بحالات هلع.

من جهة ثانية نقل موقع يديعوت أحرونوت الإلكتروني في تقرير نشره الثلاثاء عن قائد سرية تابعة لكتيبة في سلاح المدرعات، قوله إن القتال يتميز بأنك تكاد لا ترى العدو بالعين، فكل شيء يجري تحت الأرض، وببساطة فإن المخربين يقفزون من باطن الأرض، وكأن هناك مدينة سفلية. في كل مرة نستولي فيها على بيت تقوم قوة من الدبابات وسلاح الهندسة بالتحرك في المقدمة للتأكد من أن البيت ليس مفخخًا، وفي إحدى المرات اقتربنا من بيت واكتشفنا ٤٠ عبوة غاز، وفي مبنى آخر اكتشفنا نفقًا تحته بهدف خطف جنود.

وأشارت يديعوت أحرونوت إلى أن الخوف من المواجهة الأولى والتحرك بحذر بين كمائن حماس وإنقاذ الجرحى تحت إطلاق النار هو جزء مما يمر به الجنود الذين يشاركون لأول مرة في قتال حقيقي.

وفي سياق متصل قالت وسائل إعلام إسرائيلية إن مسئولين في جهاز الأمن الإسرائيلي عبروا عن خيبة أملهم إزاء العدد القليل من نشطاء الفصائل الفلسطينية الذين تم اعتقالهم خلال العملية العسكرية البرية في القطاع. فمن بين ٢٠٠ فلسطيني اعتقلتهم القوات الإسرائيلية في القطاع هناك ٣٠ وصفهم الشاباك بأنهم ينتمون لحركات سياسية فلسطينية في القطاع وخصوصًا لحماس[1].

سلاح حماس الذي لا تستطيع إسرائيل التغلب عليه

يتحدث مات سانشيز مراسل قناة فوكس نيوز الإخبارية الأمريكية عن المقاتل الفلسطيني، فيقول: «الجنود الإسرائيليون مجهزون ببعض الأسلحة الشخصية الأكثر تطورًا المتوافرة للعسكرية الحديثة؛ لكنهم مع ذلك يواجهون خطرًا كبيرًا على الأرض في غزة.

حماس هم سادة الحرب غير المتكافئة. لديهم أسلحة رئيسية عديدة، يمكن أن تُلحق خسائر فادحة بالقوة الغازية. هذه الأسلحة لم تكن مصدر قلق كبير لإسرائيل عندما كانت تهاجم من البحر والجو؛ ولكن الخطر قد زاد بدرجة كبيرة منذ شنت إسرائيل هجومها البري.

---

(١) موقع قناة الجزيرة للأخبار، الجنود الإسرائيليون يتدفقون للمستشفيات بحالات هلع، ١٤/ ١/ ٢٠٠٩.

الخطر الأكبر الذي يواجه الجندي الإسرائيلي في غزة هو العدو الذي يتوق للتخلي عن حياته. بنت حماس قوة من الانتحاريين على استعداد لتفجير أنفسهم. بينما يُعد الجنود الإسرائيليون بحيث يكونون على استعداد للموت من أجل بلدهم، فإنهم أيضًا يتدَرَّبون على البقاء أحياء ؛ ولكنّ مقاتلي المقاومة الفلسطينيين يعتبرون سلاحًا موجهًا نحو هدف واحد في المعركة، ولا يقاتل الفلسطيني من أجل أن يبقى حيًّا.

في الوقت الذي تندفع فيه إسرائيل على أرض غزة، فإنها لا تعرف بالضبط نوعية وكم الأسلحة التي تمتلكها حماس. «نحن لا نعرف ما الذي تم تهريبه إلى غزة» هكذا قال ديفيد شينكر، وهو زميل بارز في معهد واشنطن، ومسئول سابق في البنتاجون، ومتخصص في قضايا الشرق الأوسط.

تتدفق الأسلحة إلى لبنان بسهولة أكبر مما يمكن في قطاع غزة حيث الحدود تحت مراقبة أكثر صرامة. ولكن شبكة الأنفاق المستخدمة في التهريب جعلت المحللين العسكريين يتساءلون عن نوعية الأسلحة التي بحوزة النشطاء الفلسطينيين.

حماس تفتقر إلى أنظمة قتال جوية وبحرية ومدرعة، ولذلك فإن لديها أملًا ضئيلًا بنجاح تحدي القوات الإسرائيلية في ساحة قتال مفتوحة ؛ ولكن الجيش الحديث تتناقص مزاياه بسرعة في المواجهات في المناطق السكنية[1].

جيش حماس

يحدث عميت كوهين عن قدرات حماس العسكرية فقبول عندما تدخل القوات البرية للجيش الإسرائيلي إلى قطاع غزة، فإنها ستجد أمامها منظمة عسكرية مسلحة وجاهزة للمواجهة. أصبح الذراع العسكري لحماس جسمًا عسكريًّا مرتبًا، خزّن السلاح، وزرع العبوات، ودرّب المقاتلين الذين ينتظرون المعركة مع الجيش الإسرائيلي. ومن أجل الوصول إلى مستوى عملياتي جيد، أقامت حماس أكاديمية عسكرية وقواعد تدريب في كل أرجاء القطاع. وبزعم مصادر فلسطينية، فإن «حماس» بعثت بجزء من رجالها إلى دورات تدريب في إيران.

---

(١) مات شانسيز، سلاح حماس القاتل الذي لا تستطيع إسرائيل التغلب عليه، موقع قناة فوكس نيوز الأمريكية، ٢٠٠٩/١/٦.

ضابط كبير في الجيش الإسرائيلي روى قبل بضعة أشهر بأن أحدًا لا يستخف بقدرات حماس. وقال الضابط: في السنة الأخيرة تُعنى حماس بزرع العبوات على طول القطاع، بعضها في حفر عميقة ما أن تمر عليها دبابة حتى تنفجر، كما توجد حفر لاختباء المقاومين. نحن نتوقع شبكة قناصين مدربة مع معدات نوعية[1].

تعظيم الاستفادة من الموقع وطبيعته العمرانية

استفادت حماس من موقع قطاع غزة وتماس حدوده مع العدو في الحصول على المعلومات الاستخبارية، يقول الخبير الإستراتيجي صموئيل بار: «يسمح قرب الحركة من حدود إسرائيل في جمع معلومات استخبارية تكتيكية وإستراتيجية رفيعة المستوى»[2].

كما استفادت حماس أيضًا من طبيعة العمران في غزة بما جعل إسرائيل القوة الأعظم في المنطقة تتحسب الخطى للدخول في المعركة البرية، يقول عاموس هرئيل: « كيف ترد حماس؟ لديها قاطع تحصينات بنته بمنهاجية على مسافة ثلاثة كيلومترات من الحدود ؛ ولكن يبدو أنها في السياق ستفضل حشد رجالها في المنطقة المبنية»[3].

ويؤكد هذا الأمر عوفر شيلح، فيقول: «التكتيك الدفاعي لحماس يقوم على أساس المزايا التي تمنحها هذه المنطقة لها، وإلى القدرة على إخفاء العبوات والشراك التي أعدت مسبقا فيها. ومع أن المعلومات الاستخبارية للجيش الإسرائيلي في غزة أفضل بلا قياس مما كانت في لبنان، فليس كل شيء ممكن المعرفة والتوقع»[4].

الاستفادة من الطبيعة الجغرافية ونوعية التربة

سلاح الأنفاق

استغلت المقاومة الطبيعة الجغرافية للقطاع في بناء شبكة واسعة من الأنفاق لتحقيق أهداف متعددة منها: كسر الحصار المضروب، وكسر منع السلاح والغذاء، ولتخزين

---

(١) عميت كوهين، العائق البري، معاريف، ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٢) صموئيل بار، التجربة الإسرائيلية في ردع المنظمات الإرهابية، مصدر سابق، لبنان أبريل ٢٠٠٧، ص ١٣.
(٣) عاموس هرئيل، الهدف كسر روح حماس، هاآرتس، ٤/ ١/ ٢٠٠٩.
(٤) عوفر شيلح، لغز الهدف، معاريف، ٦/ ١/ ٢٠٠٩.

الأدوات القتالية، وتأمين منصات إطلاق الصورايخ، وتوفير حرية الحركة للمقاتلين بعيدًا عن وسائل تجسس العدو. أنفاق للقيادة، وأنفاق للقتال، وأنفاق كشراك خداعية.

بناء غير مرئي

«هناك بناء في غزة، هو ليس مرئيًا إلا أنه في حالة نهوض. نحن نعرف ذلك من الطلب الهائل على الإسمنت؛ لأن أحدًا لا يرى أين يذهب كل هذا الإسمنت فوق سطح الأرض؟ هناك استنتاج واحد: من لا يبني بصورة عمودية يبني في باطن الأرض.

هذا ما يحدث الآن في القطاع. منظومة هائلة من المخابئ الحصينة والسراديب الأرضية وعلى وجه الخصوص شبكة لا تنتهي من الأنفاق والقنوات القتالية. ويبدو أن «حماس» قد حققت من الآن إنجازًا واحدًا من خلال الأنفاق: الأنفاق زادت من قوتها الردعية في وجه إسرائيل.

الأرض في القطاع رملية جدًا، الأمر الذي يُسهل مهمة الحافرين بدرجة كبيرة. بإمكانهم أن يتقدموا في عمق الأرض، حتى بواسطة وسائل وأدوات بدائية، أو باليدين.

الأنفاق داخل المدينة تهدف إلى تمكين عناصر حماس من التحرك من شارع إلى شارع تحت الأرض لمباغتة القوات الإسرائيلية في كل مرة من موقع آخر. القنوات والخنادق القتالية ترتبط مع مراكز سيطرة وقيادة تحت الأرض ومخابئ السلاح.

في المقابل تُبنى خارج مراكز المدن أنفاق ترتبط بحفر هائلة في الأرض تحت المداخل الرئيسية للقطاع حتى تقوم حماس بتعبئتها بالمواد الناسفة من أجل تفجيرها عند مرور أرتال المراكب العسكرية الإسرائيلية. البناء تحت الأرض يتضمن وفقًا للتقديرات مئات قاذفات القسام والكاتيوشا المحصنة من القصف الإسرائيلي الجوي. المبدأ الأهم في هذا المشروع هو أن البناء تحت الأرض يتم في موازاة تحويل المباني للأغراض القتالية فوق الأرض.

حماس تعتمد على قيام مقاتليها بإلحاق خسائر كثيرة في صفوف الجيش الإسرائيلي بفضل القتال من الأنفاق، الأمر الذي يشكل ضغطًا على المستوى السياسي الإسرائيلي لسحب قواته لأن القتال سيبدو عديم الفائدة حينئذ.

تجربة الجيوش الأجنبية تشير إلى أن الأمريكيين أقاموا في فيتنام وحدة جرذان الأنفاق،

التي حاولت ضرب الأنفاق التي أُكتشفت من خلال إدخال سائل متفجر أو استخدام قاذفات اللهب. نجاحهم كان محدودًا.

البروفيسور إسحاق بن يسرائيل الذي كان رئيسًا لإدارة تطوير الوسائل القتالية والبُنى التحتية في وزارة الدفاع يؤكد أن الجيش لا يمتلك اليوم وسيلة ناجعة لحل قضية الأنفاق»[1].

صعوبة التصدي للأنفاق

«من تحقيقات حملة رصاص مصهور يتبين بأن القوات وجدت صعوبة في التصدي للأنفاق التي ربطت بين المنازل والشوارع وساعدت المقاومين على الهروب من المنطقة. ضابط كبير في لواء المظليين قال: «كانت هناك أحداث أطلقت خلية فيها الصواريخ علينا واختفت، وفجأة رأيناها تخرج في شارع آخر. ينبغي الاستعداد لذلك في التدريبات. حزب الله أيضًا يتعلم ويستخلص الدروس من القتال بين الجيش الإسرائيلي وحماس في غزة»[2].

تعظيم الاستفادة من الصواريخ الفلسطينية

تُعد الصورايخ الفلسطينية هي السلاح الردعي الأهم لدى المقاومة، والتي استخدمتها بكفاءة رغم ظروف الحرب البرية، ووصلت بها إلى أهداف إستراتيجية لم تتعرض للقصف طيلة الصراع العربي الإسرائيلي، يعترف بذلك عوزي روبين عالم الصواريخ والمشرف على منظومة حيتس، فيقول: «الهجوم الصاروخي الذي شنته حماس والمنظمات الفلسطينية الأخرى خلال عملية الرصاص المصهور خرج عن الإطار والمعدّل الذي استمر لسنوات طويلة. وعلى الرغم من أن القوة النيرانية ومدى الإصابة كانت متدنية وأقل أهمية من الهجوم الصاروخي لحزب الله إبان حرب لبنان الثانية فإنّ الأهداف الإستراتيجية كانت متماثلة:

- **الأول**: إظهار استمرار وجود القدرة العسكرية للفلسطينيين أمام القوة الإسرائيلية.

---

(١) عمير ريابورت، لا يدخلون إلى غزة بل يسقطون فيها، معاريف، ٢٤/ ١٠/ ٢٠٠٨.
(٢) أمير بوحبوط، نفق الجيش الإسرائيلي، معاريف، ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٩.

• **الثاني**: إنجاز صوري أمام الجمهور الفلسطيني ودول العالم عن طريق ضرب المدن الرئيسية في عمق إسرائيل، والتي أُعتبرت حتى ذلك الحين جبهة داخلية مأمونة.

• **الثالث**: تآكل في قدرة صمود السكان في إسرائيل، وخلق ضغط على صناع القرار بوقف الحرب في ظروف أكثر ملائمة وراحة بالنسبة للجانب الفلسطيني.

• **الرابع**: ومن المحتمل: مهاجمة القواعد الجوية بهدف المساس بقوة السلاح الجوي الإسرائيلي.

المعلم الرئيسي للهجوم الصاروخي خلال عملية الرصاص المصهور تمثل في استخدام صواريخ جراد المحسنة لأول مرة، والتي يصل مداها على ما يبدو إلى حوالي ٤٠ كيلومترًا، والتي أدخلت إلى دائرة التهديد مدنًا رئيسية ومستوطنات كبيرة في أرجاء الجنوب والوسط.

المناطق التي ضربتها الصواريخ شملت هذه المرة بُنى تحتية وطنية رئيسية مثل: الميناء، ومصافي النفط، ومحطة توليد الطاقة الكهربائية في أشدود، وكذلك مناطق صناعية في أشدود وبئر السبع وكريات جات واشتملت على صناعات كيماوية ومصانع تكنولوجيا عالية.

في حرب ٢٠٠٦، وكذلك في الحرب الأخيرة ٢٠٠٩، كانت مرافق البنية التحتية والصناعية مكشوفة بدون حماية في وجه صواريخ حزب الله وحركة حماس: الموانى في حيفا وأشدود ومصانع الإلكترونيات ذات الكفاءة التكنولوجية الراقية في بئر السبع وعسقلان وأشدود. حقيقة أنها لم تُصب تقريبًا خلال الحربين كانت محض صدفة.

في اليوم الأخير من الرصاص المصهور، شبّ داخل مصنع البتروكيماويات في أسدود حريق أدى إلى إخلاء السكان خوفًا من تسرب مواد خطرة. كل ما عُرف أن هذا الحريق لم يشُب بفعل إصابة صاروخ؛ لكن هذا الأمر يُدلل على ما كان سيحدث لو أنّ المنظمات الإرهابية وجهت الصواريخ إلى المصانع التي تحتوي على مواد خطرة، كارثة جماعية كانت ستحدث وتؤثر دون شك على سير ونتائج الحرب في غير صالح إسرائيل»[1].

---

(١) عوزي روبين، الدفاع الفعال ضد القذائف الصاروخية دروس عملية الرصاص المصهور وحرب لبنان الثانية، مركز بيجين السادات للدراسات الإستراتيجية، ١٩/ ٢/ ٢٠٠٩، ترجمة مركز دراسات وتحليل المعلومات الصحفية، نقلًا عن موقع مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات.

الفصل السادس

إدارة حماس للحرب: شبهات وردود

أثار البعض شبهات حول إدارة حماس لصراعها مع العدو، وخصوصًا فيها يتعلق بحرب غزة. من بينها أن «حماس» هي سبب معاناة الشعب الفلسطيني، وأنها بخرقها للتهدئة دفعت إسرائيل إلى شن الحرب على غزة، وأن قيادتها اختفت في الأنفاق تاركة الشعب الأعزل يواجه مصيره أمام آلة الحرب الصهيونية، وأن مقاتليها اختفوا بين المدنيين واتخذوهم دروعًا بشرية، وأن كتائبها جبنت عن مواجهة العدو، أو كان قتالها بلا فاعلية بدليل عدم التناسب الشديد بين خسائر القطاع وبين خسائر العدو الصهيوني، وأن صواريخها التي كانت تفاخر بها وبقعة الزيت التي توعدت بها العدو كانت من قبيل العبث والوهم ... إلى غير ذلك من الشبهات والتخرصات.

بعض هذه الشبهات رددنا عليه من قبل من خلال صحافة العدو ومن خلال التقارير الدولية، وسنرد على البعض الآخر منها فى الأبواب التالية عند الحديث عن «من المنتصر في هذه الحرب»، وعند الحديث أيضًا عن تأثير حرب غزة على مستقبل الكيان الصهيوني. ولكننا في هذا الفصل سنرد على بعض الشبهات الهامة المتعلقة بمواجهة حماس للعدوان الصهيوني على غزة:

فلقد ادعى البعض أن «حماس» استخدمت المدنيين في غزة كدروع بشرية. وهذا محض افتراء. ولكنها استخدمت تكتيك «المقاومون الأشباح»، فصبت إسرائيل جام غضبها

على السكان والبيوت في محاولة يائسة لتركيع المقاومة والقضاء عليها. وهنا لا بد أن نُذكّر بحقيقة الصراع مع العدو. فالشعب الفلسطيني بكافة مدنه وقراه في حالة حرب دائمة مع العدو أو طبقًا للفكر الإستراتيجي الإسرائيلي «كل الشعب جيش، وكل البلاد جبهة»[1]. هذه السياسة تبناها بن جوريون منذ نشأة إسرائيل، وبنى عليها سياسته العسكرية، والتي مازالت تُعد دستورًا تعمل به إسرائيل حتى اليوم.

نعم قد يقول قائل: هذا في الجانب الإسرائيلي، أي أن كل إسرائيلي هو جندي في الجيش الإسرائيلي، والداخل الإسرائيلي كل إمكانياته مسخرة للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية ؛ ولكنه أيضًا سلوك إسرائيلي معتاد في حروبها المختلفة، إذ تعتبر إسرائيل كل بيت فلسطيني هدفًا عسكريًّا، وكل إنسان فلسطيني حتى لو كان رضيعا فهو هدف للقتل، ففي نظرهم «العربي الجيد هو العربي الميت»[2]، تقول عميرة هاس: «جئنا لإبادتكم، الموت للعرب، كاهانا كان على حق، لا تسامح، العربي الرجل هو العربي في القبر. هذه مجموعة مختارة من الكتابات التي كتبها جنود إسرائيليون على جدران منازل الفلسطينيين في غزة خلال عملية الرصاص المصهور. الجنود شعروا أن قادتهم قد أطلقوا يدهم في الهجوم على السكان المدنيين. ما كتبوه يعبر عما فهموه كروح للمهمة التي أرسلوا لتنفيذها»[3].

هذا المنطق البن جوريوني يجب أن يحكمنا نحن العرب أيضًا في صراعنا مع العدو، فالمقاومة لا تدافع عن نفسها، بل تدافع عن شعب بأكمله. شعب حقوقه السليبة على مرمى حجر منه. فلا بد أن تجنّد كل قواه، وأن توظّف كل إمكانياته لنيل حقوقه المشروعة.

المقاومة لم تهرب من المواجهة

لم تهرب فصائل المقاومة من المواجهة ؛ ولكنها استخدمت سلاح الأنفاق بكفاءة لضمان حرية العمل والحركة، وفي الوقت ذاته لتوفير الحماية لها ضد استهداف الطائرات الإسرائيلية المختلفة التي تجوب سماء القطاع على مدار الساعة، يقول أليكس فيشمان: «هناك خمسون كيلومترًا من الأنفاق في غزة تكفل لهم الحماية من الغارات والعمليات العسكرية»[4].

---

(١) موقع قيادة الجبهة الداخلية، وهي هيئة إسرائيلية للدفاع المدني، ورابط العبارة www.oref.org.il/82_ar/PA-KAR.aspx

(٢) يهودا ليطاني، تسودها النزاعات إلى الأبد، يديعوت، ١٦/ ٣/ ٢٠٠٨.

(٣) عميرة هاس، العنوان على الجدار، هاآرتس، ١٧/ ٣/ ٢٠٠٩.

(٤) أليكس فيشمان، هل أصيب الإسرائيليون بعاهة، يديعوت، ٩/ ١٢/ ٢٠٠٨.

وينقل رون بن يشاي صورة حية ليوم مع لواء النخبة جفعاتي، فيقول: «يسود مدينة غزة الهدوء معظم اليوم ؛ ولكنه الهدوء الذي يثير اهتمام قائد لواء جفعاتي. قال لضباطه: كل فرد لا بد أن يُجري تدريب إحباط محاولات الاختطاف، وهو كل ما تهدف إليه حماس في الوقت الراهن، ولا بد أن نراجع إجراءات إحباط العمليات الانتحارية.

التحذير ليس فارغًا. بحلول الليل، تتلقى قوات جيش الدفاع علامات تحذير من محاولات حماس لاختطاف جنود في المنطقة التي نشر فيها لواء جفعاتي قواته.

عندما نتولى السيطرة على منطقة، فإن قوة حماس تختفي ؛ ولكنني على يقين أنهم مازالوا هنا: تحت الأرض أو في الخفاء، وسوف يخرجون لمحاولة خطف جنود.

لقد تمكن اللواء من اختراق دفاعات حركة حماس في غضون ساعات، واستولى على محور مفخخ ومحصن بلا مقاومة تقريبًا. شاغله الرئيسي ألا يكون المشهد كمينًا للمقاومة»[1].

القتال كان من بيت لبيت

في تقرير لموشي يهوشع عن شهادات لضباط إسرائيليين جاء فيه: « ضابط كبير في الجيش الإسرائيلي في حديث من قطاع غزة عبر هاتف مشفر يقول: نحن نقاتل من بيت إلى بيت. ومن وصف الضابط ـ الذي يقود إحدى وحدات الجيش الإسرائيلي ـ يمكن أن نفهم شيئًا عما يحصل في ضواحي مدينة غزة وعن أربعة أيام من القتال الشديد وجهًا لوجه داخل الأراضي الفلسطينية المكتظة.

خمسة ألوية من الجيش الإسرائيلي تعمل في قطاع غزة ليل نهار دون توقف. ليس الكثير معروفًا عما يحصل على الأرض: القتال الشديد العبثي يجري بعيدًا عن الكاميرات.

نحن نتقدم ببطء وبحذر. البيوت مكتظة جدًا. وجدنا الكثير جدًا من وسائل القتال. البيوت مفخخة. ويوجد أيضًا دراجات جاهزة لعملية خطف. كل لحظة يوجد صدام. كل ساعتين تقريبًا توجد محاولة من استشهاديين يركضون نحونا ليتفجروا بحزام ناسف. في البيوت المفخخة التي عثرنا عليها وجدنا أيضًا فتحات لأنفاق معدة لاختطاف جندي. حماس تحاول جر الجيش الإسرائيلي إلى المناطق المبنية أكثر»[2].

---

(١) رون بن يشاي، يوم مع قواتنا في غزة، يديعوت، ٩/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) يوسي يهوشع، ضابط كبير عن المعارك الضروس في القطاع: «نحن نتقدم بحذر بين البيوت المفخخة. استشهاديون يركضون إلينا مع أحزمة ناسفة»، يديعوت، ٧/ ١/ ٢٠٠٩.

وفي تقرير آخر لهاآرتس جاء فيه: «خمسة أيام في القسم البري من الحملة، يتبين أن «حماس» لم تُهزم. رجالها ـ الذين اختفى معظمهم من الميدان مع دخول جنود الجيش إلى القطاع بدءوا يخرجون من أماكن اختبائهم، ويلاحقون القوات. المكوث في المنطقة ـ دون تقدم حقيقي منذ يومين على الأقل ـ يحقق أهدافًا للعدو. يبدو أن رفض حماس المساومة يستند ضمن أمور أخرى إلى الافتراض بأنها إذا نجحت في سفك دماء الجيش الإسرائيلي على مدى أيام ـ في سلسلة أحداث متواصلة ـ سيفقد الرأي العام الإسرائيلي صبره، والحكومة ستضطر إلى أمر الجيش بالانسحاب دون تسوية»[1].

قيادة العدو في نفق تحت الأرض

هناك من عاب على قيادة المقاومة اختباءها واحتماءها بالأنفاق. وللرد على هؤلاء نقول أنه كان لابد للقيادة أن تدير المعركة من مكان آمن. وهي لم تكن تحت الأرض تمامًا بدليل أنها قدمت الكثير من قادتها شهداء سواء على المستوى الأعلى أو الوسيط. وحسبنا للدلالة على ذلك استشهاد القائد نزار ريان، والقائد سعيد صيام.

كما أن قيادة العدو كانت في نفق مماثل لأنفاق رفح رغم أنها بعيدة تمامًا عن مرمى المقاومة، يقول بن كاسبيت: «قبل دقائق من هجوم سلاح الجو الأول، أعلن أشكنازي انتقاله إلى ساعة قتال. بدّل مقر القيادة العامة للجيش الإسرائيلي، ونزل إلى وكر القيادة. يوجد بين وكر مقر القيادة العامة ووكر سلاح الجو ممر تحت الأرض. هذه هي صيغة الجيش الإسرائيلي عن أنفاق رفح»[2].

تواجد المقاومة بالقرب من المناطق المدنية

يدعي البعض أن المقاومة عرضت المدنيين لويلات الحرب لتواجدها في أماكن قريبة من التجمعات العمرانية في مدن قطاع غزة، مما يعد مخالفة لقوانين الحرب، وسببًا في تعريض المدنيين لخسائر بشرية ومادية. وللرد على هذه الشبهة نذكر بأن «المنطقة الغزية تختلف عن لبنان: فهي ليست جبلية وحرشية، وعليه فإن «حماس» ملزمة بأن تدخل المنطقة المبنية وألا تكون في السهل، حيث يسهل تشخيص رجالها وضربهم»[3].

---

(١) عاموس هرئيل وآفي يسسخروف، الجيش الإسرائيلي يفقد الصبر، هاآرتس، ٧/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) بن كاسبيت، غزة ليست لبنان وحرب عسكرية كفيلة بإضعاف حماس، معاريف، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.
(٣) عوفر شيلح: لغز الهدف، معاريف، ٦/ ١/ ٢٠٠٩.

وتنفي منظمة العفو الدولية أن يكون في ذلك التواجد أي انتهاك لقوانين الحرب أو استخدام للمدنيين كدروع بشرية، فتقول: «وبينما لا تشكل تواجد مقاتلي حماس مقاتلين ومجموعة متنوعة من الأسلحة داخل المدن والقرى دليلًا بحد ذاته على استخدام الدروع البشرية، فإنها لا ترقى إلى مستوى الانتهاك لواجب اتخاذ الاحتياطات الضرورية لحماية المدنيين الخاضعين لسيطرتها من أخطار العمليات العسكرية «إلى الحد الأقصى الممكن»، وعلى وجه الخصوص «بتجنب وضع الوسائل والقوات العسكرية داخل مناطق مكتظة بالسكان أو في محيطها»»[1].

كما أنه «ليست مسألة القرب الشديد للقوات العسكرية والأسلحة من المناطق المدنية بالأمر غير العادي في إسرائيل. فمقر قيادة الجيش الإسرائيلي يقع في وسط منطقة مكتظة بالسكان في وسط تل أبيب. بينما تنتشر القواعد والمنشآت العسكرية ـ في عسقلان وسديروت وبئر السبع وغيرها من مدن جنوب إسرائيل، وكذلك في مناطق أخرى من البلاد ـ داخل المناطق السكنية وحولها. وأثناء عملية الرصاص المصهور، كانت هناك مواقع وأنشطة عسكرية إسرائيلية أكثر من المعتاد بالقرب من المناطق المدنية في جنوب إسرائيل، وشنت القوات الإسرائيلية هجمات على غزة انطلاقًا من هذه المناطق على طول محيط قطاع غزة»[2].

استخدام المدنيين كدروع بشرية

تدعي إسرائيل أن المقاومة استخدمت المدنيين الفلسطينيين العزل كدروع بشرية. وأنها استخدمت أيضًا الأعيان المدنية كالمدارس والمساجد والمستشفيات وسائل لتخزين السلاح أو الاختفاء أو لقصف العدو. واتخذت ذلك سبيلًا لمهاجمة المدنيين والأعيان المدنية.

ولقد ردت تقارير دولية متعددة على هذه الشبهة، ولكننا هنا نكتفي بما أوردته بعثة جولدستون التي قالت في تقريرها: «على الرغم من أن الأحداث التي حققت فيها البعثة لم تثبت استخدام المساجد لأغراض عسكرية أو كدروع لحماية أنشطة عسكرية، فإنها لا تستطيع استبعاد احتمال أن يكون ذلك قد حدث في حالات أخرى. ولم تعثر البعثة على

(١) منظمة العفو الدولية، عملية الرصاص المصهور: ٢٢ يومًا من الموت والدمار، يوليو، ٢٠٠٩، ص ٨٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٨٦،٨٧.

أي أدلة تدعم الادعاءات القائلة بأن سلطات غزة أو الجماعات المسلحة الفلسطينية قد استخدمت مرافق المستشفيات كدروع لحماية أنشطة عسكرية أو أن سيارات الإسعاف قد استُخدمت لنقل مقاتلين أو لأغراض عسكرية أخرى. وبالاستناد إلى التحقيقات، تستبعد البعثة أن تكون الجماعات المسلحة الفلسطينية قد باشرت أنشطة قتالية من منشآت الأمم المتحدة التي اُستخدمت كملاجئ أثناء العمليات العسكرية»[١].

وقال تقرير هيومان رايتس ووتش: «كثيرًا ما لامت الحكومة الإسرائيلية والجيش الإسرائيلي «حماس» على استخدام المدنيين كدروع بشرية وعلى القتال من داخل أعيان مدنية. وفي الحالات التي تم توثيقها في هذا التقرير، لم تعثر هيومان رايتس ووتش على أدلة على أن «حماس» استخدمت دروعًا بشرية في المناطق القريبة من مواقع الهجمات وقت وقوعها»[٢].

ولم يثبت ـ كما قالت العفو الدولية ـ «أن مقاتلي حماس قد وجهوا حركة المدنيين لحماية الأهداف العسكرية من الهجمات. كما لم نجد دليلًا على أن حركة حماس قد أرغمت السكان على البقاء في المباني التي استخدمها مقاتلوها أو حولها، ولا على منع المقاتلين للسكان من مغادرة المباني أو المناطق التي كان يستخدمها المقاتلون»[٣].

لقد كان استهداف المدنيين الفلسطينيين عملًا متعمدًا بكل المقاييس، تقول العفو الدولية: «إن الهجمات التي تسببت في سقوط العدد الأكبر من القتلى والجرحى تمت باستخدام ذخائر بعيدة المدى وبالغة الدقة، وغالبًا ما كانت موجهة ضد أهداف مختارة مسبقًا، وهي عملية عادةً ما تتطلب موافقة التسلسل القيادي.

إن ضحايا تلك الهجمات لم يعلقوا في مناطق تبادل إطلاق النار، كما لم يكونوا يشكلون درعًا بشريًّا للمقاتلين. وقُتل العديد منهم عندما قُصفت منازلهم بينما كانوا نيامًا، بينما كان آخرون يمارسون حياتهم اليومية المعتادة في منازلهم. وكان الأطفال يدرسون أو يلعبون في غرف نومهم أو على الأسطح أو خارج منازلهم عندما ضربتهم الصواريخ أو قذائف الدبابات، بينما كان آخرون في الشارع سيرًا على الأقدام أو على دراجاتهم الهوائية»[٤].

---

(١) تقرير جولدستون، مصدر سابق، ص ٨

(٢) مارك جارلاسكو وآخرون، أمطار النار، منظمة هيومان رايتس ووتش، مصدر سابق، ص ٤،٥.

(٣) العفو الدولية، عملية الرصاص المصهور: ٢٢ يومًا من الموت والدمار، مصدر سابق، ص ١٠.

(٤) المصدر السابق، ١٤.

ندرة الخسائر الإسرائيلية

يقول البعض إن المقاومة كانت كالنملة التي يواجه فيلًا، وأن أسلحتها بدت كلُعب أطفال. وكانت النتيجة أن عرضت نفسها والشعب الفلسطيني لضرر غير مبرر، وغير متوازن مع خسائر العدو. وللرد على هذه الشبهة نكتفي بما يلي:

إسرائيل والتعتيم الإعلامي

حاولت إسرائيل حجب الحقيقة. وفرضت حصارًا إعلاميًّا على مجريات الحرب وذلك لتحقيق هدفين رئيسيين، هما: حجب الخسائر البشرية الإسرائيلية خصوصًا في صفوف الجنود، وحجب حقيقة جرائم الحرب المرتكبة في قطاع غزة، تقول العفو الدولية: «أثناء عملية الرصاص المصهور ـ وقبل عدة أسابيع من بدء العملية ـ رفض الجيش الإسرائيلي السماح بدخول المراقبين المستقلين والصحفيين ومراقبي حقوق الإنسان والعاملين في مجال المساعدات الإنسانية دخول غزة، الأمر الذي أدى فعليًّا إلى قطع غزة عن العالم الخارجي، وبالتالي منع المراقبة المستقلة لسلوك القوات الإسرائيلية هناك ونقل الأخبار المتعلقة بها. وحتى بعد إعلان وقف إطلاق النار في ١٨ يناير (كانون الثاني) استمر الجيش الإسرائيلي في منع العديد من العاملين في مجال حقوق الإنسان والمساعدات الإنسانية والصحفيين من دخول غزة. وظل بعضهم ممنوعًا من دخولها بعد مرور أربعة أشهر»[١].

إسرائيل تخفي خسائرها

حاولت إسرائيل إخفاء خسائرها في الحرب، والادعاء بأنها في معظمها جاءت عبر نيران صديقة. حتى ولو كان الأمر كذلك، فهذا يدل على تخبط القوات الغازية، وعدم التنسيق بينها. يقول أمير بوحبوط: «حادثة قاسية أمس في غزة: سمحت الرقابة العسكرية بالنشر بأن عددًا من مقاتلي لواء جولاني أصيبوا أمس في أثناء انفجار في منطقة عملوا فيها في حي الشجاعية شمالي القطاع. وتفحص إمكانية أن تكون هذه نار مضادة للدبابات من العدو، أو كبديل إصابة قذيفة مدفعية من الجيش الإسرائيلي على سبيل الخطأ. فقد أصيبت القوة

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠.

بالنار، وفرت نحو مبنى مجاور للبحث عن مأوى. ولكن ما إن وصل المقاتلون إلى المبنى حتى سُمع انفجار شديد في المكان، وانهار البيت عليهم. تُفحص روايتان:

• إمكانية أولى هي أن يكون المخربون هم الذين أطلقوا قذيفة هاون نحو القوة، وبعد ذلك أطلقوا صاروخًا مضادًّا للدبابات نحو المبنى الذي احتموا فيه.

• ولكن رواية أخرى تقول: إن القوة أصيبت بنار الجيش الإسرائيلي.

بعد انهيار المبنى، دار في المكان اشتباك كثيف بين القوة وخلايا مخربين حاولت محاصرة البيت. مروحيات سلاح الجو القتالية بدأت تهاجم أهدافًا حول القوات لمنع المزيد من خلايا المخربين من الوصول إلى مكان الحدث، ولمساعدة القوات على إنقاذ الجرحى. بطاريات المدفعية انضمت إلى النار الردعية، وبدأت تهاجم مناطق مفتوحة في المنطقة.

وأمس سمحت الرقابة ـ في أثناء تبادل النار ـ النشر عن إصابة عدد من المقاتلين، بينهم أيضا قائد اللواء العقيد آفي بيلد.

إنقاذ الجرحى جرى تحت تبادل كثيف للنار. وفي النهاية أُخلي الجرحى. ودخلت أيضًا طواقم إنقاذ ونجدة من قيادة الجبهة الداخلية نحو عمق المنطقة الفلسطينية للمساعدة في تمشيط المبنى خشية أن يكون هناك جنود آخرون علقوا تحت حطام البيت.

من حدود غزة، أُخلي الجرحى من الحدث الصعب إلى المستشفيات في إسرائيل. بعضهم وصل إلى مستشفى سوروكا في بئر السبع، آخرون إلى تل هشومير بمن فيهم دافيد بوغل ابن العميد احتياط تسفي بوغل، رئيس قيادة المنطقة الجنوبية سابقًا. العميد بوغل قال أمس: جُندت قبل أسبوع، وأنا أعمل كقائد لتنسيق النار في قيادة المنطقة الجنوبية في القتال. أنا الذي استخدمت نار المدفعية لإنقاذ الجرحى، ولم أعرف أن ابني كان بينهم أيضًا»[1].

وهذا المقال يدل أيضًا على ضراوة القتال وعنف المقاومة، كما يدل أيضًا على جسامة الخسائر الإسرائيلية التي تجعل الاحتلال في حادثة واحدة يخلي الجرحى إلى المستشفيات في إسرائيل بما فيها مستشفى سوروكا ومستشفى تل هشومير. وطبقًا لموسوعة ويكيبيديا الحرة فمستشفى سوروكا اسمه الرسمي هو «مركز سوروكا الطبي الجامعي»، ويعتبر الرابع في إسرائيل من حيث الحجم. فإذا كانت الإصابات قليلة، فما الداعي إذن لتوجيه المصابين إلى أكثر من مستشفى؟!.

---

(١) أمير برحبوط، شرك النار، هاآرتس، ٦/ ١/ ٢٠٠٩.

الباب السابع

من المنتصر؟

الفصل الأول

المعايير الإسرائيلية للنصر أو الهزيمة

تحدث العسكريون والمحللون الإسرائيليون عن معايير النصر والهزيمة لكل من إسرائيل وحماس. فنصر إسرائيل في نظرهم مشروط بتحقيق النتائج التالية:

- إيقاف إطلاق الصواريخ ومنع حماس من العودة إلى التسلح بالصواريخ.
- القضاء على قيادة حماس.
- تحقيق إنجاز سياسي.
- تحرير جلعاد شاليط.
- وضوح من هو المنتصر.
- الحفاظ على الكرامة الإسرائيلية.

هذه هي المعايير الإسرائيلية للنصر أو الهزيمة. وهذه هي مؤشرات النجاح أو الإخفاق كما يراها العسكريون والمحللون الإسرائيليون. وفي ضوء هذه المعايير، نستطيع أن نحدد من المنتصر في هذه الحرب:

المعيار الأول

منع إطلاق الصواريخ ومنع حماس من إعادة التسلح

هذا هو المعيار الأساس للنصر، والهدف الذي من أجله شُنت هذه الحرب، يقول موشيه أرنس وزير الدفاع الصهيوني الأسبق: «إذا كان لحن النهاية قبل وقف إطلاق النار هو صوت انفجار الصواريخ التي تسقط على مدن إسرائيل، فإن هذا الأمر سيُفسر في العالم كله كأن «حماس» نجحت في هزيمة إسرائيل. فضلًا عن خطر أن تستغل حماس وقف إطلاق النار للعودة إلى التسلح بصواريخ وقذائف صاروخية مداها أبعد بكثير من تلك التي تملكها اليوم. ستسبب هزيمة ثانية كهذه ضررًا لا يمكن إصلاحه بأمن إسرائيل.

كان هنري كيسنجر هو الذي قال: «إن الجيش التقليدي يخسر إذا لم ينتصر ؛ والعصابة تنتصر إذا لم تخسر». فكل منظمة إرهابية تنجح في الثبات في مواجهة الجيش الإسرائيلي، وفي البقاء والاستمرار في مقابلة هجمات إسرائيل، ستُرى منتصرة. في المعارك الحالية في قطاع غزة سيخسر الجيش الإسرائيلي إذا لم ينتصر، وستُرى حماس منتصرة»[1].

المعيار الثاني

القضاء على قيادة حماس

يقول موشيه أرنس: «يمكن إسقاط حماس كمنظمة حرب فعالة بغير دخول غزة لمدة طويلة. يجب ببساطة أن نقتل، أو أن نأسر، أو أن نطرد عددًا كافيًا من رءوس المنظمة لكي نشُلها. عندما تمتنع إسرائيل عن عملية كهذه، تُضطر إلى اتخاذ عمليات أقل نِجاعة، مثل: الحصار، والقصف، واختراق حاجز الصوت، أو عملية برية. هذه العمليات تُحدث ضررًا إنسانيًّا بغير إفضاء إلى النصر. فلماذا ترفض حكومتنا الانتصار ؟!»[2].

المعيار الثالث

تحقيق إنجاز سياسي

يرى زئيف شترينهل أن الانتصار العسكري ليس هدفًا في حد ذاته ؛ وإنما النصر الحقيقي

---

(١) موشيه أرنس، لا توقفوا إطلاق النار، هاآرتس، ٧/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) موشيه أرنس، لا يحل لنا أن نرفض هزيمة حماس، هاآرتس، ١٤/ ١/ ٢٠٠٩.

يقاس بنتائجه السياسية، أي بجر الخصم إلى التسليم بكل ما تريده إسرائيل والقبول بمشاريعها للحل، يقول الكاتب: «لكل حرب هدف سياسي. فالانتصار العسكري ليس هدفًا بحد ذاته. كانت هناك انتصارات كبيرة انتهت بهزائم وطنية، بدءًا من هانيبال الذي أحرز في حربه ضد الرومان أحد أكبر الانتصارات في التاريخ، وانتهاء بحرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ التي كانت انتصارًا زاهرًا تلته مصيبة تاريخية. لذلك من الجدير تذكير الجمهور بأن الانتصار يقاس بنتائجه السياسية، وأن الهدف الحقيقي هو السلام»[1].

المعيار الرابع

إطلاق جلعاد شاليط

تُعد مسألة أسر جلعاد شاليط وبقائه في الأسر حتى الآن أمرًا مُهينًا للجيش الذي لا يقهر، ومُهينًا أيضًا لأجهزة استخباراته المتعددة التي يدعون بأنها لا تغيب عنها شاردة ولا واردة، ومُهينًا أيضًا للمجتمع الإسرائيلي الذي لم يعد مستعدًا لبذل أي تضحية أو تعريض جنوده لخطر الأسر. لذا كان أمر تحريره معيارًا أساسيًا للنصر، يقول شلومو جازيت رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية الأسبق: «إن ما يتعرض لامتحان في قضية النصر سيحدده جواب سؤالين: الأول ـ وكان هذا على الأقل الهدف المعلن للعملية الإسرائيلية ـ مسألة تجديد الردع الإسرائيلي ؛ والمسألة الثانية هي مسألة إطلاق جلعاد شاليط من الأسر»[2].

المعيار الخامس

وضوح من المنتصر في الحرب

عدم وضوح من المنتصر يصب في صالح حماس، يقول الجنرال المتقاعد يعقوب عميدرور: «في كل حالة لا تكون فيها النتيجة واضحة، سيكون المنتصر هو الأضعف أي حماس. فالصورة التي ستُعرض ـ ويتلقاها العالم والفلسطينيون ـ هي صورة انسحاب

(١) زئيف شترينهل، انتصار ؟ الأمر يعتمد على النتائج السياسية، هاآرتس، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) شلومو جازيت، إذا لم تكن شروط إطلاق جلعاد شاليط من الأسر لم تتغير فلماذا خرجت إسرائيل لعملية «الرصاص المصهور» في القطاع ؟!، معاريف، ١٩/ ٢/ ٢٠٠٩

إسرائيلي، وانتصار لحماس. فحماس بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي ستتعلم دروس الحرب، وتبلغ الحرب المقبلة وهي أكثر استعدادًا. اعلموا أنه أسهل على حماس التحسن من الجيش الإسرائيلي. والفرق بين حماس والجيش الإسرائيلي سيقل بعقب ذلك»[١].

المعيار السادس

الحفاظ على الكرامة الوطنية

يقول إسرائيل هرئيل: «خلال جلسة المجلس الوزاري، قال رئيس الوزراء أولمرت بأنه لا يجب على إسرائيل أن تتصرف وكأنها قد فقدت ما تبقى لديها من قوة واحترام.

دولة إسرائيل أُقيمت لأسباب منها إعادة الكرامة للشعب الإسرائيلي. وحتى إن لم يظهر عنصر الكرامة الوطنية من بين الأهداف التي حُددت لعملية «الرصاص المصهور»، فقد كان ـ في نظر سكان النقب المعرضين للقصف المتواصل وفي نظر عدد غير قليل من المقاتلين في الميدان وكثيرين من الجمهور الإسرائيلي ـ هدفًا معنويًا هامًا.

إن كان الجيش الإسرائيلي قد انتصر، فلماذا تدفع الحكومة ثمنًا لا يدفعه إلا المهزومون؟!. إن كان الأمر كذلك، فوعينا هو الذي كُوي. بينما يظهر أن وعي حماس قد بقي كما كان قبل المعركة، وربما تعزز وتقوى»[٢].

* * *

(١) يعقوب عميدرور، كخيار وحيد لمواجهة حماس يجب احتلال غزة، إسرائيل اليوم، ١/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) إسرائيل هارئيل، حماس كوت لنا وعينا، هاآرتس، ١٩/ ٢/ ٢٠٠٩.

الفصل الثاني

معايير النصر فلسطينيًّا

تختلف معايير النصر فلسطينيًّا اختلافًا كبيرًا عن معايير النصر الإسرائيلية. فالنصر لدى الفلسطينيين يقاس بمعياريين هامين هما:

- مدى صمود المقاومة والشعب الفلسطيني أمام الآلة العسكرية الإسرائيلية بدون استسلام للعدو أو رضوخ لإملاءاته.
- ويقاس أيضًا بمدى التضحية والبذل في سبيل تحقيق الأماني المشروعة للشعب الفلسطيني.

يقول عكيفا الدار: «رغم سنوات الصراع الطويلة والعدد اللا متناهي من الحروب والعمليات، لم نتعلم حقيقة أن معاييرنا للانتصار والحسم مغايرة لتلك المتبعة لدى الخصم.

رغم نسبة الدمار والضحايا فقد تكرست حرب لبنان في الوعي العربي ـ كما قال موشيه يعلون ـ كانتصار بطولي على الجيش الأقوى في الشرق الأوسط.

وبسبب كثرة الأولاد القتلى في عملية غزة الأخيرة، هناك مكانة مشرفة ومحترمة لهذا الحدث في الكفاح السامي الذي يخوضه داود الفلسطيني المسلح بالقسام البدائي ضد

جالوت الإسرائيلي المزود بطائرات إف ـ ١٦. وبنفس المقياس، لا توجد للسجان أية إمكانية لحسم المعركة عسكريًا في الساحة الدولية والإقليمية والفلسطينية»[1].

قيادة حكيمة وقوات منضبطة

بينما كانت القيادة السياسية الإسرائيلية متخبطة ومنقسمة على نفسها وتسيرها مصالحها الخاصة، وظهر هذا الانقسام على وسائل الإعلام في بدايات الحرب، قيادة استحقت عن جدارة وصف أنتوني كوردسمان «أسود تقودها حمير» ؛ أثبتت قيادة حماس صمودًا وحكمة في إدارة المعركة، يقول عاموس هرئيل: «أربعة أيام لحملة رصاص مصهور، وإذا بالشقوق الأولى في الإجماع في القيادة الإسرائيلية حول سير الحملة تظهر ملموسة أمس. ويغذي الخلاف النفورُ العميق بين معظم اللاعبين في القيادة الإسرائيلية، المنافسة الكامنة على أصوات المقترعين، وكذا الكثير من الاضطراب في عملية اتخاذ القرارات، بالضبط من النوع الذي وُعد بأن يختفي نهائيًا بعد حرب لبنان الثانية وتقرير فينوجراد.

في هذه الأثناء، تنجح حماس في أن تثبت قدرات عسكرية لا بأس بها. القصف الإسرائيلي يبدو أحيانًا كتنفيس، بينما تواصل حماس إطلاق الصواريخ. حماس لا تطلق كل ترسانة الصواريخ التي في حوزتها، ورجال الذراع العسكري يظهرون انضباطا عملياتيًا. سكان في القطاع طرحوا علامات استفهام حول الحملة الإسرائيلية. «ما الذي بالضبط نجحت إسرائيل في تحقيقه ؟ الكثير من القتلى، الكثير من المباني المهدمة، وحماس لا تزال تقف على أقدامها. سياسيًا، هي أقوى من أي وقت مضى»[2].

هل يقاس النصر أو الهزيمة بعدد القتلى !!

يعتبر البعض أن سقوط ألف وأربعمائة شهيد فلسطيني هو مؤشر على خسارة حماس، ويحملها مسئولية سقوط هذا الدم الفلسطيني. وهنا لا بد أن نقرأ التاريخ الذي يقرأه عدونا ويستفيد منه، بينما نهمله نحن، أو نتناسى دروسه. لنقرأ معا مقال الكاتب الإسرائيلي يائير

(١) عكيفا الدار، الحرب في غزة رسخت مكانة حماس بخلاف ما يدعيه قادة إسرائيل، هاآرتس، ٢/ ٢/ ٢٠٠٩.
(٢) عاموس هرئيل وآخرون، خلاف في القيادة: باراك يقترح توقف ليومين، هاآرتس، ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٨..

تسبان «هل يتذكر باراك الجزائر»، والذي يقول فيه: «في ديسمبر (كانون الأول) ديسمبر ٢٠٠٠، في أواخر حكم إيهود باراك، دعاني رئيس الحكومة إلى منزله لمحادثة.

عندما رأيت على الطاولة كتاب المؤرخ البريطاني أليستر هورن «حرب وحشية للسلام: حرب الجزائر ١٩٥٤ـ١٩٦٢»، نبهت إلى أنه من الواجب على كل سياسي إسرائيلي أن يقرأه. وافقني باراك وأضاف: مع كل الاختلاف بين النزاعين، النزاع الجزائري هو الأشبه بنزاعنا مع الفلسطينيين.

أجل لا يوجد تماثل بين النزاعين. وبرغم ذلك توجد نقط تماس. في ديسمبر (كانون الثاني) ١٩٥٢ ـ عقب هجمات فتاكة لخلايا من جيش حركة التحرير الجزائرية خرجت من قواعدها على الحدود التونسية ـ قصف سلاح الجو الفرنسي القرية التونسية «ساكيت» التي تقع على أطرافها قاعدة حركة التحرير الجزائرية. أصاب القصف مستشفى ومدرسة، وأحدث عشرات القتلى ومئات الجرحى منهم نساء وأولاد، واهتاج الرأي العام العالمي.

بشرت قضية ساكيت بنهاية الجمهورية الرابعة. في الأول من يونيو (حزيران) ١٩٥٨، أصبح شارل ديجول رئيسًا لفرنسا. أعلن مع توليه السلطة «تحيا الجزائر فرنسية». وكانت سمة السنين الأربعة التالية لهذا التصريح تراجعًا شديد الألم لديجول عن مبدأ «فرنسة الجزائر، إلى إعلانه الاعتراف بحق الجزائريين في تقرير المصير في سبتمبر (أيلول) ١٩٥٩، الذي صدر بعد هجوم فرنسي متصل كانت نسبة الضحايا فيه ١:١٠ لصالح الفرنسيين.

كان مطلب ديجول البدء وقف إطلاق نار متصل، وبعده فقط التفاوض السياسي في الاستقلال. رفضت حركة التحرير الجزائرية، وطلبت تفاوضًا تأليفيًّا. لم يثُر في بال القيادة الفرنسية أنه بعد الضربات الفظيعة التي حلت بالشعب الجزائري عامة ـ وبحركة تحرير الجزائر خاصة ـ أن يستمر تصميم الجزائريين على رفض المقترحات.

في نهاية ١٩٦٠، بلغ عدد القتلى الجزائريين مئات الآلاف: من ٣٠٠ ـ ٥٠٠ ألف بحسب أقوال فرنسية، ونحو مليون بحسب الرواية الجزائرية. وكذلك كان ميزان خسائر حركة التحرير الجزائرية فظيعًا: فمن بين خمسة وأربعين ألف مقاتل، قُتل ستة وعشرون ألفًا، ووقع أحد عشر ألفًا في الأسر. وسقط ٢٣,١٩٦ قتيلًا من فرنسا في حرب الجزائر.

في بدء سنة ١٩٦١، بدأت مفاوضات سرية بين مفوض ديجول ومفوض حركة التحرير. في البداية، تخلى ديجول عن شرط وقف إطلاق النار. وكان مستعدًا أيضًا لمواجهة الجيش، وأن يفرض عليه وقف إطلاق النار من طرف واحد، وأن يحرر آلاف من حركة التحرير.

وكان ما حصل عليه من الجزائريين هو الاستعداد للمحادثة. في مارس (آذار) ١٩٦٢، وُقع اتفاق السلام الذي ضمن استقلال الجزائر.

برغم الفروق بين النزاعين لا يمكن أن نتجاهل التشابه، ولا سيما في كل ما يتصل بحدود القوة العسكرية أو عمى القادة. يحسُن أن تكون هذه الذكريات مادة للتفكير ها هنا»[1].

* * *

(١) ياثير تسبان، هل يتذكر باراك الجزائر، هاآرتس، ٨/ ١/ ٢٠٠٩.

الفصل الثالث

اعترافات إسرائيلية بالإخفاق والفشل

على الرغم من أن حملة الرصاص المصهور هي «الحملة الأكبر في تاريخ الجيش الإسرائيلي»[1]، وهي «العملية الأكثر تخطيطًا في حروب إسرائيل»[2] ؛ إلا أنه يسود إسرائيل شعور عام ـ على مستوى الساسة والمحللين والعسكريين السابقين ـ بفشل هذه الحرب فشلًا ذريعًا في تحقيق أهدافها. كما يرون أيضًا أن «حماس» خرجت من هذه الحرب بمكاسب سياسية مهمة، واستعادت قدرتها على تنمية إمكاناتها العسكرية، وترسيخ مشروعها المقاوم أمام نهج التسوية والاستسلام الذي يقوده فريق رام الله. وهذه بعض تعليقاتهم:

أبهظ ثمن

«ميزان هذه الحرب من جهة إسرائيل لا يتلخص فى عدم أي إنجاز فقط. فالحديث عن أبهظ ثمن جُبِيَ دُفع وسيدفع بعد. فقد سببت أعمال إسرائيل أضرارًا بالغة بتأييد الرأي العام لنا. في الحقيقة إن هذا لا يترجم دائمًا للغة السياسية المباشرة، لكن الأمواج الارتدادية ستأتي.

في العالم كله رأوا الصور، وقد زعزعت كل إنسان ؛ وإن لم تزعزع أكثر الإسرائيليين. والاستنتاج هو أن إسرائيل دولة عنيفة وخطرة، لا يوقفها شيء، ولا يكبح جماحها شيء،

---

(١) ناحوم برنياع، أولمرت: حققنا ما أردنا، يديعوت، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) يحزقيل دور، لماذا فشلنا في غزة، هاآرتس، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.

تتجاهل بفظاظة قرارات مجلس الأمن، وتستخف بالقانون الدولي ؛ والتحقيقات في الطريق»[1].

خسارة صافية

يرى المفكر الإستراتيجي الإسرائيلي يحزقيل دور عضو لجنة فينوجراد أن سبب فشل إسرائيل في غزة هو غياب التداخل والمزج بين الرؤية السياسية والرؤية الأمنية للحرب، فيقول: «درس مهم من حرب لبنان الثانية هو ضرورة وجود رؤية سياسية أمنية متداخلة تكون فيها وزارة الخارجية شريكًا كاملًا في القرارات الأمنية والعسكرية. هناك إنجازات سياسية من أجلها يكون من المجدي لإسرائيل أن تتعرض لضربة شديدة في صورتها، إذا لم يكن هناك سبيل آخر. هذا لم يكن على نحو ظاهر الوضع في «رصاص مصهور».

لا مفر من الاستنتاج الأليم في أن «رصاص مصهور» كررت الأخطاء الجسيمة لحرب لُبنان الثانية، والتي شددت عليها لجنة فينوجراد وأهمها «المراوحة في المكان». إسرائيل لم توقف العملية بعد بضعة أيام ولم تستخدم المرحلة الإضافية لاحتلال أهم ما في غزة. النتيجة هي إنجاز محدود بتكلفة زائدة، أي خسارة صافية»[2].

نتنياهو: المهمة في غزة لم تُستكمل

في تصريحات مهمة لنتنياهو قبل توليه رئاسة الوزراء قال فيها: «المهمة في غزة لم تُستكمل. حكومة برئاستي سيتعين عليها أن تصدر التعليمات لاستكمال المهمة. هذا موضوع عزة ذاتية. بعد أن تعود إلينا العزة الذاتية، وإلا سيكون هنا تآكل لقوة ردعنا»[3].

الصحوة من سكرة القوة

تحت هذا العنوان علقت هاآرتس على نتائج حرب الرصاص المصهور، فقالت: «لقد انطلقت إسرائيل إلى الحملة في غزة في ظروف سياسية مريحة لا مثيل لها، ردا على إعلان

(١) جدعون ليفي، فشل وثكل، هاآرتس، ٢٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) يحزقيل دور، لماذا فشلنا في غزة؟، هاآرتس، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٣) شلومو تسزنا، بنيامين نتنياهو: سنضطر إلى استكمال المهمة في قطاع غزة، إسرائيل اليوم، ٢/ ٢/ ٢٠٠٩.

حماس إنهاء التهدئة، والذي ترافق مع استئناف نار الصواريخ. وساندت الأسرة الدولية في البداية العملية الإسرائيلية، التي عُرضت كرد على الإرهاب. ولكن إصرار الحكومة على مواصلة الحملة على مدى ثلاثة أسابيع، وإحداث قتل ودمار بحجوم هائلة في غزة:

- نزع المبرر عن العملية.
- وألحق ضررًا ملموسًا بالمكانة الدولية لإسرائيل.
- ما بدأ كحرب عادلة يبدو اليوم كانقضاض وحشي على سكان عديمي الحماية.
- العزلة المتعاظمة لإسرائيل تبدو من كل حدب وصوب.
- العالم العربي عاصف بسبب صور الأطفال القتلى والمنازل المهدمة في غزة.
- العلاقات مع تركيا في أزمة.
- مرة أخرى تنطلق الدعوات لتقديم ضباط الجيش الإسرائيلي والسياسيين الإسرائيليين إلى المحاكمة بتهمة جرائم ضد الإنسانية.
- فرنسا تتهم إسرائيل بوضع المصاعب في وجه أعمال الترميم في غزة.
- كما أن «النصر» و «ترميم الردع»، اللذين تباهى بهما زعماء الدولة في نهاية الحملة موضع شك حين تتواصل النار من غزة.
- وحماس تحظى باعتراف متعاظم في العالم»[1].

حماس لم تُهزم

تحت هذا العنوان يقارن سيفر بلوتسكر بين حربي يوليو (تموز) ٢٠٠٦ وحرب غزة ٢٠٠٨، واختلاف النظرة الإسرائيلية عن النظرة الدولية حول من المنتصر في هاتين الحربين؟ فيقول: «في ختام حرب لبنان الثانية خضت تجربة كررت نفسها ـ ولكن بالعكس ـ في هذه الأيام. سافرت في حينه بتكليف من الصحيفة إلى أوروبا وإلى الولايات المتحدة، وسمعت من كل صوب أُناسا يهنئوننا على انتصارنا في حرب لبنان. هكذا في المحادثات الخاصة، وكذا في التحليلات المنمقة في وسائل الإعلام. الرأي العام في الغرب

---

(١) أسرة التحرير، الصحوة من سكرة القوة، هاآرتس، ١/ ٢/ ٢٠٠٩.

كان: أنه وإن كانت إسرائيل من الناحية العسكرية لم تُنه المهمة ؛ ولكنّ جملة إنجازاتها في حرب لبنان مثيرة جدًّا للانطباع:

- حزب الله تلقى ضربة شديدة، ووعيه كُوي لسنوات طويلة.
- الأمم المتحدة اتخذت قرارات مثلما أرادت إسرائيل.
- في الحدود اللبنانية يرابط جيش لبناني ودولي.

هذا التقدير الغريب في أن إسرائيل انتصرت نصرًا عظيمًا في حرب لبنان الثانية، تناقض تمامًا مع إحساس الإحباط، والاستياء، والخجل الذي ساد البلاد في حينه.

والآن أيضًا، في سفريتي الأخيرة أُصبت بصدمة عميقة. من اللقاءات، ومن المحادثات، ومن المحاضرات، ومن الإنصات لوسائل الإعلام صعد صوت واضح واحد يختلف جوهريًّا عن الصوت الذي أُطلق في البلاد «إسرائيل خسرت الحرب في غزة خسارة فادحة»:

- إسرائيل لم تكسر «حماس».
- ولم تخفف نفوذها.
- وفشلت في المساعي الإعلامية لعرضها كحركة تُعرِّض السلام العالمي للخطر ـ الأمر الذي نجحت حقًّا في فعله لحزب الله.

الصحيفة الأمريكية وول ستريت جورنال ـ إحدى الصحف الأكثر تأييدًا لإسرائيل ـ نشرت تقريرًا كبيرًا يشرح:

- كيف عززت إسرائيلُ «حماس» ؟
- كيف جعلتها جهة سائدة في الساحة الفلسطينية ؟ كيف خرجت حماس من القتال في غزة ويدها هي الأعلى ؟
- ولماذا كنتيجة لذلك ستكون إسرائيل ملزمة رغم أنفها بالتسليم بدولة حماس في كل السلطة الفلسطينية؟

حتى في أوساط الطائفة اليهودية في نيويورك سمعت المرة تلو الأخرى السؤال الهازئ: هل إسرائيل خرجت إلى الحرب ضد حكم حماس ؛ أم ضد إدارة الولايات المتحدة ؟ إذ إن إسرائيل أخضعت الإدارة الأمريكية وأجبرتها على التوقيع على مذكرة تفاهم لمكافحة تهريب السلاح إلى قطاع غزة ؛ ولكن حكم حماس نفسه: .

- لم يُهزم.
- لم يُصف.
- لم ينزل إلى ركبتيه.
- بل، ولم يتعهد بالحد الأدنى المتوقع من منظمة مهزومة. فقد نجا، وهو يرفس ويطرح شروطًا.

عدت من لقاءاتي في المنفى وقد تلقيت درسًا: في الوقت الذي حققت حرب لبنان الثانية - الفاشلة في الإحساس الإسرائيلي - نزعًا شاملًا لشرعية حزب الله ؛ فإن حرب غزة - الناجحة في الإحساس الإسرائيلي - منحت شرعية لحماس.

فقط رجل واحد لا يزال يمنع الحكومات في الغرب من فتح حوار مباشر مع حماس التي لم تُهزم. اسمه باراك أوباما. ولكن حتى متى ؟!»[1].

* * *

(١) سيفر بلوتسكر، حماس لم تُهزم، يديعوت، ٢٧/ ١/ ٢٠٠٩.

الفصل الرابع

تهاوي الردع الإسرائيلي

الردع هو «المنع من القيام بعمل نتيجة للخوف من العواقب»[1]. وهو في حالة الصراع بين إسرائيل والمقاومة: هو منع الفلسطينيين من إرادة المقاومة، أو القدرة على المقاومة.

ولقد فشلت حرب الرصاص المصهور فشلًا ذريعًا في تحقيق أهداف إسرائيل من الردع، وكي الوعي الفلسطيني، ومنع المقاومة من إطلاق الصواريخ، أو استئناف تهريب السلاح عبر الأنفاق أو عبر البحر، وهذا ما يعترف به المحللون والساسة الإسرائيليون أنفسهم:

من المحتمل أن نكون قد ردعنا أنفسنا فقط

تحت هذا العنوان كتب ناحوم برنياع قائلًا: «استعدنا الردع، قال الجميع والأصح قلنا جميعًا، من سكان سديروت وعسقلان حتى كاتب هذه السطور ؛ ولكننا لم نُعبر في قولنا هذا إلا عن الأماني. على أية حال نحن لم نردع حماس. أحد قادة أجهزة الدفاع قال لي في هذا الأسبوع : من المحتمل أن نكون قد ردعنا أنفسنا فقط»[2].

(١) صموئيل بار، التجربة الإسرائيلية في ردع المنظمات الإرهابية، مصدر سابق، ص ٨.
(٢) ناحوم برنياع، من المحتمل أن نكون قد ردعنا أنفسنا فقط، يديعوت، ٢٠/ ٢/ ٢٠٠٩.

تهديدات عقيمة وسخيفة

تحت هذا العنوان، قالت هاآرتس: «بينما تستمر نار القسام على بلدات الجنوب ـ وكأنه لم تكن هناك حرب لوضع حد لها ـ كرر أمس رئيس الوزراء إيهود أولمرت تهديده على حماس، وكأنه يوجد لتهديداته أي مفعول، وكأننا لم نوجع ولم نمس بما فيه الكفاية بسكان غزة دون جدوى»[1].

إسرائيل مرة أخرى محل السخرية والاستهزاء

الوزير الإسرائيلي حاييم رامون أبدى بعض الاعتراضات على خطة حرب غزة، يقول بن كاسبيت: «في جلسة المجلس الأمني المصغر الذي أجيزت فيه عملية دخول غزة في حرب الرصاص المصهور، الوزير حاييم رامون ـ الذي امتنع عن التصويت ـ قال: إن ما أثار غضبه أهداف العملية. هل هو تغيير الواقع الأمني جنوبي البلاد ؟ أمن أجل هذا تدخلون غزة؟، يمكن فعل هذا بعملية جوية. من أجل ماذا إذن الدخول ؟ أمن أجل تعريض حياة الجنود إلى الخطر ؟ لماذا يجب علينا قبول دولة حماس قرب مدخل عسقلان ؟ إن العالم كله ولا سيما العالم العربي يجلس وينتظر منا أن نُطيّر حماس من هنا.

تخيلوا أنه في نهاية هذه العملية كل الجيش الإسرائيلي الكبير وسلاح الجو وتجنيد الاحتياط، يخرج وتبقى دولة حماس هنالك كأنه لم يوجد شيء. ستكون إسرائيل مرة أخرى محلًا للسخرية والاستهزاء.

توجد عندنا الآن فرصة قد لا تتكرر لتوجيه ضربة ساحقة إلى محور الشر الذي يحدق بنا. أن نوقف مسيرة نصرهم. ألسنا نستطيع ؟ قولوا لي في وجهي، ألا نستطيع ؟ ألا يستطيع الجيش الإسرائيلي أن يهزم حماس ؟ إنها منظمة قذرة، في أسفل الهرم، وهم يستغلون صدماتنا النفسية ليسخروا منا في وجوهنا. هذا فظيع. ولا يُتصور»[2].

هذيان ردع حماس

تحت هذا العنوان كتب وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق موشيه أرنس مقالًا يفند فيه

---

(١) أسرة التحرير، تهديدات عقيمة وسخيفة، هاآرتس، ٢/ ٣/ ٢٠٠٩.

(٢) بن كاسبيت، وجهات نظر الساسة الإسرائيليين الكبار بالنظر إلى الحرب، معاريف، ٩/ ١/ ٢٠٠٩

مزاعم وزيرة الخارجية الإسرائيلية حول ترميم قدرة الردع الإسرائيلية، يقول: «وزيرة الخارجية الساذجة تسيبي ليفني لم تكن الوحيدة التي أعلنت بأن الحملة في غزة رممت قدرة الردع الإسرائيلية. سياسيون كثيرون هنا يتفقون معها.

فكرة الردع قد تكون صحيحة عندما يدور الحديث عن إحدى جارات إسرائيل؛ ولكن ردع منظمة إرهابية هو موضوع آخر تمامًا. إذا ما تقرر وقف للنار قبل أن تُصفى قدرة حماس على إطلاق الصواريخ، فستُعتبر المنظمة منتصرة. وعليه، فإن فكرة ردع حماس فكرة هاذية. حماس يجب هزيمتها. والهزيمة معناها تصفية قدرة المنظمة على إطلاق الصواريخ نحو إسرائيل. وهذا يعني: أن على الجيش الإسرائيلي أن يصل إلى المناطق التي تُطلق منها الصواريخ. عندما لا تسقط المزيد من الصواريخ في إسرائيل، سيكون واضحًا من انتصر في المعركة»[1].

مكاسب إستراتيجية وتكتيكية للمقاومة

حققت المقاومة الفلسطينية الباسلة في حرب الرصاص المصهور مكاسب مهمة على المستوى التكتيكي والاستراتيجي، وكلها تعني تهاوي الردع الإسرائيلي:

إفشال سياسة تجريد المقاومة من السلاح

«الترتيبات الأمنية في سيناء كانت تقوم على أساس تجريد شبه الجزيرة من السلاح وتقسيمها إلى ثلاثة مقاطع، في كل واحد منها يُسمح للجيش المصري بأن يحتفظ بقوات قليلة فقط. هذا الانتشار يلبي الاحتياجات الأمنية لإسرائيل.

منذئذ، يُعتبر «مبدأ التجريد من السلاح» مدماكًا أساسيًا في التخطيطات الإسرائيلية للتسويات السلمية المحتملة مع باقي جيرانها، وهو يعتبر شرطًا مفهومًا من تلقاء نفسه في اتفاقيات السلام المستقبلية.

ختام حملة «رصاص مصهور» يدل على أن مبدأ التجريد ليس قابلًا للتطبيق في العلاقات بين إسرائيل والفلسطينيين. موقف حماس يقرر عمليًا أن الفهم الإسرائيلي بشأن تجريد مناطق الضفة ومناطق غزة من السلاح هو أضغاث أحلام.

(١) موشيه أرنس، هذيان ردع حماس، هاآرتس، ١٤/ ١/ ٢٠٠٩.

استعداد القيادة الفلسطينية في عهد أوسلو لقبول المطالب الإسرائيلية للتجريد من السلاح يتبدد، ويحتل مكانه نهج حماس»[1].

ضرب أسس نظرية الأمن الإسرائيلي

أثبتت الصواريخ الفلسطينية فشل السياسة الأمنية الإسرائيلية التي تقوم على نقل الحرب إلى أرض الغير، ومنع استهداف الداخل الإسرائيلي، وضرورة أن تكون الحرب حربًا خاطفة حتى لا تتحول إلى حرب استنزاف. كما أفشلت أيضًا نهج إسرائيل في التسوية القائم على التوسع والاحتفاظ بالأراضي العربية لحماية الداخل الإسرائيلي، يقول يوئيل ماركوس: «مهما كان الشكل الذي تنتهي إليه حملة رصاص مصهور، فإن الدرس الجانبي المهم من الحملة هو أن الموضوع الإقليمي بات أقل أهمية كشرط أساسي للتسوية. اليوم، عندما يكون بوسع الصواريخ أن تصل إلى ذات الهدف من الشمال ومن الجنوب، من مسافة عشرات الكيلومترات، فإن الخطر الذي في التنازل عن هذا التل أو ذاك بسبب اقترابه من المطار مثلًا، لم يعد كبيرًا.

كل الموضوع الإقليمي فقد أهميته. وموضوع الاحتفاظ بالمناطق ـ وتأثيره على التسوية السياسية ـ بات ينتمي أكثر فأكثر إلى الماضي. كيلومتر هنا أو كيلومتر هناك، هذا ينتمي فجأة إلى القرن الماضي في عصر الصواريخ. وعلى وزن الفيلم الأمريكي الشهير «يا حلو، الأطفال تقلصوا» يمكن أن نقول: «يا حلو، الكيلومترات تقلصت»[2].

توسيع رقعة الأرض المستهدفة بصواريخ المقاومة

«عندما ستتبدد أعمدة الدخان في الجنوب سيتعين علينا أن نصحو لنسأل أنفسنا: ماذا حصل لنا؟! كيف اقتنت حماس القدرة على تشويش الحياة في ثلث الدولة وإدخال مليون إسرائيلي إلى الملاجئ؟!»[3].

استمرار التهريب وتسلح حماس

في تصريحات ليوفال ديسكن رئيس جهاز الشاباك الإسرائيلي أمام أعضاء لجنة الخارجية

---

(١) عوزي بنزيمان، منطقة مجردة من السلاح دون إعلان، معاريف، ٢٩/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) يوئيل ماركوس، يا حلو: الكيلومترات تقلصت، هاآرتس، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٣) يوفال شتاينتس، التجريد المفقود، هاآرتس، ١٢/ ١/ ٢٠٠٩.

والأمن في الكنيست، قال فيها: «حماس والمنظمات تعمل بنشاط على إعادة بناء منظومتها العسكرية، التي تضررت في أثناء حملة «رصاص مصهور». المقاومون في القطاع يحاولون أن يجلبوا طوال الوقت سلاحًا صاروخيًا أدق لمسافة تفوق ٤٥ كيلومترًا، الأمر الذي يتيح لهم ضرب مدن جوش دان[1]. تحت حدود القطاع مع مصر يعمل أكثر من ثلاثمائة نفق، عبرها يُهرب الفلسطينيون البضائع والوسائل القتالية»[2]. «بعض الأنفاق تم توسيعها بشكل يسمح بتمرير تراكتورات صغيرة عبرها»[3].

«تسريع التهريب سمح على ما يبدو لحماس بالتزود بكميات كبيرة نسبيًا مما يصفه الجيش الإسرائيلي بأنه «سلاح خارق للتوازن»: صواريخ بعيدة المدى، صواريخ متطورة ضد الدبابات، وحسب الاشتباه صواريخ مضادة للطائرات أيضًا. وإضافة إلى ذلك، نجحت حماس في زيادة مدى الصواريخ من إنتاج ذاتي ـ القسام على أنواعه ـ من خلال مساعدة علمية وتكنولوجية من إيران، تلك الصواريخ التي تتجاوز الأنواع البعيدة منها حاجز العشرين كيلومترًا»[4].

ولقد « شددت حماس في الآونة الأخيرة من تهريب السلاح عبر البحر. وحسب زعم محافل أمن فلسطينية، فإن سفن التهريب ترسو في المياه الدولية، وتلقي إلى البحر بصناديق كبيرة مليئة بالسلاح. بعض هذه الصناديق يصل إلى الشاطئ، وأخرى تُجتذب من قلب البحر إلى سفن الصيادين الغزيين. لا يوجد هنا مجال للصدفة، فهم يعرفون بالضبط أين يُلقون الصناديق، وإلى أين ستصل حسب التيارات المائية»[5].

إسرائيل ومحاولة الحماية من التهديد الصاروخي الفلسطيني

تسعى إسرائيل إلى درء خطر التهديد الصاروخي الفلسطيني عبر منظومات الحماية الصاروخية ضد القذائف والصورايخ قصيرة المدى، وعبر منع التهريب عبر مسالكه

---

(١) أي منطقة تل أبيب.

(٢) جدعون ألون، رئيس المخابرات: يجب إسقاط حكم حماس، إسرائيل اليوم، ٢٠/ ٥/ ٢٠٠٩.

(٣) عاموس هرئيل، غزة بعد «رصاص مصهور»: حماس تتسلح بصواريخ بعيدة المدى وبصواريخ مضادة للطائرات، هاآرتس، ٢٢/ ٤/ ٢٠٠٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) عميت كوهين، حماس تشدد التهريب من البحر.. التخوف: سلاح «خارق للتوازن» في قطاع غزة.. مسار التهريب الجديد لحماس، معاريف، ١٩/ ٤/ ٢٠٠٩.

ودروبه المختلفة. فلقد «أمر وزير الحرب إيهود باراك جهاز الأمن بشراء منظومة إسقاط صواريخ وردع «فالكان فلينكس» من الولايات المتحدة لتُستخدم للدفاع عن بلدات الجنوب ضد نار قذائف الهاون والمقذوفات الصاروخية قصيرة المدى. وقال باراك: إنها ستكون جزءًا من منظومة دفاعية متعددة الطبقات لإسقاط الصواريخ. مثل هذا الدفاع هو هدف إستراتيجي. الهدف هو خلق وضع نُسقط فيه أكبر قدر من الصواريخ الكثيرة التي تُطلَق نحونا. إسرائيل تسعى إلى بناء منظومة دفاعية ضد الصواريخ وإسقاطها تتشكل من عدة شرائح: «فالكان» الذي سينصب في خط الدفاع الأول. و«قبة حديدية» التي توجد في عملية التطوير في رفائيل، ومنظومة «شربيت قسميم» التي تطورها رفائيل بالاشتراك مع الشركة الأمريكية «رايتون». ومنظومة حيتس المحسنة»[1].

ولكن الإسرائيليين أنفسهم يشككون في جدوى هذه المنظومات المتعددة المضادة للصواريخ، وفي جدوى محاولات منع التهريب:

واقع أكثر قتامة

«لو أن الأسماء الكبيرة كان بوسعها أن توقف الصواريخ لكانت الجبهة الإسرائيلية الداخلية منذ زمن لا تخضع لخطر صوارخ القسام، والكاتيوشا والجراد على أنواعها. «قبة حديدية» و «عصا سحرية» ـ من هو العدو الذي سيتجرأ على إطلاق سلاح صاروخي نحو الجليل والنقب حين تكون إسرائيل مزودة بمنظومات تحمل مثل هذه الأسماء الرائعة؟! غير أن الواقع أكثر قتامة من عقول مخترعي الشعارات الحديد والسحر لا يزالان بعيدين عن حماية إسرائيلي واحد»[2].

هكذا تسخر مني إنجازاتي

بهذه العبارة الساخرة لشكسبير يختم المستشرق الإسرائيلي جي باخور مقاله الذي يعلق فيه على محاولات إسرائيل ـ بشتى الوسائل ـ منع التهريب، فيقول: «إذا كان النبأ عن قصف سلاح الجو قافلة في السودان صحيحًا فهذه أخبار سيئة ؟ لأن معنى الأمر أننا لم ننجح لا في أثناء حملة «رصاص مصهور» ولا بعدها في تحقيق إنجازات دولية، أو دبلوماسية، أو نفسية أو ردعية، تمنع استمرار تهريب السلاح إلى غزة.

---

(١) يوسي ميلمان، وزير الحرب يأمر بشراء منظومة دفاع ضد القسام، هاآرتس، ٢١/ ٤/ ٢٠٠٩.

(٢) أسرة التحرير، عصاة سحر عابثة، هاآرتس، ٤/ ٣/ ٢٠٠٩.

في لبنان نجحنا في أن نقيم ـ نحن إلى جانب العالم ـ بضع آليات رقابة ومنع ؛ ولكن ليس هكذا هو الحال في غزة. مثل هذا الهجوم في السودان هو هجوم يأس، هجوم اللامفر، هجوم من تبقى وحده. فإخراج قافلة أخرى سهل جدًّا. وما كنت لأنفعل أكثر مما ينبغي بالإنجاز: فليس له أدنى صلة بمنع تدفق السلاح إلى غزة أو خلق ردع. هو يدل فقط على ما سبق لشكسبير أن كتب يقول: الويل، هكذا تسخر مني إنجازاتي»[1].

* * *

(١) جي باخور، الهجوم في السودان، يديعوت، ٢/ ٤/ ٢٠٠٩.

الفصل الخامس

ضرر ملموس بمكانة إسرائيل الدولية

لقد ألحقت حرب الرصاص المصهور ضررًا بالغًا بمكانة إسرائيل الدولية. يؤكد ذلك ألوف بن، فيقول: «الحملة في غزة أثارت رد فعل دولي حاد للغاية لسببين:

- الأول: بسبب التوازن: إسرائيل تكبدت فقط قليلًا من الخسائر نتيجة الصواريخ التي أُطلقت من غزة، وأحدثت هي - ردًا على ذلك - قتلًا ودمارًا هائلين.
- الثاني: في غزة كان الضحايا فلسطينيين من الذين يحملون مأساة ١٩٤٨، ويعانون من الاحتلال والحصار الاقتصادي، ويتمتعون بعطف العالم.

إلى جانب الضرر الإعلامي، ألحقت الحملة في غزة بإسرائيل ضررًا سياسيًّا أيضًا. وهاهنا قائمة جزئية: العلاقات مع تركيا تلقت ضربة، وسوريا أوقفت المفاوضات غير المباشرة التي أدارتها مع إسرائيل بوساطة الأتراك، ومصر أُهينت من الطريقة التي عرقل فيها أولمرت اتفاق التهدئة في الجنوب، وبوليفيا وفنزويلا قطعتا العلاقات»[1].

إسرائيل أكثر دولة يكرهها العالم

«وجود دولة إسرائيل - أجل وجودها! - متعلق بالشرعية من قِبل أمم العالم. نُشر

(١) ألوف بن، الحملة التي أعطت الشرعية لحماس، هاآرتس، ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٩.

في الأسبوع الماضي أن إيران وإسرائيل هما أكثر دولتين يكرههما الرأي العام في العالم، وما ينقص نتنياهو الآن هو أن يخاصم أحمدي نجاد على المرتبة الأولى فقط»[1].

و«في الفترة الأخيرة تصل إلى وزارة الخارجية تقارير مقلقة من السفارات الإسرائيلية في الخارج عن تآكل في شرعية دولة إسرائيل. ويفيد دبلوماسيون كبار يخدمون في أوروبا بأن إسرائيل توشك على أن تُعتبر في أوساط نخب معينة في أوروبا دولة منبوذة»[2].

الربط بين إسرائيل والنازية

«في أوروبا: أصبح جزء آخذ في الكبر من يساريي العالم ـ بعضهم من أصدقاء إسرائيل وبعضهم من اليهود ـ أصبحوا يرون الاحتلال الإسرائيلي مظهرًا من مظاهر النازية. إن إسرائيل في ٢٠٠٩ تُذكر أكثر فأكثر بألمانيا في بدء الثلاثينيات. إن عملية سلب الفلسطينيين إنسانيتهم يُذكر بأحداث مخيفة. ويوجد عدد غير قليل من أوامر الجيش الإسرائيلي وقوانين الكنيست التي لو تُرجمت إلى الألمانية لأثارت الذهول»[3].

تصدع أسطورة السيطرة الإسرائيلية

«أسطورة السيطرة الإسرائيلية على زوافع القوة في العالم ـ بروحية بروتوكولات حكومات صهيون ـ تتصدع مرة تلو الأخرى في ظل واقع القرن الحادي والعشرين. على خلفية تأثير الأقليات الإسلامية المتزايد في أوروبا، والتي تقترب من التعادل مع قوة اليهود السياسية في أمريكا، ربما يجدر بإسرائيل أن تتوقف عن نفي ذلك، والبدء في الاستعداد لهذه المرحلة على أمل أن يعود أحد إلى تصديقها»[4].

العلاقات مع تركيا في أزمة

كانت العلاقات الإسرائيلية التركية قبل حرب غزة تتميز بتشعبها ومتانتها. ويرجع

---

(١) إيتان هابر، جهاز سياسي محطم، يديعوت، ١١/ ٢/ ٢٠٠٩.

(٢) أيتمار آيخنر، حملة لتحسين صورة إسرائيل، يديعوت، ١١/ ٣/ ٢٠٠٩.

(٣) جدعون ليفي، ليست هذه محرقة، هاآرتس، ٢١/ ٤/ ٢٠٠٩.

(٤) أمير أورون، حنين إلى بروتوكولات صهيونية، هاآرتس، ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٩.

ذلك إلى الدور الذي تلعبه المؤسسة العسكرية التركية في صياغة التوجهات السياسية لتركيا، وسيطرتها على صنع سياستها الخارجية، فهي حارسة العلمانية، وسادنة العلاقة مع إسرائيل، وتفرض سطوتها على الأحزاب السياسية، وتقف حجر عثرة أمام عودة الوجه الإسلامي لتركيا، وتسيطر على مجلس الأمن القومي التركي.

وأكثر من ذلك، فهناك «علاقة حميمة وعاطفية وشبه أسرية، بين كبار رجالات الجيش التركي ونظرائهم في الجيش الإسرائيلي»[1].

لكن حرب غزة، فجرت غضبًا عارمًا في تركيا، ومظاهرات مليونية شبه يومية في إسطنبول وغيرها من المدن الكبرى التركية. ووقف رئيس وزرائها رجب طيب أردوغان موقفًا صلبًا أعاد إلى الأذهان أمجاد الخلافة العثمانية، ومواقف السلطان عبد الحميد حيال قضية فلسطين. لقد قال أردوغان بعبارات قوية حاسمة في منتدى دافوس: «أنا سليل العثمانيين».

يتحدث عوفر شيلح عن أهمية تركيا لإسرائيل، وتأثير حرب غزة على العلاقة بينهما فيقول: «تركيا تشتري منا السلاح والمعلومات. من الواضح أن المشتريات التركية والعلاقات المتبادلة هي ثروة هائلة بالنسبة لجهاز الأمن الإسرائيلي.

من الواضح أيضًا أن الصخرة الحاسمة بيننا وبين حليفتنا الهامة جدًّا تشهد شرخًا ذا مغزى خطير بالنسبة لأمن إسرائيل، وبصورة تفوق قضية الصواريخ هنا في غزة. إننا قد انتصرنا في الصدام في منطقة العطاطرة. ولكننا قد خسرنا في جبهة أخرى أكثر أهمية: أنقرة»[2].

ملاحقة مجرمي الحرب الصهاينة

«الفزع الذي أصاب الحكومة وهيئة الأركان من خطر تعرض ضباط شاركوا في عملية الرصاص المصهور لدعاوى قضائية في الخارج، يبين أنهم سيُضطرون بعد أعمال القتل والدمار، إلى توفير مظلة لحماية قادة الكتائب في غزة. أسماء هؤلاء القادة نُشرت وبتشجيع من الجيش الإسرائيلي في كل صحيفة وقناة إعلامية. قصف أرشيف حماس لن يجدي نفعًا لأن شبكة الإنترنت حية ترزق»[3].

---

(١) تسفي برئيل، العلاقات الإسرائيلية التركية جدار غير قابل للشرخ، هاآرتس، ٢١/ ٢/ ٢٠٠٩.
(٢) عوفر شيلح، إسرائيل ربحت معركة غزة إلا أنها خسرت معركة تركيا، معاريف، ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٩.
(٣) أمير أورون، من لبنان إلى غزة عاشت الأخطاء الإسرائيلية الجديدة، هاآرتس، ٢٦/ ١/ ٢٠٠٩.

هذه الملاحقة امتدت لتشمل مجرمي الحرب الكبار من ساسة إسرائيل، فلقد صدر بحق تسيبي ليفني أمر اعتقال من محكمة بريطانية مما دعاها إلى الهرب على عجل من بريطانيا. تعليقًا على ذلك، يقول نداف إيال: «عندما يقول مسئولون إسرائيليون صراحة إن على مقاتلي الجيش الإسرائيلي أن يفضلوا دومًا حياتهم على حياة مواطني العدو، عندما يسعون إلى شطب أحياء كاملة، فإنهم يقصدون صراحة إمكانية تنفيذ جريمة حرب. في النهاية، هذه التصريحات تشق طريقها إلى تقارير دولية كإثبات على السياسة الإسرائيلية، ومن هناك الطريق قصيرة إلى حجرة الاعتقال في المحكمة الجنائية في لندن»[1].

ويسمي الكاتب هذه الملاحقة: «الانتفاضة القضائية، التي تتحول إلى جبهة هامة للصراع الإسرائيلي في العالم».

* * *

(١) نداف إيال، لا تنتظروا لهذا أن يمر، معاريف، ١٧/ ١٢/ ٢٠٠٩.

الفصل السادس

تعزيز مكانة حماس

خرجت حماس من حرب الرصاص المصهور وقد تعززت مكانتها فلسطينيًا وعربيًا ودوليًا باعتراف الصهاينة أنفسهم، يقول زئيف تشرينهل: «يجدر أن نلفت الأنظار إلى حقيقة أن «حماس» قد حظيت رغم هزيمتها العسكرية بعدة نجاحات ستحصدها في المستقبل: حصلت على اعتراف من مجلس الأمن باعتبارها الطرف المسيطر على مقاليد الأمور في غزة. ورغم كونها تنظيمًا عسكريًا، إلا أنها تخرج من هذه الحرب على صورة الضحية.

السبب من وراء ذلك كان الاستخدام اليومي لقوة نارية هائلة، ربما كانت ضرورية على المستوى التكتيكي، ولكن سرعان ما أدت إلى انقلاب ليس فقط على مستوى الرأي العام العالمي، وإنما أيضًا عند الحكومات الصديقة. يبدو أنه لا يوجد مشاهدون للتلفاز في العالم لم يتأثروا من مشاهد جثث الأطفال والقتلى»[1].

ويقول ألوف بن: «الضرر الأساس الذي ألحقته بنا هذه الحملة كان هو الشرعية التي أعطتها لحماس كحاكم في القطاع»[2].

تعزيز مكانة حماس فلسطينيًا وعربيًا

يقول تسفي برئيل: «هذا هو موعد بدء الفصل الجديد في تاريخ حماس. عندما يفكر

---

(١) زئيف تشرينهل، انتصار ؟ الأمر يعتمد على النتائج السياسية، هاآرتس، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) ألوف بن، الحملة التي أعطت الشرعية لحماس، هاآرتس، ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٩.

الفلسطينيون بالعودة إلى الحوار الداخلي استعدادًا لإقامة حكومة وحدة، واضح للطرفين أن «حماس» خرجت من الأسابيع الثلاثة للقتال معززة القوة بالذات. كبار رجالاتها في غزة باتوا يتجولون في الشوارع، ولا يخشون من تصفية مركزة من جانب إسرائيل»[1]، ويعزو مردخاي كيدار ذلك إلى عدة أسباب أهمها:

١ ـ «السلطة الفلسطينية برئاسة «أبو مازن» أُتهمت بأنها شجعت إسرائيل على ضرب حماس، وهكذا تضعضعت شرعيته نفسها كرئيس للفلسطينيين.

٢ ـ معظم الجمهور الفلسطيني يتهم إسرائيل ـ وليس «حماس» ـ بالتسبب في الخسائر في الأرواح والأملاك.

٣ ـ نظافة أيدي قادة حماس جلب لهم النصر في الانتخابات في يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٦ على منظمة تحرير فلسطين التي تُعتبر منظمة فاسدة وكريهة.

٤ ـ حماس في أعقاب صمودها، عُرضت بصفتها الحركة المقاتلة الأصيلة الوحيدة؛ بينما عُرضت منظمة تحرير فلسطين كمنظمة عاجزة وعجوز تسير خلف أمريكا.

٥ ـ في أعقاب الحملة، نجحت حماس في أن تموضع نفسها كالمنظمة الأكثر تأثيرًا على السياسة العربية. وتُعتبر الحركة قوة صاعدة، تهز كراسي الملوك والرؤساء الأكثر تأثيرًا في العالم العربي.

فهل نعجب أن «حماس» تصعد؟ ليس بعيدًا اليوم الذي تحظى فيه حماس بلقب الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني»[2].

تعزيز مكانة حماس دوليًا

تعززت أيضًا مكانة حماس دوليًا. وأخذت حلقات الحصار الدولي على حماس تضعف بعض الشيء، وتلين شروطها، وإن كان الأمر ليس ملموسًا وليست له دلالة كبيرة حتى الآن. يقول باراك رابيد: «على نحو غير مسبوق سيلقي خالد مشعل خطابًا في بحث مغلق

---

(١) تسفي بارئيل، عذرًا أن انتصرنا، هاآرتس، ٢٣/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) مردخاي كيدار، هزيمة واحدة وستة أسباب لتعزز حماس، إسرائيل اليوم، ٢٥/ ١/ ٢٠٠٩.

يعقده البرلمان البريطاني، رغم ممارسة الضغوط على مسئولين كبار في البرلمان البريطاني، إلا أنه سيتم كما هو مخطط له.

خطاب مشعل سينقل بالبث الحي والمباشر من دمشق. ولقد حاولت السفارة الإسرائيلية في لندن تجنيد النواب الأصدقاء لإسرائيل لممارسة الضغط من أجل إلغاء الحدث؛ إلا أن الجهود فشلت»[1].

* * *

(١) باراك رابيد، مسئول حماس مشعل سيخطب بالفيديو أمام البرلمان البريطاني، هاآرتس، ٢١/ ٤/ ٢٠٠٩.

الفصل السابع

المكسب الوحيد الذي حققته إسرائيل

تُعد الاتفاقية الأمنية الموقعة في ١٦/ ١/ ٢٠٠٩ بين إسرائيل وأمريكا لمنع تهريب السلاح إلى غزة هي المكسب الوحيد الذي حققته إسرائيل. وذلك للأسباب التالية:

- أوكلت هذه الاتفاقية منع حصول المقاومة على السلاح إلى حلف دولي تشارك فيه الولايات المتحدة وجهات متعددة مثل حلف شمال الأطلنطي والأطراف الإقليمية.
- تتسع رقعة منع تهريب السلاح لتشمل منطقة ممتدة عبر البحر الأبيض المتوسط، وخليج عدن، والبحر الأحمر، وشرق أفريقيا.
- تحسين الآليات القائمة ووضع آليات جديدة لمنع التهريب.
- تشديد العقوبات الدولية، وآليات التطبيق ضد تقديم المساعدة المادية لحماس وغيرها من المنظمات الفلسطينية.

الاتفاقية: رؤية مغايرة

إذا كانت الاتفاقية تعد مكسبًا لإسرائيل، فهي إن نظرنا إليها برؤية مغايرة تُعد خسارة كبرى لها. وذلك للأسباب التالية:

- هذه الاتفاقية اعتراف إسرائيلي وأمريكي بفشل إسرائيل في تحقيق أحد الأهداف الرئيسية لحرب الرصاص المصهور، وفشل الحصار المضروب على قطاع غزة.

• واعتراف أيضًا بعدم قدرتها على وقف تهريب السلاح إلى غزة على الرغم مما تمتلكه إسرائيل من قدرات استخبارية هائلة، وشبكة ممتدة من العملاء والمصالح.

• وتدل على إبداعات العقل الفلسطيني المقاوم الذي يتكيف دائمًا مع أي متغير جديد، فيبتكر من الوسائل والآليات ما تجعله يتخطى العقبات والعراقيل الموضوعة من أعتى قوى الأرض.

• وهي دليل أيضًا على أن سلاح المقاومة وإن كان قليلًا أو محدود المدى والتأثير، فإن له تأثيرًا ردعيًّا كبيرًا على الاحتلال وعلى بقائه ووجوده.

نص الاتفاقية

«إن إسرائيل والولايات المتحدة إذ يعودان بالذاكرة إلى التزام الولايات المتحدة الثابت بأمن إسرائيل، بما في ذلك الحدود الآمنة والقابلة للدفاع، وبصيانة وتقوية قدرة إسرائيل على الردع والدفاع عن نفسها بنفسها من أي تهديد أو مزيج من التهديدات.

وإذ تعيدان التأكيد على أن مثل هذا الالتزام ينعكس على التعاون الأمني والعسكري والاستخباراتي بين الولايات المتحدة وإسرائيل والحوار الإستراتيجي الدائر بينهما، ومستوى ونوعية المعونة التي تقدمها الولايات المتحدة لإسرائيل.

وإذ تدركان أن الحصول على الأسلحة والعتاد واستخدامها من قبل الإرهابيين ضد إسرائيل كانا العاملين المباشرين في وقوع الأعمال العدوانية الأخيرة.

وإذ تدركان ما يهدد إسرائيل من جراء النشاط الإرهابي المنطلق من غزة، بما فيه تهريب الأسلحة ونمو القدرات والسلاح والبُنى التحتية الإرهابية، كما تدركان ما تتمتع به إسرائيل ـ شأنها شأن جميع الدول ـ من حق طبيعي في الدفاع عن النفس، بما في ذلك حقها في الدفاع عن نفسها من الإرهاب من خلال العمل المناسب.

وإذ تدركان أيضًا أن مكافحة عمليات توريد الأسلحة والمتفجرات إلى غزة هي مسعى متعدد الأبعاد، ومحكوم بالنتائج المترتبة عليه، وله مركز إقليمي ومقومات دولية تعمل بالتوازي، وأنه من أولويات المساعي التي تبذلها الولايات المتحدة وإسرائيل لضمان وقف الأعمال العدوانية بشكل دائم ومستمر، فإنهما قد توصلتا إلى التفاهمات التالية :

١ ـ يتعاون الجانبان مع الدول المجاورة وبالتوازي مع غيرها من أعضاء المجتمع الدولي على منع توريد الأسلحة والعتاد للمنظمات الإرهابية التي تشكل تهديدًا على أي من الجانبين، مركزين بصفة خاصة على توريد الأسلحة والعتاد والمتفجرات لحماس وغيرها من المنظمات الإرهابية.

٢ ـ تعمل الولايات المتحدة ـ بالتعاون مع شركائها في المنطقة، وفي حلف شمال الأطلنطي ـ للتعامل مع مشكلة توريد الأسلحة والعتاد وإرساليات وشحنات الأسلحة إلى حماس وغيرها من المنظمات الإرهابية في غزة، بما في ذلك ما يمر عبر البحر الأبيض المتوسط وخليج عدن والبحر الأحمر وشرق أفريقيا. وذلك من خلال تحسين الترتيبات القائمة، أو إطلاق مبادرات جديدة ترمي إلى زيادة فعالية تلك الترتيبات وما يتعلق منها بمنع تهريب الأسلحة إلى غزة. ومن بين الوسائل التي يتم اتباعها، زيادة التعاون الأمني والاستخباراتي بين الولايات المتحدة والحكومات الإقليمية في منع تدفق الأسلحة والمتفجرات إلى غزة والتي تنطلق منها أو تمر عبر أراضيها، متضمنًا ذلك أعمال المؤسسات ذات الصلة ضمن الحكومة الأمريكية، ومنها القيادة الوسطى، والقيادة الأوروبية، والقيادة الأفريقية، وقيادة العمليات الخاصة الأمريكية، زيادة تلاحم الجهد الاستخباراتي مع أهم القوى الدولية، والقوات البحرية للتحالف، وهيئات أخرى مناسبة للتعامل مع توريد الأسلحة إلى غزة. تشديد العقوبات الدولية، وآليات التطبيق ضد تقديم المساعدة المادية لحماس وغيرها من المنظمات الإرهابية، بما في ذلك الرد الدولي على إيران وغيرها من الدول التي تصر على أن تكون مصدرًا لتوريد الأسلحة والمتفجرات إلى غزة.

٣ ـ تساعد الولايات المتحدة وإسرائيل بعضهما البعض من خلال تعزيز عملية تقاسم المعلومات والمواد الاستخباراتية المفيدة في التعرف على مصدر الأسلحة المرسلة إلى المنظمات الإرهابية في غزة، والقنوات التي يتم إيصالها من خلالها.

٤ ـ تعمل الولايات المتحدة على تحثيث جهودها لتقديم المساعدات اللوجستية والفنية وتدريب وتجهيز القوى الأمنية الإقليمية في أساليب مكافحة التهريب، من خلال العمل على تعزيز برامج المعونات التي تعمل بها حاليًا.

٥ ـ تتشاور الولايات المتحدة وتتعاون مع شركائها الإقليميين في توسيع نطاق برامج المساعدات الدولية للمجتمعات المتأثرة بهدف توفير الدخل والعمل البديلين لمن كانوا يعملون في مجال التهريب.

٦ ـ يقوم الجانبان بإنشاء الآليات الكفيلة بالتعاون العسكري والاستخباراتي بغية تقاسم المعلومات الاستخباراتية ومتابعة تنفيذ الخطوات التي تقضي بها مذكرة التفاهم هذه ولتقديم التوصيات بشأن وسائل إضافية تستهدف دفع أهداف مذكرة التفاهم هذه. وفيما يتعلق بالتعاون العسكري، ستكون الآلية المستخدمة هي مجموعة مكافحة الإرهاب الأمريكية الإسرائيلية المشتركة، والمباحثات السنوية لقوات البلدين العسكرية والمجموعة السياسية العسكرية المشتركة.

٧ ـ تخضع مذكرة التفاهم هذه والمتعلقة بالالتزامات السياسية المستمرة بين الجانبين للقوانين والأنظمة المعمول بها في كل من البلدين، بما فيها تلك التي تحكم إمكانية تخصيص الأموال وتقاسم المعلومات الاستخبارية»[١].

الاتفاقية تدخل حيز التنفيذ

شرعت أمريكا في تنفيذ تعهداتها طبقًا لهذه الاتفاقية، وذلك لإحكام الحصار حول قطاع غزة، ومحاولة منع وصول أي عتاد له. واتخذ تحركها مسارين رئيسيين، هما:

مطاردة شحنات السلاح

يقول الصحفي الإسرائيلي ألداد باك: «حرج كبير للسلطات في ألمانيا: سلاح البحرية الأمريكية أوقف قبل عشرة أيام في البحر الأحمر سفينة نقل ألمانية، وكشف على متنها شحنة سلاح كبيرة خرجت من إيران، وكانت مخصصة أغلب الظن لحماس أو لحزب الله»[٢].

الضغط على مصر لبناء الجدار الفولاذي

«بدأت مصر إقامة حائط حديدي ضخم على طول محور فيلادلفيا لحل مشكلة تهريب السلاح ووسائل القتال إلى داخل قطاع غزة. وحسب الخطة المصرية، سيُبنى حائط بطول ٩ ـ ١٠ كم، وبعمق ٢٠ ـ ٣٠ مترًا تحت الأرض. وحسب التقديرات المختلفة، فإن الحائط ـ الذي سيُبنى من الفولاذ ـ سيكون غير قابل للاختراق أو الإذابة.

---

(١) موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية.

(٢) ألداد باك، سفينة ألمانية نقلت سلاحًا إلى حماس، يديعوت، ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٩.

النشاط في موضوع الأنفاق جاء في أعقاب ضغط أمريكي على القاهرة لتغيير نمط العمل القائم في المنطقة. كل أسبوع تقريبًا، ينجح المصريون في الكشف عن عدة أنفاق وتدمير أخرى. عدد القتلى الفلسطينيين في الأنفاق يواصل الارتفاع ؛ ولكنّ التهريب متواصل رغم ذلك. مؤخرًا، فحص المصريون عدة وسائل لمكافحة ظاهرة الأنفاق. خبراء أمن أمريكيون تجولوا في المنطقة لمساعدة المصريين في العثور على الأنفاق من خلال استخدام جساسات تحت أرضية.

يبدو أن حل الحائط الحديدي هو الذي أُقر. إلى أن يُستكمل البناء، سيتواصل التهريب عبر الأنفاق والذي يزود القطاع اليوم بقسم كبير من البضائع المدنية إضافة إلى وسائل القتال. حتى بعد إقامة الحائط، لا يوجد يقين بأن التهريب سيتوقف تمامًا»[1].

* * *

(١) آفي يسسخروف، مصر تبني عائقًا من الفولاذ في عمق محور فيلادلفيا لمنع التهريب، هاآرتس، ٢٠٠٩/١٢/٩.

الباب الثامن

حرب غزة ومستقبل الصراع

الفصل الأول

إسرائيل على شفير الهاوية

تمثل حرب غزة مرحلة مهمة من المسيرة الإسرائيلية للإخفاق والفشل، وغياب الرؤية السليمة للصراع. وتمثل أيضًا حلقة أخرى من حلقات ضعف المناعة القومية للكيان الصهيوني، وضعف مكوناته النفسية والاجتماعية والإستراتيجية.

فإسرائيل تدرك تمامًا أنه لا مناص لها من الانتصار في أي مواجهة مع العرب. أما الهزيمة فهي تهديد خطير لوجودها، «كان بن جوريون هو الذي قال: إن إسرائيل إذا انتصرت في خمسين حربًا فإنها لن تخضع العالم العربي؛ لكن حسبُ العرب أن ينتصروا في حرب واحدة من أجل القضاء على دولة إسرائيل»[1].

وقد رصدنا في الباب الأول الربط بين حرب غزة ومستقبل الكيان الصهيوني. وكيف أن هذه الحرب هي حرب اللاانبعاث، وهي وصفة للفناء الذاتي الإسرائيلي.

وفي هذا الفصل نستكمل شهادات كتاب العدو على أثر حرب غزة ـ وما تلاها من تمسك حماس بشروطها في صفقة شاليط ـ على مستقبل الكيان الصهيوني:

الثمار العفنة

يقول نداف هعتسني: «من أوجد الهروب والطرد المسميين انفصالًا لم يشأ أن يفكر إلى

---

(١) يوفال شتانيتس، ثقافة الحرب الضائعة، هاآرتس، ١٧/ ٨/ ٢٠٠٦.

النهاية. سُئل شارون ورامون وليفني عشية الانفصال ماذا سيحدث إذا هاجمنا الفلسطينيون بعد أن ننسحب ونُقتلع ؟ قالوا بثقة كبيرة: «سنضربهم بكامل القوة، وسيكون العالم كله إلى جانبنا».

على هذه الخلفية، عندما توالت الهجمات على غربي النقب، أُضطر محدثو الانفصال إلى استعمال نظام الدفاع عن الذات الذي وعدوا بتطبيقه. استعملوه وأضروا بنا جميعًا. لست أخال أنه توجد في التاريخ الصهيوني حرب أضرت بصورتنا في العالم مثل «الرصاص المصهور». منذ طرد العرب في ١٩٤٨ إلى السيطرة على مناطق الضفة في عملية السور الواقي، لم نقطف ثمارًا عفنة إلى هذا الحد.

يعبر تصور الانفصال أيضًا عن يأس أكثر لمعسكر السلام الإسرائيلي من تصور مهادن سابق هو تصور أوسلو. لأن الهرب من المناطق الفلسطينية وإقامة الجدار هو نتاج يأس من إمكان إحراز سلام حقيقي، ولو بثمن استسلام مناطق تام. الهروب من غزة هو الهروب من أوسلو، وكلاهما معًا يجسد الهرب من الواقع. من يهرب من الواقع يضطر إلى استعمال القسوة. ومن يستعمل القسوة يحصد ثمار هربه العفنة»[1].

حماس تُنْزل إسرائيل إلى ركبتيها

عندما يفقد شعب الدافع إلى التضحية، فإن الخسائر البشرية ـ سواء القتل أو الأسر ـ تُنزله إلى ركبتيه، يقول المفكر الإسرائيلي زئيف شتيرنهل: «تبين في صيف ٢٠٠٦ نهائيًا، أن المجتمع الإسرائيلي لن يكون مستعدًا بعدُ للثبات في حرب اختيارية تتطلب ضحايا. فإسرائيل تريد انتصارات ؛ لكنها ترفض دفع الثمن البشري الذي تشتمل عليه. لهذا تم اتخاذ قرار واعٍ، هو ثمرة تقدير سياسي بارد، على القيام بحملة عقاب غزة بلا خسائر»[2].

إلى أن تصنع حماس الجميل

يعلق أليكس فيشمان على الشريط المصور لجلعاد شاليط الذي قدمته حماس إلى الوسيط الألماني لقاء تحرير عشرين أسيرة فلسطينية، فيقول: «حماس تُنْزل دولة بأكملها إلى ركبتيها.

---

(١) نداف هعتسني، مهما فعلنا لن يغفر لنا العالم، معاريف، ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٩.
(٢) زئيف شتيرنهل، لا يوجد ما يُحقق فيه، هاآرتس، ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٩.

تبتز تحرير عشرين سجينة أخرى ؛ وعندنا تصفيق عاصف. هذا الشريط يُعظّم حقيقة أن المخابرات وباقي محافل الأمن لم يتمكنوا من جلب معلومة تسمح بإنقاذ جلعاد من الأسر. ثلاث سنوات، ١٠ كيلومترات عن البيت، وليس هناك أحد لديه فكرة عن وضعه، إلى أن تصنع حماس الجميل للمبعوث الألماني وتطلق شريطًا بثمن مبالغ فيه»[1].

لو كنت فلسطينيًا

وفي تعليق بالغ الدلالة لأحد المسئولين الإسرائيليين ينقله بن كاسبيت، فيقول: «شريط مصور مقابل عشرين سجينة يتوسل أبو مازن للحصول عليهن منذ أشهر. قال إسرائيلي بارز مقرب من هذه القضية بالأمس: لو كنت فلسطينيًّا لأعطيتُ صوتي لحماس. مع كل الاحترام للحياة الجيدة في رام الله والمجمعات التجارية والتفاؤل، فإن «حماس» تبرهن للجمهور الإسرائيلي في كل مرة من جديد أنها هي فقط التي تعرف كيف تُركِّع إسرائيل، وهي التي تعرف فقط كيف تجلب البضاعة المطلوبة. هم اختاروا تسع عشرة سجينة من الضفة وواحدة من غزة فقط عن قصد حتى يحرجوا «أبو مازن»، حتى تكون الصور في رام الله واضحة. وما هذه إلا البداية. انتظروا لتروا ما الذي سيحدث عندما سيعلن عن الصفقة ذاتها»[2].

استسلام بلا خجل

صفقة شاليط كما يراها رئيس دائرة الأسرى في الموساد هي: «استسلام بلا خجل وبلا قاع لمطالب حماس. فالصفقة تُعيد إلى ميدان المعركة كبار القتلة. التجربة الماضية تفيد بأنهم سيعودون إلى العمل فيما يكون الثمن هو مئات القتلى في المستقبل. وتُعلِّم الفلسطينيين أن التصدي الوحيد حيال إسرائيل هو بالقوة. وستكون حماس مكللة بالنصر، وتتبنى فكرة إبادة إسرائيل»[3].

---

(١) أليكس فيشمان، لا مبرر للاحتفال، يديعوت، ١/ ١٠/ ٢٠٠٩.
(٢) بن كاسبيت، يد لحماس، معاريف، ٢/ ١٠/ ٢٠٠٩.
(٣) رامي إيجرا، الصفقة التي ستغير المنطقة، إسرائيل اليوم، ٢٤/ ١١/ ٢٠٠٩.

الزمن ليس في صالح إسرائيل

العالم يتغير. ولكنه تغير ليس في صالح إسرائيل والقوى الداعمة لها، يقول الجنرال المتقاعد يعقوب عمدرور: «بعد انفراط المعسكر الشيوعي بدا للحظة أن رؤيا الأنبياء حول السلام العالمي ستتحقق. أكاديمي أمريكي ألف كتابًا أسماه «نهاية التاريخ». وفي إسرائيل بدءوا يحلمون بالشرق الأوسط الجديد. الواقع انقلب على هؤلاء الأنبياء الكبار: التحديات اليوم أكبر وأشد ثقلًا، وليس من الواضح البتة أن هناك حلولًا متفائلة لأغلبيتها.

هناك أمور تؤثر على مناطق بعينها مثل: تعاظم قوة إيران الآخذة في التحول إلى دولة نووية، أو الخوف من سقوط باكستان النووية تحت ضغط طالبان وحلفائها من القاعدة الذين يعززون قوتهم في أفغانستان.

في الجزء القريب من إسرائيل يتضح رويدًا رويدًا أن «حماس» التي سيطرت على غزة تبني قدرات صاروخية قادرة على الوصول إلى أغلبية أراضي إسرائيل. «حزب الله» شكل جيشًا حقيقيًّا في لبنان رغم أنه دولة سيادية وعضو في الأمم المتحدة.

جزء من هذه المجريات يبدو غير قابل للتغيير على المدى الطويل، وهي ذات قدرة كامنة على التغيير الحقيقي بالنسبة لطابع العالم الإنساني. على سبيل المثال، أوروبا تتحول إلى قارة إسلامية يومًا بعد يوم. وفي أفريقيا تنهار الدول بسبب الإيدز والمجاعة.

السؤال المثير هو: لماذا لا يواجه العالم هذه التحديات؟ ما السبب وراء خيبة الأمل من سلوك العالم بعد عشرين سنة من ذلك الحلم الكبير؟ ليس هناك على ما يبدو سبب واحد للفشل المتواصل؛ ولكن من الممكن أن نذكر ثلاث نقاط مركزية تؤثر على بعضها البعض:

- دول أوروبا فقدت الرغبة في التضحية بالأرواح أو الموارد الكبيرة، وأثَّر ذلك أيضًا على قدرتها على خوض الكفاح من أجل مبدأ مهم. ما زالت هذه الدول تعتمد على قوة وإصرار الولايات المتحدة التي أنقذتهم في حربين عالميتين وخلال الحرب الباردة.

- الولايات المتحدة الأمريكية - التي تحملت هذا العبء طوال خمسة أجيال - مرهقة اليوم، وتنشد الهدوء. هي قد سئمت لعب دور شرطي العالم، هذا الدور الباهظ والصعب. لا غرابة إذن من أن أجزاءً ملموسة في الولايات المتحدة تبحث هي الأخرى عن نهج سياسي جوهره الامتناع عن الالتزامات التي تتطلب التضحيات.

● عدا هاتين القوتين - الاتحاد الأوروبي وأمريكا - ليست في العالم قوة كافية لتحمل هذا العبء. الدول الكبيرة التي تتطلع إلى مكانة دولية مثل الهند والصين وروسيا تحرص على مصالحها الضيقة، ولا تحاول المساعدة في بناء عالم أفضل.

الأمم المتحدة تحولت في حالات كثيرة إلى أسيرة بيد الأغلبية التلقائية من الدول. للمسلمين كتلة تلقائية تبلغ ثلث أعضاء الأمم المتحدة. واحتمال تمرير قرار من دون تأييد هذه الكتلة معدوم.

ما مغزى وجود عالم في وضع حرج ومفتقد للقيادة بالنسبة إلى دولة إسرائيل ؟ ما الذي يجب على إسرائيل أن تفعله إن كان الاستنتاج الحزين بأن العالم مجرد من الآليات والأجهزة الملائمة لمعالجة المشاكل الماثلة أمامه صحيحًا ؟ يبدو أن الاستنتاج حرج وحاسم تمامًا لدولة إسرائيل[1].

* * *

---

(١) يعقوب عمدرور، بعد ٢٠ عامًا من سقوط المعسكر الشيوعي: تبدد وهم نشوء عالم جديد خالٍ من العداء، إسرائيل اليوم، ٢٠/١١/٢٠٠٩.

الفصل الثاني

إسرائيل لن تنجح في قمع تطلع الشعب الفلسطيني إلى الاستقلال

«يعتقد إيهود باراك أنه قد قُضي على إسرائيل أن تحيا من مواجهة إلى مواجهة، ومن جولة إلى جولة. فحماس تتلقى ضربة، وتبادر إلى تهدئة، وتزيد قوتها من جديد، وتطلق الصواريخ، وتضرب، وتزيد قوة، وهكذا دواليك. ويرى أنه لو كنا هاجمنا حماس في الصيف الماضي لاضطُررنا مرة أخرى إلى مهاجمتها الآن»[1].

«المجتمع الإسرائيلي لا يمكنه أن يواصل التملص من يسأل نفسه: لماذا حملة «رصاص مصهور» ـ التي كانت شروط بدايتها كاملة جدًّا ـ تبدو كخطوة تتدحرج نحو تعادل مخيب للآمال، رغم أنه طُبقت فيها كل الأمور الحكيمة التي تعلمناها في أعقاب حرب لبنان الثانية؟

الجواب بسيط ؛ ولكن زوغان البصر الذي يغشى عيون المجتمع الإسرائيلي منذ حرب الأيام الستة يجعل من الصعب عليه أن يلاحظ ذلك: النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني غير قابل للحسم بالقوة. إسرائيل لن تنجح في قمع تطلع الشعب الفلسطيني إلى الاستقلال. لا يمكن لأي قوة عسكرية أن تقتلع من قلوب ملايين الناس أمانيهم لتحقيق طموحاتهم الوطنية.

لقد قطعت إسرائيل شوطًا عسيرًا منذ حزيران يونيو ١٩٦٧ بسبب رفضها التسليم بهذا الواقع. وكلما مر الوقت ارتفع الثمن الذي يتعين على الدولة أن تدفعه لتسوية النزاع. مع

---

(١) ناحوم برنياع وشمعون شيفر، عدنا إليك ثانية، يديعوت، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.

نهاية الأسبوع الثاني من الحرب، علقت إسرائيل في وضع هي مطالبة فيه أن تمنح اعترافًا - وإن لم يكن معلنًا - بمكانة التيار الإسلامي المتطرف في المجتمع الفلسطيني. محاوره لم يعد منظمة التحرير - ممثل التيار العلماني الوطني - الذي رأت فيه منذ زمن غير بعيد العدو اللدود للصهيونية، وهو يظهر الآن كأمنية لها في المداولات لإنهاء المواجهة»[1].

اعتراف إسرائيلي بخطورة الكفاح المسلح الفلسطيني

«في أحيان متقاربة نسمع السخرية من القتال الفلسطيني وتقزيم أضراره. لا يوجد أي تسويغ موضوعي لهذه السخرية. فقد قتل الكفاح المسلح الفلسطيني في الانتفاضة الثانية أكثر من ألف إسرائيلي، أي أكثر من عدد القتلى الإسرائيليين في حرب لبنان الأولى والثانية معًا، أو في حرب ١٩٦٧، أو في حرب سيناء. ليس هذا مسرحًا ولا لعبة أطفال. لم يكن عند الهنود الحمر صواريخ. ولم يكن لهم تأييد من قوة إقليمية، أو قدرة ما تشبه القدرة الفلسطينية على إدخال مئات آلاف الإسرائيليين في مدى الصواريخ.

إن علاقات القوى بين منظمات إرهاب وحرب عصابات وبين دولة تحاربها لا تقاس على حسب أنواع السلاح التي يملكها الطرفان. هذا عرض داحض للأمور، يخالف كل تجربة جُمعت في العالم. من ذا الذي لا يعلم أن منظمات إرهاب وحرب عصابات حاربت بفاعلية جيوشًا عصرية وهزمتها أكثر من مرة ؟!»[2].

الاحتلال إلى زوال

الاحتلال زائل لا محالة، يقول يوسي ساريد: «ما حصل لسور برلين قبل عشرين سنة، والمكافحة ضد الأبرتهايد بعد عدة أشهر، هذا ما سيحصل للاحتلال أيضًا. فهو سينهار حتى لو عززوه بالمسامير»[3]. وهو يقصد بذلك الاحتلال الإسرائيلي لأراضي ١٩٦٧. ولكن لا بد أن نشير هنا إلى أن مستقبل الكيان الصهيوني نفسه محل تساؤل كبير لدى الكتاب والساسة الإسرائيليين ولدى بعض الغربيين أيضًا، وهذا يحتاج لبحث مستقل لا يتسع المجال له هنا.

---

(١) عوزي بنزيمان، الفيل والمشكلة الإسرائيلية، معاريف، ٨/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) ألكسندر يعقوبسون، ليس القتل مسرحًا، هاآرتس، ٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٣) يوسي ساريد، فلسطين الآن، هاآرتس، ١٣/ ١١/ ٢٠٠٩.

ويقول أرال سيغل: « السياسة الأمريكية تنبع من التآكل في المواقف الإسرائيلية. في عهد أوسلو البهيج تحدثوا عن نقل ٦٠ ـ ٧٠ ٪ من أراضي الضفة للفلسطينيين. في ١٩٩٩، وافق باراك على الانسحاب من ٩٨ ٪ من الأراضي في كامب ديفيد. ما كان بوسعنا أن نحققه في حينه نحن لا نستطيع أن نحققه اليوم، وغدًا سنُضطر إلى أن ندفع بالفائدة.

بينما يتواصل التآكل نصل إلى أماكن سخيفة؛ الفلسطينيون يعرفون بأن الصبر مُجد، وقد فهموا جيدًا رسالة: حكم نتساريم[1] كحكم تل أبيب»[2].

شرك أرض إسرائيل الكاملة

يقول عاموس عمير نائب قائد سلاح الجو الإسرائيلي السابق: «عندما أقلعنا في صباح الخامس من يونيو حزيران ١٩٦٧ إلى عملية «موكيد» لمهاجمة سلاح الجو المصري، عرفنا أننا نشن حربًا دفاعية عادلة لا مثيل لها. كنا جميعًا شركاء في النشوة الكبرى. صدمنا النصر فلم نلحظ كيف جُرَّتِ إسرائيل إلى الشرك المفاجئ الذي أسميناه أرض إسرائيل الكاملة.

بن جوريون فهم الوضع على حقيقته. ودعا إلى إعادة كل المناطق المحتلة مقابل السلام. ولكننا ـ نحن من جرفنا الحلم والوهن ـ لم ننصت له. قالوا لنا: «شرم الشيخ دون سلام خير من سلام دون شرم الشيخ ؟» ونحن هززنا الرأس. كيف انكببنا بغباء على وهم «مملكة إسرائيل الثالثة»، ولم نفهم على الإطلاق حجم السخافة ؟!.

رأينا كيف أن الشباب والشابات يستوطنون دونمًا إثر دونم في الضفة وغزة. لم نستوعب على الإطلاق كيف كانت حكومات إسرائيل ـ على أجيالها الطامعة في الحكم ـ خائفة وعديمة الفهم التاريخي، تستسلم مرتعدة أمام شعب يهودا[3] المصمم والمناور.

في منحدر طريقنا الملتوي نجحنا في أن نقيم، حزب الله في لبنان وحماس في المناطق، جُررنا إلى الانتفاضتين، ربينا جيلًا من الفلسطينيين الشباب المصممين بقدر لا يقل عنا»[4].

---

(١) نتساريم هي إحدى المستوطنات الإسرائيلية في قطاع غزة والتي كان شارون يقول عنها: نتساريم كتل أبيب؛ ولكنه اضطر تحت وطأة صواريخ المقاومة الفلسطينية إلى الانسحاب منها ومن باقي مستوطنات القطاع في سبتمبر ٢٠٠٥.

(٢) أرال سيغل، المواقف الإسرائيلية .. آن أوان الكف عن لعبة التظاهر، معاريف، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٩.

(٣) المستوطنون في الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧.

(٤) عاموس عمير، ٤٢ سنة من السخافة السياسية الإسرائيلية، يديعوت، ٥/ ٧/ ٢٠٠٩.

نتنياهو: البلاد مقسمة منذ الآن

في مقابلة صحفية، قال نتنياهو: «البلاد مقسمة منذ الآن. بأي شكل ستوزع البلاد ؟ كان هناك من تنبأ مسبقًا بخطوط ١٩٦٧ غير القابلة للدفاع. إسرائيل بحاجة إلى حدود دفاعية. يوجد أيضًا واقع قائم بالنسبة لمليون ونصف فلسطيني يعيشون في لب الوطن اليهودي. علينا أن نبحث عن حل حقيقي للتعايش معهم. نحن لا نريد أن يكونوا مواطنين ولا رعايا لنا»[١].

* * *

(١) شلومو تسزنا وآخرون، رئيس الوزراء في مقابلة خاصة: البلاد مقسمة منذ الآن، إسرائيل اليوم، ١٦/٩/٢٠٠٩.

الفصل الثالث

صواريخ المقاومة ومستقبل الكيان الصهيوني

الصواريخ الفلسطينية على الرغم من بدائيتها تمثل تهديدًا خطيرًا لأمن وبقاء إسرائيل، وتشكل حماية للأمن القومي العربي من مخاطر حرب إسرائيلية شاملة، يعترف بذلك يوفال شتاينتس، فيقول: «عندما ستتبدد أعمدة الدخان في الجنوب سيتعين علينا أن نصحو لنسأل أنفسنا: كيف اقتنت حماس القدرة على تشويش الحياة في ثلث الدولة وإدخال مليون إسرائيلي إلى الملاجئ ؟! وما معنى الأمر ؟!

مفهوم الأرض مقابل السلام شدد على مبدأ التجريد من السلاح والجيوش للأراضي التي ستُسلم. من الحيويّ على نحو خاص، تجريد أراضي الضفة وغزة بسبب قربها من المراكز السكانية، قواعد سلاح الجو، والمنشآت الإستراتيجية. والإبقاء على تجريد السلطة الفلسطينية يقوم على أساس بضعة ضمانات:

- الاتفاقيات بيننا وبين الفلسطينيين.
- السلام مع الأردن، والذي يتضمن التزامًا بإحباط التهريب من أراضيه.
- وقدرة الردع - أي قدرة الجيش الإسرائيلي على السيطرة على الأراضي في حالة إقامة منظومة عسكرية.

ولكن الضمانات انهارت كبرج ورقي. الاتفاقيات مع الفلسطينيين انهارت عندما

سيطرت حماس بالقوة على غزة. فمنذ وقّعت إسرائيل مع مصر على الاتفاق البائس المسمى «اتفاق محور فيلادلفيا» في عام ٢٠٠٥، نمت التهريبات بآلاف في المائة.

انهيار التجريد من شأنه أن يكرر نفسه بحدة أكبر بكثير في السنوات القريبة المقبلة، سواء في غزة أو في الضفة إذا انسحبت إسرائيل منها أيضًا. في مثل هذه الحالة، ستصبح إسرائيل دولة عديمة الحماية؛ لأن التهديدات المدفعية وتهديدات مضادات الطائرات على مسافة قريبة جدًّا من مراكزها السكانية وبُناها التحتية العسكرية ستمس بقدرتها على أداء المهام في حالة حرب شاملة.

وحتى القدرة على تشويش الحياة في وسط البلاد من المناطق المجاورة ـ مثلما يجري الآن في الجنوب ـ تكفي لتهديد اقتصاد الدولة ومجرد بقائها على قيد الحياة لزمن طويل.

من يتجاهلون انهيار التجريد في غزة ويواصلون التمسك بصيغة الأرض مقابل السلام من شأنهم أن يجدوا أنفسهم يراهنون على مجرد وجود الدولة»[1].

صواريخ أكثر دقة ومدى أبعد

«التهديد الذي ستقف أمامه إسرائيل في جولة قتال أخرى في غزة ـ ولا سيما في لبنان ـ صواريخ أكثر دقة، ومدى أبعد.

الصواريخ والمقذوفات الصاروخية التي نشرها حزب الله وحماس تغطي كل أراضي الدولة كما يصفون ذلك في شعبة الاستخبارات في الجيش الإسرائيلي. في الحروب القادمة، سيتعين على الجيش الإسرائيلي أن يعمل في ظل تلقي قصف شديد في الجبهة الداخلية الإسرائيلية. ستكون هناك حاجة إلى استخدام قوة عظيمة لإيقاف النار المعادية»[2].

الكابوس الأمني الأشد منذ ١٩٤٨

صواريخ المقاومة سواء في غزة أو جنوب لبنان هي الكابوس الأمني الأشد منذ عام ١٩٤٨ على حد تعبير آفي شنيئور مدير الجمعية الإسرائيلية للدفاع ضد الصواريخ، فيقول:

---

(١) يوفال شتاينتس، التجريد المفقود، هاآرتس، ١٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) عاموس هرئيل، نار قواتنا، هاآرتس، ١٥/ ١١/ ٢٠٠٩.

«في السنوات الأخيرة، يركز أعداؤنا جُل جهودهم على الاستعداد لحرب الصواريخ. عمليًّا منذ اليوم، موجه نحونا أكبر أسطول من الصواريخ الباليستية في العالم. وعندما تتفرغ الحكومة الجديدة لتقدير المكانة الإستراتيجية لإسرائيل وتحديد الاتجاهات والسياسات الجديدة، فإنها ستقف أمام الكابوس الأمني الأشد الذي تقف أمامه إسرائيل منذ العام ١٩٤٨.

نحن نسيطر بلا منازع على المجال الجوي في الشرق الأوسط ؛ ولكن ليس على مجالنا الجوي. أعداؤنا من الشمال قادرون على أن يملئوا سماء إسرائيل بالصواريخ وبالقذائف الصاروخية. ومن اللحظة التي تصعد فيها هذه إلى الجو، فإن قدرة اعتراضها ستكون محدودة جدًّا.

مع أن لدى إسرائيل صاروخ حيتس ـ منظومة دفاعية منتشرة وقوية ضد الصواريخ ترمي إلى اعتراض الصواريخ على المدى البعيد والمتوسط ـ إلا أنه ليس لدينا بعد دفاع ناجع ونشط ضد الصواريخ والقاذفات الصاروخية القصيرة المدى. غياب خطة دفاعية شاملة ضد هذه الصواريخ يدل على فجوة كبيرة ـ من ناحية التصدي للتهديد المتزايد ـ بين المكان الذي نوجد فيه الآن وبين المكان الذي ينبغي لنا أن نوجد فيه.

حقيقة أنه بعد ثماني سنوات وبعد أعمال عسكرية عديدة لم يكن بوسعنا منع نار الصواريخ من غزة تشكل ضوء تحذير خطيرًا، في الحرب القادمة، سنتصدى لرءوس متفجرة بوزن نصف طن تنزل على أهداف أُختيرت بعناية. وبالتالي فمن الحيوي أن نبدأ في التركيز على هذا التهديد»[1].

الصواريخ وإستراتيجية المقاومة

تمثل صواريخ المقاومة تهديدًا إستراتيجيًّا خطيرًا لإسرائيل ووسيلة إنهاك فعالة للوجود الصهيوني، يقول موشيه أرنس وزير الدفاع الأسبق: «في حرب الخليج الأولى، أطلقت العراق على إسرائيل صواريخ أتى بها من الاتحاد السوفيتي وكوريا الشمالية.

منذ تلك الحرب، أصبحت الصواريخ السلاح الذي يفضله أعداء إسرائيل. تقوم

---

(١) آفي شنيئور، التهديد الأكبر: صواريخ في سماء إسرائيل، يديعوت، ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٩.

عشرات الآلاف منها ـ والعدد يكبر كل يوم ـ في غزة وفي جنوب لبنان، وتهدد جميع مواطني إسرائيل. إن ما كان يبدو في أيام صواريخ الكاتيوشا التي أُطلقت على شمال الدولة قلق محتمل أصبح تهديدًا إستراتيجيًّا. كلما زاد عدد الصواريخ، أحجمت حكومة إسرائيل ـ التي تخاف خسائر باهظة تصيب مواطنيها ـ عن الأخذ بعمل ناجع للقضاء على التهديد.

إستراتيجية الإرهابيين بسيطة: عندما يملكون مخزون صواريخ على نحو كاف فإنهم يطلقونها على إسرائيل من آن لآخر، أو يقومون بأعمال تحرش أخرى كاختطاف جنود، عالمين بأن الحكومة ستحجم عن الرد بالقوة خوف إطلاق كثيف للصواريخ على البلدات.

الحديث الآن عن وضع لا يطاق بالنسبة لإسرائيل. فسكانها المدنيون صاروا كرهائن عند الإرهابيين في الشمال والجنوب. إن مدى الصواريخ يغطي الآن جميع مساحتها. تهديد الصواريخ الدائم من قبل منظمات إرهابية كحزب الله وحماس هو خطر حقيقي على أمن إسرائيل»[1].

حماس تستعد للجولة القادمة

استوعبت حماس أخطاءها في حرب الرصاص المصهور، وهي تعمل على ترميم وتطوير قدراتها العسكرية استعدادًا للجولات القادمة، يقول أمير بوحبوط: «استخلصت حماس استنتاجات من «رصاص مصهور». وهي تعمل على تعظيم كبير لقوتها كاستعداد لجولة أخرى مع إسرائيل. وحسب التقديرات في جهاز الأمن، لدى المنظمة قدرات أحسن مما كانت لها قبل حملة الجيش الإسرائيلي، في صورة آلاف المقذوفات الصاروخية والوسائل القتالية الأخرى المخبأة جيدًا تحت الأرض. جُمعت كميات هائلة من الوسائل القتالية داخل قطاع غزة، هُرِّب معظمها من إيران وسوريا، فيما أنتجت الباقية الصناعة العسكرية المحلية في غزة. كان الهدف الأساس لدى المنظمة هو توسيع مدى المقذوفات الصاروخية حتى مسافة ٨٠ كيلومترًا إلى عمق الجبهة الداخلية الإسرائيلية. وهو مدى يغطي بل ويتجاوز تل أبيب الموسعة.

سباق التسلح لدى حماس يتضمن مئات المقذوفات الصاروخية إلى مسافات مختلفة، بل وصواريخ قسام متطورة، صواريخ كاتيوشا وصواريخ فجر من إنتاج إيراني.

(١) موشيه أرنس، من فون براون إلى نصر الله، هاآرتس، ١٨/ ١١/ ٢٠٠٩.

أساس التخوف في إسرائيل هو من عبوات شواظ الإيرانية شديدة الانفجار القادرة على اختراق سمك ٢٠٠ ملم من الفولاذ.

في حماس قرروا الاستعداد لإمكانية تشديد وتيرة إطلاق الصواريخ. ولهذا الغرض تعاظمت صناعة الأنفاق على طول قطاع غزة. في السنة الأخيرة، حُفرت عشرات الكيلومترات من الأنفاق تحت مدينة غزة ومحيطها. وقد بُنيت الأنفاق تحت منازل المواطنين، وأُقيمت فيها مواقع إطلاق تحت أرضية.

التقديرات في جهاز الأمن تتحدث عن أنفاق تحت أرضية بُنيت أيضًا في اتجاه إسرائيل بهدف السماح لمخربي حماس بالتسلل إلى البلاد، وتنفيذ عمليات، واختطاف جنود»[1].

* * *

(١) أمير بوحبوط، جيش القطاع، معاريف، ١١/ ١٢/ ٢٠٠٩.

الفصل الرابع

إسرائيل والبحث عن شرعية الوجود والبقاء

أعادت حرب غزة بقوة إلى ذاكرة العالم السؤال عن شرعية وجود إسرائيل. وعاد الربط بينها وبين جنوب أفريقيا إبان فترة حكم الأقلية البيضاء، يقول الداد يانيف: «أقدام إسرائيل آخذة في الانحسار في العالم. وهي لا بد ستصل إلى حالة جنوب أفريقيا. على بنيامين نتنياهو أن يقرر إذا كان هذا سيحصل في نوبة حراسته، وإسرائيل ستغلق قصة حكمها للضفة مثلما أغلق شارون قصة إسرائيل في غزة وباراك في لبنان. وإلا، فبعد نتنياهو، سيأتي فريدريك دي كلارك[١] الإسرائيلي، ويقودنا إلى شاطئ الأمان»[٢].

ولقد تحدث الكثير من الكُتاب الإسرائيليين عن هذا السؤال المثار عالميًا عن شرعية وجود إسرائيل، وعدّوه مؤشرًا على السقوط والتحطم، ومؤشرًا على تكبيل يد إسرائيل في أي حرب قادمة، ومؤشرًا أيضًا على الملاحقة القانونية الدولية لكل من شارك في هذه الحرب من الساسة والضباط والجنود. وجاءت عباراتهم دالة على المأزق الوجودي الذي تحياه إسرائيل اليوم، مثل: كيان منبوذ، دولة مارقة، دولة برصاء، الحيوان الدنس.

---

(١) آخر رئيس وزراء أبيض في تاريخ جنوب أفريقيا، وهو الذي أصدر قرارًا بالإفراج عن نلسون مانديلا بعد كفاح طويل للسود هناك وبعد عقود من حكم التفرقة العنصرية. وكان خروج مانديلا إيذانًا بانتهاء حكم الأقلية البيضاء وعودة الحق لأصحابه الأغلبية السوداء.

(٢) ألداد يانيف، دي كلارك إسرائيلي، هاآرتس، ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٩.

شرعية القيام تتلاشى

«تحت الماء الهادئ-الذي تبحر فوقه السفينة الإسرائيلية-جبل جليد. كان تقرير جولدستون أول ظهور لجبل الجليد. إدارة الظهر التركية ظهور آخر. مطاردة ضباط الجيش الإسرائيلي في أوروبا ظهوره الثالث. مقاطعة منتجات وشركات إسرائيلية في أماكن مختلفة في العالم ظهور رابع. وبلادة الحس إزاء قوة تحصل على القدرة الذرية وتهدد بمحو إسرائيل ظهور خامس. في كل يوم يُظهر الجبل الجليدي وجهه. جبل الجليد هو فقدان إسرائيل شرعيتها.

قبل ٩٢ سنة، أرسل اللورد بلفور إلى اللورد روتشيلد رسالة اعترف فيها بحق الشعب اليهودي في إقامة وطن قومي في أرض إسرائيل. وقبل ٦٢ سنة، اعترفت الأمم المتحدة بحق الشعب اليهودي في إقامة دولة يهودية.

تصريح بلفور ١٩١٧ وقرار تقسيم الأمم المتحدة ١٩٤٧ منحا الصهيونية القاعدة السياسية التي قامت عليها دولة اليهود وما زالت تقوم. لكنه في العقد الأخير أخذت القاعدة تضعف. وفكرة دولة يهودية معرضة للهجوم. وحق الشعب اليهودي في إقامة سيادة والدفاع عنها مختلف فيه. على نحو مفارق، كلما ازدادت دولة إسرائيل قوة تلاشت شرعيتها.

إن المعركة على تجديد الشرعية الإسرائيلية معركة حيوية. فلن تستطيع إسرائيل بغير شرعية أن تواجه إيران. وبغير شرعية، لن تتوصل إسرائيل إلى السلام، ولن تستطيع أيضًا أن تدير حربًا.

لإعادة ما فقدته إسرائيل إليها، فثمة حاجة ضرورية إلى مبادرة سياسية خلاقة جريئة تبرهن على أن إسرائيل تسعى حقًّا إلى إنهاء الاحتلال. من جهة ثانية، توجد حاجة إلى تجنيد النخب الإسرائيلية واليهودية للنضال عن تأسيس الشرعية الإسرائيلية من جديد. لا يقل هذا النضال أهمية عن النضالات التي أثمرت تصريح بلفور وقرار التقسيم. إذا لم يتم البدء به على الفور وإذا لم ينجح في أسرع وقت، فستصبح إسرائيل برصاء»[1].

إسرائيل الدولة المارقة والحيوان الدنس

يحذر إسرائيل هرئيل من تشكيل لجنة تحقيق إسرائيلية نزولًا على مطالبة تقرير جولدستون،

(١) آري شفيت، إسرائيل وفقدان الشرعية العالمية، هاآرتس، ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٩.

فيقول: «إن لم تتوقف هذه السخافة اللامنطقية، فلن يكون لدينا جيش مقاتل. يريدون تحويلنا إلى دولة مارقة في نظر العالم. والناس يخافون خوفًا خياليًا من المارقين المجذومين. هذا الخوف يتمخض عنه الكراهية. كما أن دماء المارقين ـ وخصوصًا أولئك الذين ينفذون جرائم ضد الإنسانية ـ مستباحة ومهدورة.

بروتوكولات حكماء صهيون اتهمتنا بحياكة مؤامرة عالمية شاملة. وها هو قاض يهودي يأتي ويكشف لنا النقاب عن أن الحقيقة أكثر مرارة: ما إن عدنا إلى وطننا حتى شرعنا بتنفيذ جرائم أسوأ بأضعاف المرات. السيطرة على البنوك ووسائل الإعلام ودق الإسفين والنزاعات بين الشعوب هذه كانت فقط طرف جبل الجليد. عندما يستخدم اليهود جيشًا يكشفون عن شيطانيتهم الكاملة. هذا سبب آخر من وراء وجوب إزالة الكيان اليهودي المستقل.

مؤامرة تحويلنا إلى مجذومين مارقين في نظر العالم تُحفَر عميقًا في وعي أمم كثيرة، بما فيها تلك التي تدعي أنها تحمل راية العدالة الطاهرة. الأمر المشترك بين كل المجندين ضدنا هو الرغبة في إضفاء صورة الحيوان الدنس على إسرائيل»[1].

العالم يتقلص أمام إسرائيل

«بعد سنوات طويلة من الاستخفاف التام بالأسرة الدولية وخرق القوانين والمواثيق، ثمة أخيرًا في النخبة العسكرية من لا يمكنهم أن يطيروا إلى سويسرا لغرض التزلج، أو إلى حضور أوبرا في كوبنت جاردن أو إلى معرض تكنولوجيا عليا في إسبانيا، دون أن يستشيروا أولًا محاميهم.

الشعار الوقح لدافيد بن جوريون: «ليس مُهمًا ما يقوله الأغيار، مُهمٌّ ما يفعله اليهود» رافق دوما إسرائيل، ومنح تخويلًا تمرديًا لأسرتها الأمنية من الموساد والجيش وحتى الوحدات الخاصة. غير أن شعار بن جوريون كان كاذبًا. دولة إسرائيل مع كل القوة العسكرية كانت متعلقة دومًا بما يقوله العالم: « إسرائيل وُلدت من قرار دراماتيكي للجمعية العمومية للأمم المتحدة».

العالم ـ لدى الإسرائيليين ـ تقلص لينحصر في الغرب الاستعماري السابق. ورويدًا

(١) إسرائيل هرئيل، لا تشكلوا لجنة تحقيق في عملية الرصاص المصهور، هاآرتس، ١/ ١٠/ ٢٠٠٩.

رويدًا تقلص أيضًا الغرب لينحصر في الولايات المتحدة. وهذه تقلصت لتنحصر في مجموعة الضغط غير المحبوبة جدًّا هناك، بصناعات السلاح، الأجهزة السرية والبنتاجون. باختصار، العالم تقلص إلى ما شخصته النخبة العسكرية كعالمها. العلاقات الخاصة أُعتبرت إنجازًا، إذ إن إسرائيل اجتهدت جدًّا منذ قيامها لإقناع الولايات المتحدة بأنها ذخر إستراتيجي لها.

باختصار، هذه الخدعة «ليس مهمًّا ما يقوله العالم» تتحطم الآن مرة أخرى في الوجه. يوجد عالم ليس كله بائع سلاح، ليس كله مزدوج المعايير، ليس كله لاساميًا. حان الوقت للتزود ببعض من المعايير الجديدة للواقع»[1].

قبل أن يصبح الأمر متأخرا جدًا

«أُستقبل رئيس الدولة شمعون بيريز في الأرجنتين وفي البرازيل بتظاهرات عدائية. وفي دول كثيرة يقاطعون منتجات إسرائيل، ويتلقى محاضرون إسرائيليون في كل حرم جامعي في العالم الغربي صيحات تنديد. إيهود أولمرت ـ الذي كان في حملة محاضرات في الولايات المتحدة في المدة الأخيرة ـ كان يلقى في كل منتدى تقريبًا صيحات من نوع: أنتم قتلة أطفال.

إن أكثر الأشياء إقلاقًا ما يحدث داخل الجامعات الأمريكية، التي أصبحت رويدًا رويدًا مشايعة للفلسطينيين معادية للإسرائيليين. وهذا خطر لأن قادة أمريكا في المستقبل يتخرجون من هناك. ليس ذلك لدوافع معادية للسامية كما يزعم مقاولونا السياسيون.

قبل أن نحشر أنوفنا في مشكلات حصول إيران على القدرة الذرية، يفضل أن تبحث الحكومة كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه، وما الذي يجب فعله لوقف سقوط صورتنا في العالم قبل أن يصبح الأمر متأخرًا جدًّا»[2].

انتصار محمل بالهزيمة

«بعد عشرة أشهر يبدو أن العملية في غزة كانت انتصارًا محملًا بالهزيمة. خلافًا لحرب لبنان الثانية التي انتهت مع وقف النار ؛ لا تزال حرب غزة مستمرة في الدبلوماسية وفي

---

(١) إسحاق ليئور، إطفاء نور للأغيار، هاآرتس، ٦/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٢) يوئيل ماركوس، كيف أصبحت إسرائيل ظلامًا للأغيار، هاآرتس، ٢٤/ ١١/ ٢٠٠٩.

الرأي العام. نقل الفلسطينيون الحرب إلى الساحة المريحة لهم، ويستغلون تفوقهم في الرأي العام. الدعوات إلى مقاطعة إسرائيل تتعزز. تركيا تنفض عنها الحلف الإستراتيجي مع إسرائيل. حماس تتلقى بالتدريج الاعتراف كجهة شرعية، وتجمع الصواريخ دون مُعيق. زعماء إسرائيل منشغلون بالدفاع عن أنفسهم، ويخشون أوامر الاعتقال في أوروبا»[١].

ملّنا العالم

يقول إيتان هابر رئيس ديوان إسحق رابين: «في هذه العهود من العولمة، العالم بات أصغر، بات مُعاديًا، بل وكارهًا لخارقي النظام العاقّين، ونحن نُعتبر كذلك. انتهت الأيام التي كان يقول فيها رئيس وزراء إسرائيل هاتفيًّا للرئيس الأمريكي: «أريد أن أراك» ويقفز إليه في الغداة. انتهت الهواتف إلى البيت الأبيض والتي كانت تُنسَق فيها المحادثات: «أنت تقول كذا» و«أنا أقول كذا»، أو الهاتف من القدس مثل الأمر: «نحن نقترح أن تعقبوا بكذا وكذا». الولايات المتحدة لا تزال تؤيد بنزاهة إسرائيل، ولكن الأصم الغبي والصغير فقط لا يلاحظ ما يحصل. ملّنا العالم الذي يريد الهدوء رغم العراق وأفغانستان»[٢].

صبر العالم آخذ في التضاؤل

يقول دوف فايسغلاس مستشار شارون تعليقًا على تقرير جولدستون: «التأييد الذي يحظى به التقرير في دول مهمة *ليست كلها معادية لإسرائيل*، يدل على أن صبر العالم على إسرائيل آخذ في التضاؤل. فالجميع يرون أن النزاع هو السبب في معظم الشرور التي تصيب العالم، والثقة في جدية نوايا إسرائيل في تحقيق تسوية سياسية مع الفلسطينيين آخذة في النفاد. وهكذا فإن جملة «العالم كله ضدنا» من شأنها أن تصبح واقعًا»[٣].

إسرائيل بعيون مفتوحة تسير نحو التحطم والسقوط

يتحدث شلومو جازيت الرئيس الأسبق لجهاز الاستخبارات العسكرية عن مستقبل

---

(١) ألوف بن، مصداقية جولدستون، هاآرتس، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٢) إيتان هابر، نهاية اللعبة، يديعوت، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٣) دوف فايسغلاس، تقرير جولدستون: هذه مجرد الأعراض، يديعوت، ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٩.

إسرائيل القاتم، فيقول: «كلنا نعرف قصة الرجل الذي سقط من سطح مبنى الإمباير ستيت، وما إن مر على الطابق الـ ٥٤ حتى قرر: So far so good [1] هذه القصة ـ النكتة الحزينة ـ تصبح مقلقة على نحو خاص عند التفكير فيها في السياق الإستراتيجي الوطني الإسرائيلي. فنحن نوجد في وضع مشابه من التدهور والسقوط. وسأكتفي بموضوعين يعودان ليكونا على جدول الأعمال الوطني عندنا. موضوعان لا يعالجان، ولا نحاول أن نقدم لهما جوابًا وحلًا. وكلنا ـ مثلما في تلك القصة ـ نواصل الادعاء بأن كل شيء على ما يرام:

• **الموضوع الأول**: هو عملية نزع الشرعية عن إسرائيل، عملية مشابهة لتلك التي اجتازها النظام الأبيض في جنوب أفريقيا وأدت إلى انهياره قبل ثلاثين سنة.

• **الموضوع الثاني**: هو الخطر الديموجرافي. في ظل غياب حل سياسي يفصل دولة إسرائيل ذات أغلبية يهودية متماسكة عن الكتلة العربية الفلسطينية التي بين البحر والنهر، فإننا نتقدم بعيون مفتوحة نحو قيام دولة ثنائية القومية تفقد فيها الأغلبية اليهودية سموها»[2].

* * *

---

(١) ترجمة هذه الجملة: حسن حتى الآن، أو كل شيء على ما يرام حتى الآن.

(٢) شلومو جازيت، إسرائيل بعيون مفتوحة تسير نحو التحطم والسقوط، معاريف، ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٩.

الباب التاسع

وبقيت كلمة أخيرة

الفصل الأول

وما زالت الحرب مستمرة

نعم قد انتهت الحرب عسكريًّا في ١٨ يناير ٢٠٠٩ ؛ ولكنها ما زالت مستمرة دون انقطاع على الصعيد الإنساني، ما دام هذا الحصار الجائر على قطاع غزة مستمرًّا، وما دامت آثار العدوان دون إعادة إعمار ما دمرته آلة الحرب الصهيونية. فلقد شهدت غزة في حرب الرصاص المصهور كارثة إنسانية. وحل بها دمار واسع غير مسبوق، وصفه جون هولمز مساعد الأمين العام للأمم المتحدة للشئون الإنسانية ومنسق الإغاثة الطارئة بقوله: «إن مستوى الكرب الإنساني والدمار الذي شاهدته اليوم - ومن أي زاوية نظرت إليه - يفطر القلوب. وإن معاناة المدنيين غير المتناسبة في هذه العملية العسكرية تثير الصدمة»[١].

«كانت الهجمات غير مسبوقة في حدَّتها وكثافتها، حتى في سياق الحملات العسكرية الإسرائيلية المميتة على نحو متزايد في غزة في السنوات السابقة. فقد قُتل من الفلسطينيين ودُمر من الممتلكات خلال الحملة العسكرية التي دامت ٢٢ يومًا أكثر مما قُتل ودُمر في أي هجوم إسرائيلي مضى»[٢].

«بعد مغادرة القوات الإسرائيلية غزة في ١٨ يناير (كانون الثاني)، بدت المنطقة وكأن

---

(١) منظمة العفو الدولية، عملية الرصاص المصهور: ٢٢ يومًا من الموت والدمار، يوليو، ٢٠٠٩، ص ٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٨.

زلزالًا ضربها»[1]. «ووفقًا لإحصاءات برنامج الغذاء العالمي التابع للأمم المتحدة ومنظمة الأغذية والزراعة، فقد تم تدمير ٣٥ ـ ٦٠٪ من القطاع الزراعي»[2].

هذا الدمار تحدث عنه الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر فقال: «بعد الهجوم الإسرائيلي على غزة، كان من نصيبي أن أفحص الضرر الذي لحق بالمنطقة الصغيرة، المأهولة باكتظاظ، والمحوطة بسور لا يمكن اختراقه، مع بوابات تحت حراسة مشددة.

ولمعرفتي بقدرة قوات الجيش الإسرائيلي، التي تستخدم في أحيان متواترة سلاحًا من إنتاج أمريكي، للهجوم على أهداف بدقة قصوى، كان من الصعب جدًّا أن أفهم أو أشرح تدمير مستشفيات، مدارس، سجون، منشآت الأمم المتحدة، مصانع صغيرة وكراجات، مصانع لمعالجة المنتجات الزراعية، ونحو ٤٠ ألف منزل»[3].

هذا الدمار الواسع يحتاج جهودًا حثيثة لإعادة إعمار غزة ورفع الحصار المضروب عليها، «طبقًا للأمم المتحدة، فإن القتال خلّف ستمائة ألف طن من الركام الخرساني ؛ لكن إسرائيل لم تسمح بإدخال أي مواد إعادة بناء إلى غزة على مدار العام الماضي خلا ٤١ حمولة شاحنة مواد بناء، أي نحو ٤ شاحنات شهريًّا. وكان يدخل غزة في المتوسط من مواد البناء كل شهر أثناء الشهور الخمسة السابقة على الحصار في عام ٢٠٠٧ عدد ٧٤٠٠ حمولة شاحنة»[4].

صرخة معوزي المأوى المتجمدين من البرد

يتحدث جيمي كارتر عن هذا الوضع المأساوي المستمر في غزة، فيقول: «معاناة ٥,١ مليون من سكان غزة الفلسطينيين متواصلة. نحو مائة ألف معوز للمأوى بائسون اجتازوا الشتاء الماضي في الخيام، تحت غطاءات بلاستيكية، أو منحشرين في الكهوف التي حُفرت داخل حطام ما كانت في الماضي بيوتهم. حالة الطقس كانت أكثر حرارة حين زرت المكان قبل عدة أشهر، ولكنّ وصف المعاناة التي مر بها السكان في أشهر الشتاء البارد كانت تمزق نياط القلب.

---

(١) المصدر السابق، ص ٦٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٧١.

(٣) جيمي كارتر، شتاء آخر في غزة، يديعوت، ١١/ ١١/ ٢٠٠٩.

(٤) هيومان رايتس ووتش، في الذكرى الأولى لبدء القتال: الحصار يمنع إعادة الإعمار ويؤدي إلى مشكلة إنسانية، ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٩.

الآن يقترب شتاء آخر، والإسرائيليون وكذا الأسرة الدولية لم يتخذوا أي خطوة للتخفيف من معاناة سكان غزة. وكالات الأمم المتحدة ومسئولو الأسرة الأوروبية عرضوا توفير قناة لتوجيه المقدرات ومواد البناء مباشرة إلى المحتاجين متجاوزين الزعماء السياسيين لحماس. موظفون رسميون، سواء في غزة أم في دمشق تعهدوا أمامي بأن يقبلوا الاتفاق الذي يلغي كل إمكانية استغلال غير مناسب لأموال المساعدات لشراء السلاح، للتحصينات العسكرية، أو لأهداف أخرى ليست إنسانية. من الواجب على الأمم المتحدة وعلى الأسرة الدولية أن تتخذ خطوات تضمن بداية إعمار غزة دون إبطاء. صرخة معوزي المأوى المتجمدين من البرد تحتاج إلى النجدة»[1].

آفاق العيش الكريم لا تزال مسدودة

«لم يشهد الوضع منذ نهاية الحرب في غزة أي تحسن تقريبًا، ومرد ذلك أساسًا الإغلاق الصارم. ولا يوجد هناك من الدلائل التي تشير إلى أن مبلغ ٤,٥ مليار دولار أمريكي الذي تعهدت بدفعه البلدان المانحة في آذار مارس ٢٠٠٩ قد أصبح متاحًا. ويدل الإخفاق في الاستجابة للنداءات المتكررة بإنهاء عزلة غزة على غياب الإرادة السياسية التي ستسمح بإعادة الإعمار.

تدمير سبل كسب العيش

تشكو معظم العائلات في غزة من البطالة والفقر. وكثيرًا ما تضطر المخابز للتوقف عن العمل لنقص الوقود الذي تحتاجه. ويُعتبر الصيادون من أشد المتضررين من القيود المفروضة على الحركة. وقد انخفض صيدهم خلال الأشهر التسعة الأولى من عام ٢٠٠٩ بنسبة ٦٣٪ مقارنة بما كانت عليه الحال خلال الفترة نفسها في عام ٢٠٠٨ بعد قرار إسرائيل تقليص المساحة المخصصة لصيد الأسماك من ستة إلى ثلاثة أميال بحرية من ساحل غزة. ويُواجه الصيادون خطر إطلاق النار عليهم من البحرية الإسرائيلية. وقد سقط العديد من الضحايا منذ بداية هذه السنة.

وتشكل السلامة مصدر قلق كبير بالنسبة إلى المزارعين الذين يملكون أراضي تقع

---

(١) جيمي كارتر، شتاء آخر في غزة، يديعوت، ١١/ ١١/ ٢٠٠٩.

بالقرب من الحدود مع إسرائيل. ويمكن لبعض المزارعين أن يعملوا بحرية داخل مسافة ٣٥٠ مترًا من السياج، بينما يتعرض الآخرون لخطر إطلاق النار عليهم في حال اقترابهم إلى مسافة ١,٢٠٠ متر. ولا يمكنهم في بعض المناطق الوصول إلى مزارعهم على الإطلاق.

غياب الرعاية الصحية الملائمة

تضطر المرافق الطبية في كثير من الأحيان في غزة إلى العمل في ظروف دون المستوى المطلوب. وهي لا تواجه مشاكل إمدادات المياه والصرف الصحي فحسب؛ وإنما أيضًا مشاكل انقطاع إمدادات الطاقة وتقلبها مما يؤدي إلى إلحاق ضرر بالمعدات التي يتعذر في الغالب إصلاحها بعد تعطلها.

ولا تزال الأدوية الأساسية والإمدادات الطبية محدودة أو غير متوافرة أصلًا. وبلغ عدد الأدوية غير المتاحة في أواخر تشرين الثاني نوفمبر ٢٠٠٩، ٧٥ من أصل ٤٦٠ دواءً تعتبر أساسية. وعلاوة على ذلك، لم يكن المخزون يحتوي على أكثر من ١٠٠ نوع من أصل ٧٨٠ من المستلزمات التي تطرح بعد الاستعمال والتي يفترض توافرها، مما اضطر الطاقم الطبي في قسم الولادة إلى إعادة استخدام المواد التي لا تستخدم في الأصل إلا مرة واحدة مثل أنابيب التنفس الصناعي، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى إصابات مميتة.

وتتأخر واردات قطع غيار المعدات الطبية من إسرائيل كثيرًا. وقد أرسلت اللجنة الدولية على سبيل المثال قطع غيار تالفةً من أجهزة الغسيل الكلوي لأوروبا لإصلاحها، ومن المرجح أن يستغرق إصلاح هذه القطع سنة بكاملها على الأقل. وقد استغرق وصول قطع غيار سيارات الإسعاف ثمانية أشهر.

انهيار البنية التحتية للمياه والصرف الصحي

البنية التحتية الرئيسية في قطاع غزة مهدمة. ويشّل الإغلاق إمكانيات القيام بأي بناء جديد. ويقول السيد «خافيير كوردوبا» منسق اللجنة الدولية في مجال المياه والصرف الصحي: «لا يُسمح لنا حتى الآن بجلب معظم المواد اللازمة لصيانة البنية التحتية للمياه والصرف الصحي، وحتى إذا أردنا القيام ببعض الإصلاحات الصغيرة فعلينا أن نكافح لإيجاد بدائل أخرى. ومن المحزن حقًا ألا نرى أي تحسن على أرض الواقع».

وتعاني طبقة المياه الجوفية الرئيسية في غزة من خطر كبير جراء الإفراط في الضخ الذي يزيد من مستوى ملوحة المياه. ويؤدي انعدام مرافق الصرف الصحي المناسبة وبعض الممارسات الزراعية إلى تلويث المياه الجوفية، مما يُفضي إلى وجود مستويات عالية من النترات والملح في مياه الشرب. ومن الضروري اتخاذ تدابير عاجلة، مثل: بناء محطات لتحلية المياه، وتحسين شبكات الصرف الصحي. غير أن ذلك يتطلب استيراد كميات ضخمة من مواد البناء»[1].

* * *

(١) اللجنة الدولية للصليب الأحمر، غزة: آفاق العيش الكريم لا تزال مسدودة بعد مرور سنة على الحرب، ٢٢/١٢/٢٠٠٩.

الفصل الثاني

من يحمل مفاتيح معبر رفح؟!

يمثل معبر رفح شريان الحياة الوحيد بالنسبة لقطاع غزة ، ونافذته الوحيدة على العالم الخارجي في ظل الحصار المطبق الذي تفرضه إسرائيل على القطاع. ولكن، لماذا يظل المعبر مغلقًا بصورة شبه دائمة حتى في أحرج اللحظات مثلما حدث في حرب الرصاص المصهور؟! ولماذا لا يُسمح بمرور البضائع وقوافل الإغاثة من خلاله ؟! وهل لا تسمح إمكانيات المعبر بذلك ؟! وما حقيقة اتفاقية المعابر التي يتعلل بها البعض لبقاء المعبر مغلقا ؟! وهل التزمت إسرائيل بما تفرضه عليها هذه الاتفاقية حتى يُلزم العرب أنفسهم بها؟!

كل هذه الأسئلة يجيب عنها تقرير مهم لجمعيتي حقوق إنسان إسرائيليتين هما جمعية مسلك «مركز للدفاع عن حرية الحركة» وجمعية «أطباء لحقوق الإنسان ـ إسرائيل». صدر التقرير في مارس (آذار) عام ٢٠٠٩ تحت عنوان «من يحمل مفاتيح معبر رفح ؟!». يقول التقرير: «حاصرت إسرائيل القطاع تدريجيًا على مدى بضعة أعوام. ومنذ يونيو (حزيران) ٢٠٠٧ ، يخضع معبر رفح لإغلاق ثابت ، باستثناء بعض الحالات القليلة وغير المنتظمة التي تفتح السلطات المصرية المعبر فيها»[1].

و«بالرغم من عدم وجود قوات إسرائيلية على الحدود بين مصر وغزة ، تواصل إسرائيل

---

(١) مسلك مركز للدفاع عن حرية الحركة وجمعية أطباء لحقوق الإنسان ، مارس (آذار) ٢٠٠٩ ، ص ٥.

ممارسة السيطرة العملية المباشرة وغير المباشرة على إمكانية فتح معبر رفح، وتستخدم هذه السيطرة للضغط على سكان غزة، كجزء من سياسة العقوبات الجماعية»[1].

و«تواصل إسرائيل، فيما يتجاوز الاحتجاج العام ضد حماس، العمل على تخليد وضع إغلاق معبر رفح كوسيلة ضغط من أجل إطلاق سراح الجندي الأسير جلعاد شاليط، ونُقل عن رئيس الطاقم السياسي الأمني عاموس جلعاد، في الصحافة قوله: إذا لم يُطلق سراح جلعاد شاليط لن يُفتح معبر رفح»[2]. وذلك على الرغم من مخالفة ذلك لاتفاقية المعابر التي يستعرضها التقرير فيما بعد.

اتفاق المعابر

«في ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٥، وقعت إسرائيل والسلطة الفلسطينية ـ بوساطة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وبموافقة مصرية صامتة ـ اتفاقًا ينظم حركة التنقل وسُبُل التشغيل لمعبر رفح. الهدف المعلن للاتفاق كان «تحفيز التنمية الاقتصادية» و«تحسين الوضع الإنساني في المنطقة».

وفي هذا السياق، صرحت كوندوليزا رايس، وزيرة الخارجية الأمريكية التي لعبت دورًا رائدًا في المفاوضات التي مهّدت للاتفاق، في المؤتمر الصحفي الذي عُقد بعد التوقيع عليه: «يهدف الاتفاق إلى منح الشعب الفلسطيني حرية التنقل والتجارة والحياة العادية لأول مرة منذ ١٩٦٧، والذي بنطاقه سيُسيطر الفلسطينيون على الدخول إلى أراضيهم والخروج منها.

خافيير سولانا، ممثل الاتحاد الأوروبي الذي كان عضوًا في طاقم المفاوضات، صرح: «إنها المرة الأولى التي تصبح فيها هذه الحدود مفتوحة وغير خاضعة لسيطرة الإسرائيليين».

لم تكن مصر طرفًا في الاتفاق الذي وُقع بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية والذي يحدد الترتيبات بالجانب الفلسطيني للحدود.

(١) المصدر السابق، ص ٨.
(٢) المصدر السابق، ص ١٠٢.

ولقد أوضحت إسرائيل أنها لن تقوم بإغلاق المعبر نتيجة وقوع حادث أمني لا علاقة له بالمعبر نفسه. وإنما يتم إغلاقه فقط إذا ما نشأ تهديد واضح ومباشر على المعبر نفسه»[١].

«على النقيض من هذه التصريحات، لم يُتح للفلسطينيين سيطرة مستقلة على الحركة في كلا الاتجاهين من أراضيهم، ولم يتم احترام مبدأ التشغيل المتواصل للمعبر؛ بل لجأت إسرائيل إلى إغلاق المعبر مرارًا وتكرارًا من دون أن يكون للأمر علاقة بأخطار تهدّد المعبر»[٢].

معبر رفح قبل اتفاقية المعابر

منذ توقيع اتفاق أوسلو في عام ١٩٩٤، وبالإضافة لعمله عادة، فُتح معبر رفح للبضائع المستوردة، وكانت تدخله كل شهر بضع مئات من الشاحنات في طريقها إلى قطاع غزة محمّلة بالمواد الخام المستخدمة في البناء، السلع الغذائية، الملابس، الأدوية، القطع الكهربائية وغيرها من البضائع القادمة من مختلف الدول»[٣].

تنصل إسرائيل من التزاماتها في الاتفاقية

«حظر اتفاق المعابر الموقع في نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٥ دخول البضائع، باستثناء الممتلكات الشخصية، إلى القطاع من معبر رفح. فوفقًا للاتفاق تتم عملية الاستيراد عبر معبر كرم أبو سالم الواقع في أراضي إسرائيل والخاضع لسيطرتها المباشرة. في المقابل، أقرّ الاتفاق استخدام معبر رفح لتصدير البضائع إلى مصر، إلا أنه لم تُجرَ أي ترتيبات تتيح القيام بذلك. فقد خلق حظر الاستيراد عبر معبر رفح صعوبات معينة أمام قيام عملية التصدير من خلاله. إذ كان بمقدور الشاحنة الفلسطينية المحملة بالسلع أن تغادر غزة عبر رفح في إطار تطبيق بنود الاتفاق، إلا أنه لم يكن يُسمح لها بالعودة إلى القطاع، جراء حظر الاستيراد»[٤].

«قضى اتفاق المعابر بإمكانية الشروع في إقامة مرفأ بحري بغزة، بل وطالب إسرائيل أن

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧.
(٢) المصدر السابق، ص ١٨.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٠.
(٤) المصدر السابق، ص ٢١.

تعلن تعهدها للمتبرعين بعدم التدخّل في قضايا تشغيله. إلا أن إسرائيل لم تقدم للجهات المتبرعة ضمانات كهذه، وظل إنشاء الميناء حبرًا على ورق. وكذلك ما قضى به اتفاق المعابر من ضرورة إجراء مفاوضات لإعادة العمل بمطار قطاع غزة، فلم يخرج إلى حيز التنفيذ»[1].

الحالات الاستثنائية لفتح المعبر

«تقوم مصر بفتح معبر رفح بين الحين والآخر بشكل غير متوقع وغير منتظم ولفترات قصيرة بالتنسيق المباشر مع حماس، وهي تفعل ذلك بهدف تنفيس ضغط الراغبين إلى الانتقال من جانب إلى آخر، منعًا لتكرار حادث اقتحام الحدود على أيدي سكان القطاع، ولمواجهة الضغوط الصادرة عن الداخل المصري والعالم العربي. وتقول مصادر مصرية رسمية إن فتح الحدود يجري بموافقة إسرائيل والسلطة الفلسطينية؛ إذ تقوم مصر بإبلاغهما مسبقًا، بل وترسل إلى إسرائيل قائمة بأسماء المسافرين المحتَملين»[2].

أثر إغلاق معبر رفح على قطاع غزة

«إن إغلاق معبر رفح يُكمل عملية عزل قطاع غزة عن العالم الخارجي، وبإمكانيات المجتمع الفلسطيني في غزة للنهوض الاقتصادي، والتحوّل إلى مجتمع مُنفتح ومُتعلم قادر على الاعتماد نفسِهِ، وتوفير الرفاهية والازدهار لأبنائه»[3]:

الأثر الاقتصادي

«يمنع الإغلاق المحكم على معبر رفح مواصلة التجارة وإدارة الأعمال بين القطاع والعالم الخارجي. وقد جرت العادة أن يسافر رجال الأعمال من غزة إلى مصر، ومنها إلى دول أخرى لتنظيم الشئون والعلاقات التجارية مع الخارج. أما الآن فهم يُضطرون إلى نقل أعمالهم إلى أماكن أخرى، أو إلى مشاهدة أعمالهم التي استثمروا فيها تذهب سُدى»[4].

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٤.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٨.
(٣) المصدر السابق، ص ٧٧.
(٤) المصدر السابق، ص ٥٥.

و«يسعى عدد كبير من الفلسطينيين للعمل خارج قطاع غزة على ضوء معدلات البطالة العالية فيه. إلا أن إغلاق معبر رفح حَدّ من سفر آلاف الفلسطينيين إلى بلدان الخليج بغرض العمل، ومَنَع من العاملين هناك العودة لزيارة أهاليهم في القطاع»[1].

الأثر الاجتماعي

«لكثير من الفلسطينيين أقارب يقيمون في الدول العربية وفي دول أخرى. إلا أن إغلاق المعبر جعل السفر بحرية بهدف لقاء الأقارب أمرًا مستحيلًا، وعلى الغرار نفسه، قدوم أفراد الأسرة من الخارج للالتقاء في قطاع غزة»[2].

الأثر الصحي

«منذ يونيو (حزيران) ٢٠٠٧ ، لم يعُد بالإمكان إرسال المعدات الطبية التي يصيبها عطلٍ ما إلى خارج غزة لإصلاحها ، علمًا أنه لا مجال للعثور في القطاع على قطع غيار، بل كثيرًا ما يُحظر إدخال تلك القطع من خارج القطاع. أضف إلى ذلك، فثمّة نقص بالأدوية لا سيما جراء الإغلاق المتكرر لمعابر السلع على يد إسرائيل ، علمًا أن النقص يمس على نحو خاص الأدوية المخصصة لمرضى السرطان والكبد والكلى والأمراض المزمنة»[3].

* * *

(١) المصدر السابق ، ص ٥٨.
(٢) المصدر السابق ، ص ٦٩.
(٣) المصدر السابق ، ص ٨٠.

الفصل الثالث

وســائـل الإنصــاف

إن أحد الواجبات الهامة على الأمة السعي بجدية لمحاسبة الكيان الصهيوني على ما اقترفت يداه. وتمثل التقارير الدولية قاعدة نبني عليها. ولا يجب مطلقًا أن نكرر الخطأ الذي وقعت فيه السلطة الفلسطينية بإهمالها تفعيل توصية محكمة العدل الدولية بشأن الجدار؛ أو ما قامت به جامعة الدول العربية من حفظ تقرير لجنة جون دوجارد في أدراجها.

وسائل الإنصاف

لقد ختمت لجنة جون دوجارد تقريرها بفصل عنوانه «وسائل الإنصاف» يمكن من خلالها للدول والمنظمات غير الحكومية والأفراد ملاحقة إسرائيل جنائيًا ومدنيًا على جرائمها في غزة، بعد أن تخلى المجتمع العربي الرسمي عن القيام بهذا الدور:

- «الملاحقة القضائية لانتهاك أحكام اتفاقية جنيف الرابعة في المحاكم الوطنية وفقًا للمادتين ١٤٦ و١٤٧ من الاتفاقية.

- الملاحقة وفقًا لأحكام الاختصاص العام في النظم الأساسية التي تسمح بملاحقة شخص في دولة ثالثة عن جريمة دولية أُرتكبت خارج إقليمها.

- إحالتها إلى المحكمة الجنائية الدولية.

• يمكن للدول أن تشرع في إجراءات ضد إسرائيل لإخفاقها في منع ارتكاب جريمة الإبادة الجماعية أو في المعاقبة عليها إذا ما أمكن إثبات أن أعضاء قواتها المسلحة كانوا مسئولين عن ارتكاب هذه الجريمة.

• القانون الأمريكي لمعاقبة الأجانب، الذي يسمح للمحاكم الفيدرالية الأمريكية بممارسة اختصاصاتها بالنظر في أي دعوى مدنية يرفعها أجنبي عن مخالفة حكم قطعي من أحكام القانون الدولي خارج الولايات المتحدة»[1].

توصيات اللجنة

وخلصت اللجنة في تقريرها إلى مجموعة من التوصيات المهمة اللازمة لتفعيل التقرير. فقالت إنه يتعين على جامعة الدول العربية:

• «أن تطلب من خلال الجمعية العامة للأمم المتحدة رأيًا قانونيًّا من محكمة العدل الدولية حول حرب الرصاص المصهور.

• كما أن عليها أن تطلب من مجلس الأمن إحالة الوضع الناجم عن عملية الرصاص المصهور في غزة إلى المدعى العام للمحكمة الجنائية الدولية بموجب المادة ١٣ (ب) من نظام روما.

• أن تطلب من مجلس الأمن ـ وإذا تعذر ذلك أن تطلب من الجمعية العامة ـ أن تمارس مسئوليتها في الحماية، والتي تم التأكيد عليها في وثيقة استنتاجات القمة الصادرة في ٢٠٠٥ بشأن غزة.

• أن تطلب من حكومة سويسرا ـ بصفتها الدولة الراعية لاتفاقية جنيف الرابعة ـ عقد اجتماع للدول الأطراف في اتفاقية جنيف الرابعة لدراسة استنتاجات التقرير الحالي.

• أن توصي أعضاءها بالنظر في اتخاذ إجراءات قانونية ضد إسرائيل وفقًا للمادة ٩ من اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها.

• أن تشجع الدول على الملاحقة القضائية للأشخاص المسئولين عن الجرائم الدولية

---

(١) جامعة الدول العربية، لجنة جون دوجارد، لا مكان آمن، أبريل، ٢٠٠٩، ص ١٣، ١٤ مختصرًا.

المحددة في هذا التقرير أمام محاكمهم الوطنية متى سمح نظام الاختصاص القضائي العالمي بذلك.

• إنشاء مركز للتوثيق والاحتفاظ بسجل لانتهاكات القانون الدولي الإنساني في فلسطين. ومثل هذا الأرشيف التاريخي يضمن الاحتفاظ بسجل للجرائم التي اُرتكبت في حق الشعب الفلسطيني، وقد يساعد عند اتخاذ أي إجراءات في المستقبل من جانب جامعة الدول العربية أو غيرها من الهيئات الأخرى.

• إحالة هذا التقرير إلى الأمم المتحدة، والاتحاد الأوروبي، والاتحاد الأفريقي، ومنظمة الدول الأمريكية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ورابطة دول جنوب شرق آسيا، والمحكمة الجنائية الدولية، كما يجب أن يوزع على المنظمات غير الحكومية ذات الصلة، وعلى الجمهور العام»[1].

الانتفاضة القضائية

صاحب هذا المصطلح هو الكاتب الإسرائيلي نداف إيال[2] في معرض تعليقه على نجاح بعض النشطاء الفلسطينيين والبريطانيين في استصدار قرار توقيف ضد مجرمة الحرب تسيبي ليفني.

هذه الانتفاضة القضائية مطلوبة اليوم لتفعيل توصيات التقارير الدولية التي أدانت إسرائيل. هذه الانتفاضة تتطلب جهدًا شعبيًا ومؤسسيًا لجمع وتوثيق جرائم الحرب الصهيونية، ومساعدة أفراد الشعب الفلسطيني على رفع دعاوى شخصية للتعويض أمام المحاكم حتى داخل الولايات المتحدة نفسها، وملاحقة مجرمي الحرب الصهاينة دوليًا، وللضغط أيضًا على جامعة الدول العربية لتفعيل توصيات لجنة جون دوجارد ولجنة جولدستون، ومنع استقبال مجرمي الحرب في دولنا العربية أو الإسلامية، ولرفع الحصار الخانق المميت المضروب على غزة.

ويسهم تقرير لجنة جولدستون في الملاحقة القانونية ضد إسرائيل لانتهاكاتها ضد الشعب الفلسطيني ليس في غزة وحدها؛ بل أيضًا في مجمل الأراضي الفلسطينية ومن

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤ـ١٦ مختصرًا.

(٢) نداف إيال، لا تنتظروا لهذا أن يمر، معاريف، ١٧/ ١٢/ ٢٠٠٩.

بينهم فلسطينيو ٤٨ الذين يتعرضون للتمييز وقمع الحريات. وليس في حرب غزة وحدها؛ بل أيضًا فيما يتعلق بجرائمها الأخرى التي ارتكبتها والمذابح التي أوقعتها في الشعب الفلسطيني. ولعل توصية لجنة جون دوجارد بإنشاء مركز توثيق لهذه الجرائم يصبح مطلبًا ملحًا وضرورة وطنية وقومية. ومن المطلوب هنا أيضًا توثيق الجرائم التي ارتكبتها إسرائيل في حروبها ضد الشعوب العربية إحياءً للذاكرة القومية، وتذكيرًا للعالم بخطر هذا الكيان على البشرية، ومحاولة لرفع قضايا تعويض مدني ضد إسرائيل سواء على النطاق المحلي أو الدولي.

وإذا كانت إسرائيل في كل عام تحتفل بذكرى المحرقة النازية التي أقامت من أجلها مؤسسة ومتحفًا، وتجعل كل زائر لها لا بد أن يمر على هذا المتحف ؛ فواجب علينا نحن العرب ـ على الأقل على مستوى مؤسسات المجتمع المدني في دول الطوق العربية ـ أن نتبنى نموذجًا مماثلًا، فإسرائيل ستبقى هي العدو، وسيبقى تهديدها للأمن القومي العربي هو أخطر التحديات.

هذا بعض ما يجب فعله الآن لنصرة القطاع الصامد. فمثل هذه الوسائل تكبل يد إسرائيل، وتلجم جماحها. وإذا كان صوت الرصاص قد سكت مؤقتًا في القطاع، فاحتمالات نشوب حرب جديدة أمر وارد، كما أن احتمال تفجر انتفاضة ثالثة بسبب غزة أو القدس أمر غير مستبعد بالمرة. فهل نكون على مستوى الحدث؟ أسأل الله ذلك.

* * *

الفصل الرابع

ظواهر مهمة

أفرزت المقاومة بصمودها وأدائها، وصمود الشعب الفلسطيني والتفاف الرأي العام حوله في حرب غزة مجموعة من الظواهر الإيجابية، التي يحسن بنا ونحن نتلمس آفاق المستقبل، أن نقرأها وأن نستفيد منها وأن ننميها. وهي ظواهر تصب في صالح المشروع المقاوم. وترسم إستراتيجية المواجهة مع العدو. كما تفيد في معالجة حالة الانبطاح السياسي للنظم الحاكمة أمام المشروع الصهيوني.

من بين هذه الظواهر، أهمية الفرد الذي يحمل الإرادة على المقاومة حتى ولو كانت موازين القوى في غير صالحه.

ومن بينها أيضًا، أهمية الإعلام بصوره المختلفة مكتوبًا أو مرئيًا أو عبر الشبكة العنكبوتية في دعم الخط المقاوم وحشد الرأي العام المحلي والإقليمي والدولي.

كما أكدت حرب غزة على أهمية المقاومة في حماية الأمن القومي العربي. وكشفت عن عناصر الضعف الخطيرة في الكيان الصهيوني، وكيفية التغلب على اختلال موازين القوى مع العدو.

وحتى لا نكرر ما قلناه من قبل في هذا الكتاب، سنركز هنا على هذه الظواهر الثلاث التالية، والتي يمكن من خلالها قراءة آفاق المستقبل:

الظاهرة الأولى: إسرائيل تعيش مأزق قيادة ووجود

موقف إسرائيل الحالي وفي المستقبل المنظور، شبيه في بعض الوجوه بالاتحاد السوفيتي السابق قبل سقوطه وزواله. فمثلما دقت المقاومة الأفغانية المسمار الأخير في نعش الاتحاد السوفيتي، فكذلك هو دور المقاومة سواءً في فلسطين أو جنوب لبنان:

لأنهم تعبوا !!

بادرت إسرائيل إلى إيقاف إطلاق النار من طرف واحد يوم ١٨ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٩. ولأول مرة في تاريخ الصراع، تستكمل إسرائيل انسحابها من أرض المعارك في فترة زمنية وجيزة لم تتعدَ ثلاثة أيام بدون تلكؤ أو مساومات.

لم يكن إيقاف إطلاق النار أو الانسحاب لأن حماس رفعت الراية البيضاء، واستسلمت لشروط إسرائيل. فمن «اليوم الأول للحملة، تعرض إسرائيل على حماس خمسة شروط لوقف القتال:

- وقف النار الصاروخية من كل المنظمات.
- تحديد مجال أمني على طول الحدود لا يمكن لحماس أن تحتفظ فيه بقوات عسكرية.
- لا يوجد أي قيد زمني لوقف النار.
- كل المعابر ستبقى تحت السيطرة الإسرائيلية، واتفاق المعبر في رفح سيبقى كما تقرر في ٢٠٠٥.
- أعمال كاسحة من كل الجهات لتقليص التهريب.

إذا ما قبلت حماس كل هذه البنود، فعندها لا تكون الحرب. أما حماس، فإنها لا تقبل بها»(١).

إذا كانت حماس لم تستسلم ولم ترضخ للشروط الإسرائيلية، فما السبب الحقيقي إذن في إيقاف القتال ؟!، يقول بن كاسبيت: «لماذا أوقفنا الحرب حقًا ؟ لأننا تعبنا!!. وزير كبير اعترف بذلك أمس في حديث خاص. قال الوزير: هذا ليس سهلًا. فإدارة حرب هو أمر

---

(١) أليكس فيشمان ينتظرون توقف المطر، يديعوت، ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٨.

يمزق الأعصاب، ولا سيما في ظل ثقافة لجان التحقيق التي طورناها هنا. كل خلل أو خطأ بالصدفة أو انعدام الحظ يمكن أن يُنهي لك حياتك السياسية. غدًا أوباما يدخل البيت الأبيض، العالم قام علينا، من لديه القوة لذلك ؟!. صحيح، يوجد للدولة مصالح، ولكن هذه يمكنها أن تنتظر»[1].

ثقب الثقوب

«في أحد اللقاءات الأمنية بين إسرائيل والولايات المتحدة شارك فيها مندوب المخابرات الإسرائيلية ـ شخص برتبة موازية لرتبة لواء ـ، وقد تباهى على مسمع من الأمريكيين بالسيطرة الاستخبارية الإسرائيلية في قطاع غزة، فقال: لا يوجد بيت لا نعرف من يوجد فيه، لا يوجد ثقب لا نعرفه ؛ باستثناء ثقب واحد، الثقب الأهم، ثقب الثقوب، الثقب الذي يُحتجز فيه جلعاد شاليط.

من تلك الإخفاقات الاستخبارية التي شهدناها، القصور في العثور على الجندي المخطوف. وهو الإخفاق الأكثر غرابة. كل قصور وشبه قصور يُحَقق فيه في البلاد. أما هذا القصور فلم يُحقق فيه، ولن يُحقق فيه. نحن لا نعرف إذا كان شاليط لم يُعثر عليه لأن آسريه على قدر كبير من الذكاء، على قدر استثنائي كبير في المشهد الشرق أوسطي، محصنون تمامًا ضد الرشوة والغباء ؛ أم أن أحدًا ما في المنظومة فضل ألا يفرز المصادر اللازمة لذلك.

في هذه الحالة، عدم المعرفة تعفي القيادة السياسية والأمنية من المعضلة في إصدار الأوامر لتنفيذ حملة إنقاذ بكل المخاطر التي تنطوي عليها مثل هذه الحملة.

دولة غير قادرة على العثور على جندي لها أُختطف ـ ناهيك عن إنقاذه ـ تفقد جزءًا كبيرًا من قوتها على المساومة. لشدة الأسف، نحن قابلون للابتزاز»[2].

التفوق الإسرائيلي وهم كبير

ليس أنتوني كوردسمان الذي يرى أن إدارة إسرائيل هي «أسود تقودها حمير»، بل أيضًا ضباط في الجيش الإسرائيلي يرون ذلك، يقول أمير بوحبوط: «في مقال استثنائي كتبه

---

(١) بن كاسبيت، هكذا اتخذ القرار في المجلس الوزاري المصغر.. تعبنا، معاريف، ١٩/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) ناحوم برنياع، على الفشل يُدفع الثمن، يديعوت، ٤/ ١٠/ ٢٠٠٩.

المقدم د. روبي سندمان ـ رئيس شعبة التطبيقات في سلاح البحرية ـ طلب إلى ٢٤ ضابطًا كبيرًا إعطاء علامات تقدير لأداء الجيش الإسرائيلي في حرب لبنان الثانية، وكذا لنشاط المنظمة اللبنانية في عدة مجالات. المقال ـ الذي نُشر في مجلة «معرخوت» العسكرية ـ مُنح فيه حزب الله تقديرات أعلى من الجيش الإسرائيلي في مجالات الاستخبارات، والإستراتيجية، ونظرية القتال.

المقدم سندمان بادر إلى فحص مدى جاهزية الجيش الإسرائيلي للتهديدات المستقبلية من خلال توزيع استبيان على ٢٤ ضابطًا كبيرًا من رتبة مقدم فأعلى. ومن المعطيات التي وردت يتبين أن إسرائيل تتمتع بتفوق ساحق في مجال الوسائل القتالية والتنظيمية ؛ ولكنها تعاني بالذات في العوامل الضرورية لتحقيق الحسم: الإستراتيجية، ونظرية القتال، والقيادة والسعي إلى الحسم.

وجاء في المقال: «دون التفوق في مجال تخطيط المعركة وإدارة المعركة، لن يكون ممكنًا تحقيق الحسم». المقدم سندمان أضاف:

• تفوق سلاح الجو لم يعد قاطعًا. عدد المطارات قليل، وجميعها اليوم في مدى الصواريخ. سلاح الجو الجبار محبوس في جسد قزم.

• التفوق الاستخباري والتكنولوجي لإسرائيل هو ـ بقدر كبير ـ وهم، وذلك بسبب أزمنة الإنذار القصيرة، وبسبب الإمكانيات الكثيرة لدى أعدائها لتنفيذ أعمال تضليل.

• مبنى القوات في الجيش الإسرائيلي قديم، ولا ينطبق مع ميدان المعركة المتشكل. باستثناء الدوريات ؛ الجيش الإسرائيلي مبني في صيغة كتائب احتياط معقدة التنظيم وثقيلة الحركة.

• يجب الاستعداد للأيام التي لا تمنح فيها الولايات المتحدة إسرائيل مساعدة في حالة الطوارئ.

• وزن وتأثير يهود الولايات المتحدة آخذان في الانخفاض باستمرار»[1].

---

(١) أمير بوحبوط، نقاط للتفكير، معاريف، ٢٩/٩/٢٠٠٩.

إسرائيل لا تستطيع بمفردها الآن الدفاع عن نفسها. كان ذلك صحيحًا أيام الحروب التقليدية أمام جيوش نظامية ؛ أما الآن فأمام تنظيمات المقاومة فلا. يعترف بذلك عوفر شيلح فيقول: «معنى تعبير «الدفاع عن النفس» أخذ يتغير. وكذلك التصور الذي يقول: إن إسرائيل ستدافع وحدها عن نفسها لم يبقَ منه الكثير. ومن لا يفهم أن الدفاع عن إسرائيل يصحبه اليوم تعاون مع جهات أجنبية، ولا يمكن أن يتم من غيرها في واقع الأمر، سيتنبه ذات يوم على واقع غير لذيذ على نحو ظاهر.

الواجبات الأمنية ذات الشأن لإسرائيل ـ من مسارات تهريب الصواريخ إلى قطاع غزة، إلى إحباط مؤامرات الإرهاب الدولي، إلى منع تخريب أهداف إسرائيلية في البر والجو والبحر، إلى إحداث إمكان عمليات حقيقية لمهاجمة هدف بعيد ـ يوجد لجميعها قاسم مشترك واحد هو أنها تحتاج إلى تعاون، وعلم مسبق أو موافقة متأخرة، بجهات أجنبية. وبهذا المعنى يتجاوز معنى وقيمة عملية مثل «الرصاص المصهور» كثيرًا سؤال كم آلمنا حماس!

الحفاظ على أمن إسرائيل هو على نحو مباشر قضية تعاون دولي، فبغير نظم سلاح ما لا يمكن تطويرها هنا، وبغير تعاون استخباري وموافقة سياسية، لن نستطيع ببساطة أن ندفع عن أنفسنا الأخطار المهمة»[1].

الظاهرة الثانية: الدور المتعاظم للمنظمات الطوعية الدولية

للمنظمات الطوعية الدولية دور مهم في مواجهة العدو. هذا الدور يسميه المفكر العسكري الصهيوني غابي سيموني ـ رئيس مشروع الأبحاث العسكرية في معهد دراسات الأمن القومي ـ التهديد الثالث، فيقول: « إسرائيل منذ إقامتها مضطرة لمواجهة التهديد الذي يتربص بها من قبل الدول العربية. في البداية، أقامت الدول العربية قوة عسكرية بهدف احتلال إسرائيل. إسرائيل أقامت لمواجهة هذا التهديد المباشر هيكلية قوية أتاحت لها إحباط محاولات الاجتياح والاقتحام.

وما إن أدرك العدو أن ذلك ليس ناجعًا، بُنيت نظرية المقاومة التي تجمع بين نشاط

(١) عوفر شيلح، توجد أمور لا نفعلها وحدنا، معاريف، ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٩.

الدول والمنظمات. هذا النهج ترافق مع بناء قوة تهدف إلى استخدام سلاح صاروخي من خلال المناطق المدنية، وإطلاقه على التجمعات السكانية المدنية في إسرائيل.

ولكن في السنوات الأخيرة، ينشأ إلى جانب هذا التهديد تهديد جديد. جوهره: محاولات التنظيمات المؤيدة للعرب بإضعاف شرعية إسرائيل ككيان سياسي.

هذا التهديد يقود إلى مقاطعة الشركات والتجارة والبضائع الإسرائيلية، والمقاطعة الأكاديمية والثقافية، وأخيرًا توجيه النداءات لإزالة الكيان الصهيوني.

صناع القرار في حكومة إسرائيل ملزمون بالإدراك بأن الهجمات التي تُشن على شرعية إسرائيل السياسية ليست تنقيطًا بسيطًا ورذاذًا خفيفًا؛ وإنما طوفانًا حقيقيًّا يتعاظم. لا يجب تجاهل خطر نجاح هذه الهجمة في المستقبل في التأثير على صناع القرار في الأسرة الدولية.

جهات مؤيدة للعرب في أرجاء العالم تحاول وفي بعض الأحيان تنجح في بلبلة عقول بعض مواطني الدولة وإضعاف إيمانهم الأساسي بحق اليهود في بيت قومي لهم في دولة إسرائيل»[1].

الظاهرة الثالثة: أهمية الديمقراطية والدور التركي

تسعى إسرائيل لإعاقة التحول الديمقراطي في المنطقة، فهي لا يمكن أن تعيش إلا في ظل أنظمة ديكتاتورية تضمن لها الوجود والبقاء.

وتُعتبر التجربة التركية نموذجًا مهمًا ودليلًا حيًّا على أهمية الديمقراطية للخروج من وهدة التخلف والتبعية، وأهميتها أيضًا في مواجهة المشروع الصهيوني، يقول تسفي برئيل: «تركيا في نظر إسرائيل تُعتبر كدولتين: الأولى العسكرية، الشقيقة التوأم لإسرائيل؛ والثانية السياسية التي تميل إلى الإسلام.

في مسيرة طويلة ومضنية، أصبحت تركيا دولة أكثر ديمقراطية، الجيش لا يزال مسيطرًا، ولكن بعلنية أقل في المجال المدني. وقد تغلبت على معظم مشاكلها الاقتصادية، وأصبحت قوة عظمى اقتصادية إقليمية. كما أنها طورت إستراتيجية إقليمية جديدة. من يقرأ أقوال أحمد داود أوغلو، وزير خارجيتها، يفهم أن تركيا تتطلع إلى أن تكون ذات تأثير ليس فقط في الشرق الأوسط بل وفي القوقاز وفي آسيا»[2].

---

(١) غابي سيبوني، التهديد الثالث، هاآرتس، ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٩.

(٢) تسفي برئيل، قصة حب تركيا، هاآرتس، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.

هذه هي كلمتي الأخيرة

لقد أردت من هذا الكتاب أن يكون نافذة على العدو، نستطلع من خلالها كيف يفكر، وكيف يقرأ مستقبل الصراع، وكيف يُقيِّم دور المقاومة وأداءها. فمعرفة العدو نصف الطريق إلى النصر، والفضل ما شهد به الأعداء.

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

هذا الكتاب

- من يؤمن بالحق العربي الفلسطيني يخرج من قراءة هذا الكتاب أكثر ثقة في إمكان استرداد هذا الحق؛ لأنه يكشف ما في الجانب الآخر المعادي من خلل واهتزاز ثقة، ويكشف أن هذا البناء الشديد الذي شيدته الصهيونية على أرض فلسطين - بدولته وجيشه ومستوطنيه - إنما جذوره وأسسه ضامرة، إن قويت على حمله فهي لا تقوى على إبقائه إن عصفت به العواصف. وإن أهم ما هو مطلوب من الجانب العربي هو استمرار المقاومة من الداخل ومن حولها، ولو بجهد المقل ولو بالفعل الوئيد. الاستمرار وطول النفس في المقاومة بهما يسترد الحق ويعود لأصحابه، إن شاء الله تعالى.

- هذه الحرب على غزة في ٢٠٠٨ و٢٠٠٩ يسميها هذا الكتاب الحرب السابعة، وأنا أحسبها الحرب الثانية عشرة في سلسلة الحروب الأمريكية الإسرائيلية على العرب والفلسطينيين، وذلك إن أضفنا إلى السبعة المذكورين، حرب الاستنزاف التي قامت بها مصر على الإسرائيليين بين سنتي ١٩٦٧ و١٩٧٠ وانتفاضتي الفلسطينيين في سنتي ١٩٨٧و٢٠٠٠ وحربي العراق في سنتي ١٩٩١ و٢٠٠٣. هذه الحرب الأخيرة - وليست الآخرة - إذا نظرنا إليها حسبما يرد في هذا الكتاب نقلا عن ألسنة وأقلام لإسرائيليين وغربيين، إنما تكشف عن أن النمر الإسرائيلي سيئول نمرا من ورق بشرط استمرار المقاومة، بأي درجة من درجات القوة كانت.

